جمعية أولي العزم الدينية
لجنة الدعوة و التراث

اسرار القران
الجزء الثاني

الامام ابى العزائم

تفسير اسرار القران الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : [**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**(142)**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ** (143)] .

تمهيد:

يخبرنا ربنا عن اليهود من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بل وعن المنافقين والمشركين أنهم سيقولون – وقد ثبت من غير طريق أنهم قالوا – لأن اليهود قبحهم الله أشاعوا أن توليه رسول الله ε هو وأصحابه فى الصلاة الى الكعبة بعد بيت المقدس تردد ، ولم يكن عندهم نسخ فى أحكام التوراة ، فانتهزوا تلك الفرصة ، ليشككوا المسلمين ، وأن كان سبق منهم ذلك ، إلا أن الله سبحانه يجمع فى خبره بين من قالوا ومن سيقولون.

وفى عصرنا هذا نرى المترددين من أهل النفوس اللقسة من المسلمين ، ومن أعداء الله الكافرين ، الذين يريدون أن يفتنوا أهل الإسلام لأغراضهم الاستعمارية ، ظنا منهم أن المسلمين ينخدعون بزخرف أقوالهم فى فتح أبواب الفتن ، فنراهم يرسلون جيشا مزودا بالمال والقوى يسمونهم "المبشرين" ، وهم جنود الباطل والظلم ، ولو مكثوا قرونا طويلة ، ما وجدوا أجهل مسلم يقبل منهم باطلهم الذى يموهونه بما لا يقبله عقل ، ولا يميل إليه حسن.

وقد مضى عليهم قرون من أيام الحروب الصليبية وهم يكيدون لإسلام ، وما سمعنا أن مسلما ممن عاش فى الصحارى والفيافى والقفار اذا سمع كلامهم ووزنه بما تلقنه فى طفولته من كلمة التوحيد ، الا أعتقد أنهم أضل من الأنعام ، لأنه يسمع منهم أن رجلا قتله اليهود على زعمهم الكاذب هو إلا له ، أو ابن الله ، أو حل فيه إلا له ، ولو قالوا أن أمة قتلت ملكها أو ابن ملكها لا يصدق ، فكيف يصدق أن الله ولد ولدا وقتله أعداؤه اليهود ؟ وبعد أن سمع من أبيه وأمه (لا إله الله محمد رسول الله) وفقه معناها التنزيهى ، فكيف يفتتن مسلم بعد أن آمن بالله وبرسوله ε بقول كافر بالله يجعل له ندا أو ولدا أو يغير كلامه وأحكامه ؟ ذلك ما لا يتصوره انسان.

التفسير

قوله تعالى [**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**(142)]

معجزة من معجزات النبوة ، لأنها خبر من الله تعالى لها بضع عشرة مائة من السنين ، ولا يزال أهل النفاق وأهل الكفر بالله والشرك بالله يقولون هذا الكلام – والعليم الحكيم أعلم بعباده وبقواهم العقلية من أنفسهم بهم – هذا سر قوله تعالى [**سَيَقُولُ**] بالسين المفيدة للمستقبل القريب ، والسفهاء جمع سفيه.

والسفه ضد الحكمة – وهو وضع الشىء فى غير موضعه إفسادا للمال ، وكل من وقع فى السفه فأسرف فى ماله يحجر عليه ويقام له وصى ، فكيف إذا سفه فى دينه ؟ يكون الحجر عليه أولى – ومعنى الحجر عليه أن يعتبر رأيه وعقيدته ومبدؤه كرأى البهائم السائمة لا يعتنى به.

وكذلك القائلون هذا الكلام سفهت أحلامهم ، فكانوا من شياطين الإنس بالنسبة لسعيهم فى صد الناس عن دين الله تعالى ، وكانوا كالبهائم الوحشية الضارة التى يجب أن تستأصل من الوجود.

[مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ]:

(ما) للاستفهام الانكارى منهم ، كأنهم ينكرون استقبال رسول الله ε وأصحابه الكعبة المطهرة فى صلاتهم بعد بيت المقدس ، ولم يكن إنكارهم هذا إلا عنادا وبغضا للحق وأهله ، لأنهم قبحهم الله يعلمون صفات رسول الله ε التى أنزلها اله فى التوراة على موسى وعليهم ، وأنه ε من بنى عمهم اسماعيل كما صح ذلك عن موسى عليه السلام ، بل وعن الخليل عليه السلام، وعن عيس عليه السلام

ومع ذلك فإن خبث نفوسهم وبغضهم للحق دعاهم إلى الإنكار والى فتح أبواب الفتن على أهل الحق فقهرهم الله تعالى وأذلهم بقوله سبحانه قل يا محمد **[قل لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ]** يعنى أن الجهات الست لله تعالى ، فإن المشرق من جهة قطر الشمس من مبدأ شروقها إلى غروبها والمغرب من مبدأ غروبها إلى مبدأ شروقها ، فكانت الجهات كلها لله.ومتى كانت كل الجهات لله كان الحكم له سبحانه فى اختصاص أى جهة منها لتكون قبلة للصلاة ، لأن الخلاق العظيم هو الملك المتصرف فيما أبدع وخلق ، ليس لمخلوق مقهور أن ينكر عليه شيئا من حكمه ، اللهم إلا أن يلتمس من الله علم حكمة هذا الحكم بذل وخشوع وتواضع لمن خلقه وأبدعه ، وأمره ألا ينكر عليه سبحانه وتعالى فى شىء من أحكامه جل جلاله ، ومعنى (ولاهم) أى لفت نظرهم عن قبلتهم الأولى حتى أستدبروها ، ووجهوا وجوهم شطر الكعبة.

[يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]:

الهداية هى بيان الحقيقة جلية والإعانة على العمل بها أو ادراكها. فالهداية هنا هى كشف حقيقة القبلة ، وتوفيق الله المسلمين للعلم بها ن وأعانتهم على القيام بما أمر الله تعالى ، فهو الهادى والموفق والمعين.

وقوله تعالى (**مَنْ يَشَاءُ**) يعنى الذى سبق فى علمه هدايته وأقامته فى محابه ومراضية سبحانه . وفى الآية دليل على أن الله تعالى يقول لنا أنى خصصتكم بالهداية إلى الحق ، وأبعدت عن الطريق من لم يؤمن بحبيبى ε، فكبت الله بهذه الحجة الدامغة أهل العناد ، الذين حسدوا المسلمين على ما آتاهم الله من فضله ، وحرصوا على عنادهم الذى دعاهم إليه طمعهم وحظهم وهواهم من الرياسة ومما يزول من حطام الدنيا.

[إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]: الصراط المستقيم أقرب طريق يوصل إلى الغاية، والذى من سلك عليه كان فى أمن وفى عطايا روحانية تزيده نشاطا وهمة وأقبالا على مقصده الأعظم ، أى ليست فيه عقبات ولا موانع ضارة تقتضى العناد والبلاء.

فإن ما يناله السالك على الصراط المستقيم من مشاهدة آيات الله ، ومشاهدة جمالاته العلية ، ومما يكاشف به من أسرار ملكوت السموات والأرض يجعله فانيا عن كل السعادات الكونية والملاذ الشهوانية.

قوله تعالى : **[وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)]** .

قوله تعالى **"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا "**

والمعنى كأن الله تعالى يقول كما هديناكم الصراط المستقيم جعلناكم أمة وسطا ، والأمة هى الجماعة من الناس التى تقوم بنفسها ، الوسط من كل شئ خياره ، والوسط فى اللغة هم العدول.

وجائز أن يكون الوسط هنا أننا بين اليهود فرطوا فى دين الله فغيروا وبدلوا ، وبين النصارى الذين أفرضوا فى الغلو فاتخذوا لله ولدا وندا.

وجائز أن نكون وسطا بين الملائكة وعالم الملك ، لما كملنا الله به من معنى خلقنا بيديه ، فجعلنا الله وسطا ، وجعل من سوانا من الأناس بعضهم كالبهائم ، وبعضهم كالشياطين ، وأقامنا جماعة المسلمين وسطا ، ورفعنا عن الملائكة قدرا ، مع إثبات حقائقنا الإنسانية التى تقتضى فادح الجهاد ، ووفقنا وأعاننا فجاهدنا أنفسنا الجهاد الأكبر ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين، ففضلنا الله بسبب ذلك على الملائكة الذين فطروا على عبادة الله وطاعته من غير جهاد.

وجائز أن يكون معنى (وسطا) أن اله أقامنا مقام أنبيائه فجعلنا بينهم وبين خلقه للدلالة على توحيده وبيان أسراره ، بدليل قوله سبحانه (**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**) والشهداء عند الله هم العدول وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فاقامتنا هذه الآية فى المقام ، دليل على أن الله أختص الأمة المحمدية بما اختص به أنبياءه صلوات الله وسلامه عليهم ، فطوى النبوة بين جنبى كل مسلم عالم عامل ، إلا أنه يوحى إليهم ولكن يلهمون ، بدليل قوله تعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) [1] **(وقوله تعالى فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ)** [2] وأمرنا سبحانه أن نسأله الهداية الى صراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم . وقد أخبرنا أننا خير أمة ، وإذا كنا خير أمة أخرجت للناس فمن هم الذين أمرنا سبحانه أن نطلب منه أن يهدينا صراطهم ؟ بل ومن هم الذين أنعم الله عليهم من قبلنا ؟ هم الرسل الكرام والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

تلك الآية الكريمة طهور تجذب الأشباح والأرواح الى حضرة الفتاح ، فإن الله تعالى ما أخبرنا أننا خير أمة أخرجت للناس وأنه سبحانه جعلنا أمة وسطا لنكون شهداء على الناس فى الدنيا والآخرة قبل شهادتنا ، إلا وقد سبق فى علمه القديم أنه يؤيدنا ويعيننا ، ويوفقنا لمحابه ومراضيه ، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ، والقادر اذا أخبر عن شئ من تقدير العطايا نفذه بقدرة وحكمة.

"كنتم" يخاطب جميع الأمة وهو الواسع القادر المتفضل ، ويدل على ذلك قوله تعالى : **"ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ"**[3] وقوله **"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"**[4] وقوله تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ"**[5].

وأن بيان القرآن أثبت أنه ليس على وجه الأرض موحد لله إلا المسلمون، والكبائر كلها لا تحكم على مرتكبها بالكفر أبدا لأن الله سبحانه وتعالى قال : **"إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ"**[6].وعلى هذا ، فكل مسلم وان كان عاصيا لله تعالى فهو محل عناية الله تعالى ، لأن الله جعل قلبه خزانة لنور توحيده سبحانه وتعالى.

وقد سأل رجل معاذ بن جبل رضى اله عنه فقال : أنى أسالك عن رجل قوى اليقين قليل الأعمال ، وعن رجل ضعيف اليقين كثير الأعمال . فقال معاذ : أن ضعف اليقين يمحق أعماله الصالحة ، فقال : وما شأن القوى اليقيين قليل الأعمال الصالحات ؟ ثم قال الرجل : اذا كان ضعيف يقين الرجل الأول محق أعماله الصالحة ، فيكون يفين الثانى محق السيئات ، فأخذ معاذ بيده وقال : ما رأيت أعلم منك ، وأقره على كلامه . فإذا كان قوى الإيمان وضعيف الايمان هكذا فكيف يكون الحال بين المشرك بالله وبين الموحد بالله ولو بكلمة التوحيد ولم لم يعمل خير أبدا؟وقال بعضهم : المراد بالخطاب فى (كنتم) خاص بالصحابة رضى الله عنهم، وهذا مردود على القائل ، لأن الأحكام الشرعية خوطب بها الصحابة وكانوا سببها ، وخصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم ، لأن الله تعالى كلفنا بما كلفهم به ، وطالبنا بما طالبهم به ، وقال بعضهم الخطاب فى (كنتم) لإبدال الرسل فى كل عصر ، ولورثة الأنبياء فى كل زمان من العلماء العارفين العاملين.

وإنى أقرر فى هذا القول قرارا ، وهو أن العلماء العاملين فى كل زمان يقتدى بهم أهل عصرهم فيكونون علماء وعاملين ، والعالم من علم مسألة من العلم فى الدين فعمل بها ، وكل من جلس امام العلماء العاملين الراسخين فى العلم فهو عالم وناله قسط من هذا الفضل العظيم بقدره.

قال تعال **"هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ"**[7] وقال تعالى : **"يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"**[8] ومدح الله تعالى أهل الإيمان الذين لم يحصلوا جميع العلوم بقوله : **"الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ"**[1] وتلك الآية الكريمة

([1]) سورة آل عمران آية 110.
(2) سورة النساء آية 69.
(3) سورة فاطر آية 32.
(4) سورة الشورى آية 22-23.
(5) سورة النساء آية 48.
([6]) سورة الفرقان آية 70.
([7]) سورة آل عمران آية 163.
([8]) سورة المجادلة آية 11.

حجة قاصمة لظهور أعداء الإسلام ، وبشائر من الله تعالى لأهل الإسلام . اسأل الله تعالى أن يعيننا على شكر نعمته علينا بالإسلام ، وأن يمنحنا العلم النافع بتلقيه عن الراسخين فى العلم.

وقولنا فى تفسير قوله تعالى : "لتكونوا شهداء على الناس" أى فى الدنيا والآخرة – "ما ورد من أن جنازة مرت على رسول الله ε فأثنى عليها أصحابه ، فقال وجبت ، ثم مرت أخرى فذكروها بسوء ، فقال : وجبت ، فقالوا: ما وجبت يا رسول الله ؟ فقال ε : أثنيتم على الأولى فقلت وجبت لها الجنة ، ولم تثنوا على الثانية فقلت وجبت لها النار ، أنتم شهداء الله على خلقه" – فنحن الشهداء على الخلق فى الدنيا ، ونحن الشهداء للرسل يوم القيامة على أممهم إذا أنكروا بعثتهم إليهم.

يقف نوح عليه السلام أمام الله فيسأله عن اجابة أمته له ، فيقول كذبونى وآذونى فيقول الله لهم : لم كذبتم رسولى ؟ فيقولون : يا ربنا لم نره ولم يبعث إلينا وهل له شهود على ذلك ؟ فيقول الله تعالى لنوح عليه السلام : الك شهود على أنك بعثت إليهم فخالفوا ؟ فيقول : نعم ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيؤتى بنا فيسألنا ربنا فنقول : يا ربنا بعث إليهم فكذبوه وآذوه ، فتقول أمة نوح أنظر يا ربنا الى هؤلاء الكذابين ، هؤلاء بيننا وبينهم بضع آلاف سنة ويشهدون علينا ، فيقول الله لنا : ما حجتكم على شهادتكم ، فنقول : قولك سبحانك : **"إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ* يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ"** [2]الآية . فيقول الله تعالى صدقتم أذهبوا بهم إلى النار ، فنحن شهداء الله فى الدنيا والآخرة.ونقول فى تفسير قوله تعالى : **"وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"** أى بعد أن أثبت الله سبحانه لنا العدالة بأن جعلنا شهداء لرسله على أقوامهم ، أخبرنا جل جلاله بأنه سيؤيدنا بشهادة الرسول ε لنا ، بأننا قد صدقنا فيما شهدنا له لرسله عليهم السلام.

قوله تعالى "وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ"

بعد أن أخبرنا الله تعالى بسفاهة من أعمى بصائرهم عن علم حكمة تحويل القبلة الى الكعبة ، وأثبت سبحانه أن المشرق والمغرب له ، بالنسبة لتولية وجوهنا عند الصلاة إلى أي جهة يأمرنا بها سبحانه ، بعد أن آمنا أن الكون كله خلقه سبحانه وهو القاهر فوقه ، وبعد أن بشرنا بأنه هدانا واختصنا بتوليه وجوهنا شطر الكعبة ، ثم أيد تلك البشرى بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس ، وتفضل فجعلنا من العلماء الربانيين الراسخين أبدال الرسل ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن ايمانا كاملا بالله تعالى ، ثم تنزل جل جلاله بجماله ونوره ونصره لحبيبه ε مخاطبا ، تأييدا له صلوات الله وسلامه عليه ونصره له ، فقصم ظهور المخالفين المعترضين على تحويل القبلة من اليهود والنصارى والمنافقين وكفار قريش بالحجة الدامغة ، مبينا سبحانه الحكمة فى تحويل القبلة بآية تقتضى قصر الصفة على الموصوف وهى قوله تعالى : "وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا" – أى وما حولناك عن القبلة التى كنت عليها وهى بيت المقدس الا لنعلمك ونريك من يتبعك من أهل اليقين الذين صدقوك فيما جئتهم به من عندى ، لا يزلزل قلوبهم نسخ بعض الآيات ببعض ن أو تحويل وجوههم عند الصلاة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، لقوة يقينهم بما جئتهم به ونريك أهل الإيمان الضعيف الذين اتبعوك بألسنتهم لا بقلوبهم ، وبعقولهم المكتسبة لا بقلوبهم التى تعقل عن الله ، ممن ينقدح الشك فى قلوبهم لأقل حادث يحدث ، وهم الذين قدرت فى أزلى ، أنهم ليسوا مؤمنين بالحق ، ولكنهم أهل شك وترديد.

وبذلك الاختبار والامتحان يطمئن قلبك بمن اتبعك من المؤمنين ، وتثق بهم أن يكونوا أنصارا لك على القيام بمهام الرسالة ، فان الله تعالى يقول: **"وَقَلِيلٌ مَا هُمْ"**[3] وقد ابتلى الله من آمنوا باختبارات وامتحانات شديدة ميزت أهل الحق من أهل الباطل حتى ظهر لأهل الإيمان بالله من آمنوا بقلوبهم وألسنتهم ، ومن آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، وفى سورة براءة آيات من الامتحانات الشديدة ميزت المنافقين وأتباعهم ، فقد رجع من الجيش الذى كان مع رسول الله ε لغزو مملكة الروم فى الشام أكثر من نصف الجيش بسبب تلك الامتحانات مع عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، حتى لم يبق مع رسول الله ε فى الجيش الا أهل اليقين الكامل ، ولا تزال تلك الامتحانات والاختبارات تحصل للمؤمن أذا أقبل على الله تعالى حتى يصل الى الله تعالى مجاهدا فيرفعه إلى المقام الأعلى ،

---

(1) سورة البقرة آية 3.

(2) سورة نوح الآيات من 1 إلى 4.

(3) سورة ص آية 24.

أو ينزعج فيرتد على عقبيه ، فإذا سلك السالك على يد العالم العامل انكشف له أسرار الحكمة ، فرضى بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد ε نبيا ورسولا.
أما السالكون على يد أهل الجهالة فأنهم إذا أصابهم خير قالوا نحن أعطينا ، وأن أصابهم شر قالوا أنكم أغضبتمونا – والحقيقة أن الله تعالى يهب أصحاب العلماء الربانيين خيرا ووسعة من فضله بدليل قوله تعالى : **"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ"**[1] والعلماء الربانيون إذا دخلوا بلدا كمل إيمان أهله واجتمع الناس فى المساجد وفى مجالس الذكر ، لما جملهم الله به من الإيمان والتقوى والعلم والشفقة والذوق والحب.
فقوله تعالى : "ألا لنعلم" أن الله تعالى محيط بالواجب والجائز والمستحيل ، وبالكليات إجمالا وتفصيلا ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولزم أن نؤول قوله تعالى (لنعلم) لدلالتها الإلزامية ، أى لتعلم يا محمد أنت وأصحابك من المخلصون لك من أصحابك ؟ ومن المنافقون الذين يشيعون المنكر ليصدوا عن سبيلى ؟ لأن من المستحيل أن علم الله بالحوادث يتوقف على إبرازها ، وهذا كقوله تعالى : **"وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"**[2] تنزلا من الله تعالى وتلطفا بخلقه ، حتى ينمحق العناد من نفوس من سبق لهم الهدى من الله تعالى ، ويقوى عناد من لم تسبق لهم العناية فينقلبون على وجوههم.
فمن يتبع الرسول هو الذى سبقت له الحسنى من الله تعالى والتأييد ، ومن ينقلب على عقبيه فهو الذى لم تسبق له العناية من الله تعالى والتوفيق . ثم طمأن قلوبنا جل جلاله بقوله : **"فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا"**[3] فالله تعالى لا يضره شيء ولو كان كل من فى السموات والأرض كافرا به جاحد له لأنه سبحانه هو الضار النافع.
وفى الآية اشارة ظاهرة لنا ، أن الكفار جميعا أن حاربونا لن يضرونا شيئا ما دمنا متبعين رسول الله ε ، ولن يصيبنا شر منهم إلا إذا خالفناه ε ، أو تركنا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمن خالف ، فنكون كمن أقر المعاصى ولم يعملها فيصيبه ما أصاب عامليها قال تعالى : **"وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً"**[4] وهذا جزاء ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
وإذا ترك العلماء الواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وترك الأمراء الواجب عليهم من الضرب على أيدي الظلمة والحكم بالعدل ، سلط الله عليهم من لا يرحم ، كما حصل للأمم الإسلامية من تسليط العدو عليهم ومن خروج بعضهم على بعض.
أسأل الله سبحانه أن يعلى كلمته ، ويجدد سنة نبيه ε ، ويجمع قلوب المسلمين على الصفاء والوفاء أنه مجيب الدعاء.
قوله تعالى **"وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ"**
الضمير المستكن فى قوله تعالى : (**كَانَتْ**) جائز أن يكون راجعا للكعبة ، أو للتوليه ، أو للصلاة ، فأن أمر الله تعالى لنبيه وأمته بأن يوجهوا وجوههم فى الصلاة للكعبة أمر مقبول مطاع لأن الله تعالى له المشرق والمغرب ، يكلف عباده المؤمنين بما شاء وبما أحب ، ثم ينسخ الحكم بغيره ويأتي بحكم خير منه أو مثله ، امتحانا لقلوب عباده هل يطيعونه أو يرتابون ؟ فأهل الإيمان يكون منهم السمع والطاعة والانقياد والتنفيذ ، وأهل النفاق يكون منهم الشك والريب والتردد ، وتحويل القبلة الى الكعبة بعد بيت المقدس كبيرة عليهم ، لأنهم أفسد الشيطان عليهم أمرهم فقالوا أن محمدا تحير فى دينه وارتدوا عن الإسلام ، أعاذنا الله تعالى من سوء القضاء.
وفى هذه الآية برهان ناصع على مشهد التوحيد الصافي من الشوب ، لأن قوله تعالى : **"لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ"** دليل على أن الإنسان ليس له حول ولا قوة لأن يهتدي أو يضل – والله تعالى ينفذ ما سبق فى علمه أزلا – ومن هداهم الله يشكرونه على نعمة الهداية ، ومن أضلهم الله يكذبون نبيه ويرمونه بالحيرة في دينه ، ولا راد لقضاء الله تعالى عليهم ، وهذا معنى قوله تعالى : **"وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ"**.
قوله تعالى **"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ"**

([1]) سورة الأعراف آية 96.
(2) سورة سبأ آية 24.
([3]) سورة آل عمران آية 144.
(4) سورة الأنفال آية 25.

بعد أن أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن يوجهوا وجوههم شطر المسجد الحرام ، حزن رجال من الصحابة فقالوا : ماذا يعمل إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون قبل بيت المقدس ؟ وماذا نعمل فى صلاتنا التى صليناها قبل ؟ فطمأن الله قلوبهم وشرح صدورهم بقوله تعالى : **"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ "** والمعنى أن الله رءوف رحيم كريم ، وهو الذي أمركم أن تصلوا جهة بيت المقدس وحفظ أعمالكم ، وهو الذي أمركم أن تولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام ولم ينقصكم من أعمالكم السابقة والمستقبلة شيئا ، وإنما المراد منكم السمع والطاعة لأمره.

وفى تلك الآية مزيد علم بأن الإيمان عمل ، لأنه تعالى يقول : **"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ "** يعنى أعمالكم ، وهو مذهب أهل الحديث ، لأن الإيمان عقدية وأعمال وأقوال بدليل هذه الآية : **"إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ"** وأحكام الله الناسخة لا يجب على المسلم العمل بها إلا إذا بلغته بوجه صحيح ، فإذا لم تبلغه ودام على الصلاة جهة بيت المقدس فصلاته صحيحة مقبولة ، حتى يبلغه الأمر بالتحويل.

جاء رجل من الصحابة إلى إخوانه الصحابة فى مسجد قباء وهم راكعون فى صلاة العصر جهة بيت المقدس ، فصاح الصحابى قائلا: أشهد لقد صليت العصر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم موجهين وجوهنا شطر المسجد الحرام ، فلم يرفع الإمام ولا المأمومون رءوسهم وداروا وهم فى الركوع حتى واجهوا الكعبة ثم رفع رأسه وأتم الصلاة ، ولو رفع رأسه بعد الشهادة من الصحابي بطلت صلاته – والرأفة هنا هي أعلى مقامات الرحمة – وقد تقدم لك بيان الرحمن الرحيم ، فمعنى الرحمن واسع الرحمة والإحسان فى الدنيا ، ومعنى الرحيم المحسن إلى أهل الآخرة.

وفى هذه الآية الشريفة بيان يجعل الإنسان يطمع في مغفرة الله تعالى لكل الناس ، حتى من ظلم نفسه بالمعاصي ، لأن الله تعالى ، يقول "بالناس" ولم يقل بالمؤمنين ، ففيها تنزل من الله تعالى ولطف ظاهر تنجذب به قلوب الناس الى الطمع فى عفو الله ومغفرته ، وفى الفوز بالنعيم **"يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"**[1].ومن فقه معنى هذه الآية يطمع فى فضل الله العظيم ، وأن كان يساقها فى بيان حكم من عمل بالمنسوخ حتى بلغه نسخه فعمل بها أحكمه الله تعالى ، إلا أن الوسعة تقتضي الطمع والرجاء فى الله تعالى ، بدليل تأكيد الخبر من الله تعالى بـ (أن) التوكيدية ، وجعل الخبر عاما للناس ، ومن ذاق عرف.

قوله تعالى : **"قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ"**(144)

قوله تعالى**"قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ"**يخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعبارة تدل على المواجهة والخطاب ، طمأنينة لقلبه صلى الله عليه وسلم ،ومسارعة فى الاستجابة له صلى الله عليه وسلم ، فيقول سبحانه ، : **"قَدْ نَرَى"** والرؤية تكون بمعنى العلم ، وبمعنى البصر ، فيعلمه سبحانه وتعالى أنه يعلم من الأزل إلى الأبد ما عليه رسوله صلى الله عليه وسلم فى الحال ، ويرى سبحانه وتعالى من الأزل إلى الأبد حالة ابتهاله صلى الله عليه وسلم ، وبين سبحانه حكمة تقلب وجهه ε فى السماء أنها لتعيين القبلة التى يحبها وهى الكعبة المكرمة ، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان يرى بنور قلبه أن قبلته الدائمة هى الكعبة ، وأن الله تعالى ما أمره بأن يولى وجهه شطر بين المقدس إلا لحكمة ، فكان وهو بمكة إذا صلى صلى للكعبة مواجها بيت المقدس ، فتكون الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، حتى هاجر إلى المدينة عليه الصلاة والسلام ، فكان يحب أن يجمع بين الكعبة وبيت المقدس فلم يتمكن لأنه بينهما.وجائز أن يكون تقلب وجهه في السماء رغبة أن يجمع بينهما ، وجائز أن يكون ذلك تضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل قبلته الكعبة ، فلباه الله تعالى وأخبره بأنه بأعينه وسمعه . وقد سبق في علمه القديم أن يجعل

([1]) سورة الشعراء : 88 – 89.

قبلته الكعبة ثم أحكم حكمه سبحانه بقوله **"فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا"** بلام القسم ، وعينها سبحانه آمرا حبيبه صلى الله عليه وسلم بقوله : **"فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ "**.

وفى قوله تعالى : **"فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا"** برهان على محبة الله له صلى الله عليه وسلم ، وكمال عنايته به ، واختصاصه بمزيد فضله ، وقد كان اليهود يقولون أنا بلينا لمحمد قبلته وكان لا يعلمها ، وكان يكره ذلك ويكرهه أصحابه ، وكان ε يحب أن يوجه إلى بيت أبيه الخليل إبراهيم وهممه ε مؤيدة بروح القدس ، فلا يهتم إلا بمراد الله الذى أراده أزلا ، لأن الله تعالى يقول : **"وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى"**[1] فإذا كان نطقه بالوحي ، فكيف تكون إرادته وهممه ؟ والقبلة التي يرضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر الله عنها بأنها هي التي يرضاها الله جلت أسماؤه ، لاتحاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى إرادة وأمرا ، لأن الله تعالى صاغه من نور العزة بدليل ما رواه الإمام التستري بسنده : قال رسول الله ε: يقول الله فى الحديث القدسي "أنى خلقت محمدا لذاتي ، وخلقت آدم لمحمد ، وخلقت كل شيء لبنى آدم".

وقد أكرمنا الله به فجعلنا خير أمة . وأقامنا مقام الأنبياء بقوله تعالى : **"لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ"** وبقوله تعالى : **"وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"**[2] وبأمره لنا كما أمر الأنبياء بقوله : **"فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ"**[3] . كل تلك الآيات دليل على أن الله أكرمنا ورفعنا على جميع الأمم السابقة . تعظيما لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم.

"وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ" بعد أن خاطب حبيبه ومصطفاه تفضل جل جلاله فخاطبنا خطاب القريب للقريب ، فأنزلنا منزلة المقربين منه سبحانه وتعالى بقوله **"وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ"** أى فى أى مكان كنتم إذا قمتم إلى الصلاة فولوا وجوهكم شطره ، وإنما المقصود أن يجتهد المصلى حتى يحصل له اليقين بأنه وقف تجاه الكعبة ويصلى ، وليفرض أن الكعبة ممتدة بحسب جهته من المشرق إلى المغرب أو من الجنوب إلى الشمال ، وأن جبهته تواجهها بيقين ، وبذلك تكون صحة صلاته ، وإنما وحد الله جهة الصلاة بيانا لأننا أمة التوحيد ، فوجوه المسلمين جميعا فى وقت الصلاة موجهة جهة واحدة وهى الكعبة ، وقلوبهم موجهة جهة واحدة كعبتها ربها ، أو البيت المعمور ، أو وجه الله تعالى ، بحسب مقامات الرجال.

ومن تلك الإشارة يجب أن نشهد التوحيد فى كل شيء ، فنجعل رضانا فى الله ، وغضبنا فى الله ، وأعمالنا المعيشية فى الله ، بحسب النية ورعاية الأحكام الشرعية فيكون المسلمون جميعا كأنهم جسد واحد ، لا يتحرك الواحد منهم الا لنيل الرضا من الله وعن الله ، وفى كل حكم من أحكام الشريعة كنوز ، لو فتحت لجملت كل مسلم بجمال الله تعالى.منحنا الله العلم النافع وكشف لنا أسرار حكمة أحكامه وأشهدنا غيبه المحبون أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى **"وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ"**: يبين لنا الله جل جلاله أنه سبحانه وتعالى أنزل على موسى وعلى عيسى فى كتابيهما صفته ، ومولده ، وأنه خاتم الرسل ، وأن الكعبة تكون قبلته فى صلاته عليه الصلاة والسلام ، ولكن اليهود والنصارى قبحهم الله تعالى حسدا من عند أنفسهم أنكروا ما أنزل الله تعالى فى كتبهم خوفا من ضياع سيادتهم ، وطمعا فى دوام سلب أموال الناس بالباطل ، لأنهم لو كشفوا ما أنزل الله فى التوراة والإنجيل من الآيات المنبئة بفضله ε وآمن الناس بها لأصبحوا كالعامة بينهم ، لأن دين موسى ودين عيسى عليهما السلام نسخا بالقرآن المجيد ، وتأكيد الله تعالى الخبر عنهم بأن التوكيدية ولام القسم قصم لظهورهم ، وحجة دامغة على كذبهم وفريتهم على الله تعالى ، لأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم بالدلائل التى ذكرتها لك.وشر الخلق أجمعين من علم عن الله أحكاما وغيرها وافترى على الله الكذب لينال حطام الدنيا الفانية . وقد قدمت لك أنهم كانوا يخبرون العرب عن ظهروه وقرب أيام بعثته صلى الله عليه وسلم ، ويهددونهم بأنهم سيكونون أنصارا له بيقين لما علموه عن الله تعالى فى كتبهم المنزلة ولكنهم بعد بعثته

([1]) سورة النجم آية 3.

([2]) سورة الحج آية 78.

(3) سورة هود آية 14.

عليه الصلاة والسلام أنكروا عليه صلوات الله وسلامه عليه ما جاء به من عند الله ، مما هو ثابت فى التوراة والانجيل عندهم . . **"وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ"**[1].

وما من آية نزلت فى اليهود والنصارى أو فى مشركي العرب إلا جرت بذيلها أهل النفوس النزاعة الى الشر والعناد ، فأنا نرى المسلمين خصوصا فى هذا الزمان قد فرق بين قلوبهم الطمع ، ففارقوا ما كان عليه السلف الصالح من التراحم بينهم ، ومن التآلف والتوادد ومن صرف الأنفاس فى طلب العلم والعمل به ، ومن طلب المغفرة لنا ولمن سبقنا من سلفنا الصالح كما قال تعالى : **"رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ"**[2].

فنرى أكثر الجهلاء يحقرون المعاصرين لهم من أهل العلم النافع ، ويعظمون الموتى ، ويصدون طلبه العلم عن العلماء العارفين ، كما فعل اليهود والنصارى بالأنبياء المعاصرين لهم ، والمعاصرة حجاب ، وكشف الحجاب فى المعاصرة عناية الله تعالى بأحبابه . وقد هى الله من أحبه من يهود بنى إسرائيل المعاصرين لرسول ε فبيتوا الحق الذى أنزله الله فى التوراة كما سيأتي.

قوله تعالى **"وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ"** اى أن الله تعالى محيط بكل أعمالهم القلبية والجسمية التي يؤذننا بها ، وستكون عليهم حسرة يوم القيامة ، حيث لا ينفع الندم ، ومحيط أيضا بما أقامنا فيه مما يحبه ويرضاه . وتكون الآية عما تعملون بتاء المخاطبة لنا جماعة المسلمين.

قوله تعالى :[**"وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ"**](145).

قواه تعالى **"وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ"**

يثبت الله تعالى على اليهود بعدهم عن الحق وحرمانهم من نيل الهداية ، ومن الفوز بالخير فى الدنيا والآخرة بقوله مقسما بدليل لام القسم . أنك يا محمد لو أتيتهم بكل آية بيانية أو بكل آية من المعجزات ما وافقوا لاتباع قبلتك ، لحرصهم على السيادة فى الدنيا ، ولعنادهم فى الحق عند مجيئه ، ولما سبق فى علم الله تعالى لهم فى الضلال والخزى فى الدنيا ومن العذاب الأليم يوم القيامة ، لذلك لا يمكن أن يتبعوا قبلتك لأن الهادى هو الله وهم قوم بهت أهل عناد.وفى تلك الآية تأييد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطمأنينة قلب له ، ليتحقق صلوات الله وسلامه عليه أنه ما قصر فى دعوته ، ولا عمل عملا يوجب عنادهم وبغضهم له صلى الله عليه وسلم ، ولكنه قدر الله وأرادته الأزلية.

قوله تعالى **"وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ"** يخاطب الله تعالى حبيبه صلى الله عليه وسلم خطاب المؤانس بسماع كلام ربه ، خبرا منه سبحانه وتعالى عما سبق فى علمه الأزلي من عصمته صلى الله عليه وسلم من الوقوع فيما يخالف الحق حلا جلاله ، تشريفا لقدرة ε وتعظيما وإيذانا من الله تعالى أنه صلى الله عليه وسلم بلغ من اليقين مبلغا بتأييد الله تعالى له ، وإظهاره صلوات الله وسلامه عليه على حقيقة الأمر ، حتى بلغ مبلغا كان يستحيل معه مخالفته لصغيرة من الدين أو كبيرة . وبدليل قوله تعالى : **"وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى"** [3] وقوله تعالى : **"مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى"**[4] وغيرها من الآيات.

وفى قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ"**[5] برهان حق على مقامه ε عند الله تعالى ، فاستحال شرعا بل وعقلا بعد تلك الحجج الناصعة أن يتبع قبلتهم بعد أمر الله بأن يوجه وجهه شطر المسجد الحرام.

([1]) سورة الزمر آية 23.
([2]) سورة الحشر آية 10.
([3]) سورة النجم آية 3.
(4) سورة النجم آية 17-18.
(5) سورة الفتح آية 10.

ومن كان الله مؤيده وناصره وموفقه كيف يعمل بالهوى أو بالحظ؟ هذا ما لا يتصور فى مؤمن كامل ، فكيف يتصور فيمن خلقه الله من نور عزته ، وجعله فردا لذاته ، وأقامه مقامه فى الدنيا والآخرة بقوله تعالى : **"عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا"**[1] واكرم لأجله أمته ، وبايع لأجله رسله ، ثم زاده سبحانه تأييدا بقوله : **"وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ"** لأن قبلة اليهود بيت المقدس ، وقبلة النصارى جهة مطلع الشمس ، وكل فريق منهم حريص على ما ورثه عن آبائه الذين أضلهم الله وأخزاهم.

مع أن عيسى عليه السلام كان يوجه وجهه جهة بيت المقدس فى صلاته ، ولكن النصارى أهلكهم الله عاندوا اليهود فى ذلك ، لأنهم حاربوا عيسى بن مرين عليه السلام ، ورموه بأنه ابن زنا ، فتركوا الحق عنادا كما كذب اليهود عيسى عليه السلام عنادا.

وإنما هى الأهواء ، والهوى أخو العمى ، كما قال عليه السلام . ومن ظهر له الحق وعانده متبعا ما كان عليه آباؤه ، نحكم عليه بأن نفسه نفس يهودية أو نصرانية ، فان كان واحد من الناس مسئول عن نفسه وله عقل يميز به ، فمن ظهر له الحق عقلا وشرعا وتركه كانت نفسه يهودية أو نصرانية ، وحرم حلاوة الإيمان ، أو حرم المزيد من العلم بالله إذا كان على حق ودام عليه من غير عناد ولا محاربة لله ولرسوله ولأوليائه.

قوله تعالى **"وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ"**أظهر الله الحقيقة التى سبقت فى علمه بقول تعالى : **"وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ"** وهى وعد من الله تعالى بحفظه ε ، وعصمته من الوقوع فى مخالفة ربه جل جلاله ، وبشرى من الله لحضرته صلى الله عليه وسلم بتأييد الله له.وفى هذه الآية الأخرى بيان لإطلاق حضرة الربوبية ، وكمال أدب العبودية لله تعالى ، ويظهر أنه سبحانه وتعالى يخاطبنا فى ذات حبيبه ε ، فإذا سمعنا قوله تعالى لمصطفاه المعصوم : **"وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ"** كيف نكون نحن ولا عصمة لنا ؟ لا يكون ألا الاستعاذة بالله تعالى والالتجاء إليه من الوقوع فى معصيته.

وتلك الآية الشريفة أثبتت لنا عبودية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظت قلوبنا من أن نشهد فيه قداسة أو نزاهة ، بل نشهد أنه عبد الله ورسوله ε ، وبذلك تكون نجاتنا يوم القيامة.

وبذلك جعلنا الله خير أمة لتفريدنا ذاته العلية بالألوهية وبشهادتنا لحبيبه ومصطفاه بالعبودية لذاته . ومن أثبت العبودية لرسول الله ε كيف يعتقد أن عبدا من أمة محمد ينفع أو يضر بعد اعتقادنا أن رسول الله عبد أكرمه الله تعالى بالرسالة وأكرمنا به؟

فالله تعالى بعد أن أثبت عصمته من الوقوع فى اتباع قبلة اليهود أو النصارى ، بين لنا كمال إطلاقه ليدوم خوفنا منه سبحانه ، ودوام مراقبتنا لجلاله العلي ، ولطهارة قلوبنا من أن نرى مخلوقا الها أو نافعا أو ضارا.

افتتح الله الجملة بلام القسم المؤكدة ، وأتى بأن الشرطية بعد لام القسم ، فكانت كلمة (اتبعت) فعل الشرط ، وكان جواب القسم الذي سد مكان جواب الشرط هو قوله تعالى **"إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ"**.

وجائز أن تكون أن بمعنى لو . وهذه الآية مع ما فيها من الشدة هى خير للمسلمين جميعا ، لأنهم بفهمهم تلك الآية انكشفت لهم أنوار وعظمة الحق ، وأسرار تفريده بالعبادة دون غيره ، وانجذبت قلوبهم الى طاعة أمره ، وظهرت لهم مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى ، فميزوا بين الحضرتين ، فرأوا رسول الله ε إماما هاديا مقصودا ، وشهدوا أن الله إلها واحدا معبودا.

نعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قلوبنا بقدر ما نلناه منه ε من الفوز بالسعادتين ، فان الأنبياء قبله أهلكوا أممهم بما أظهروا من المعجزات التى جعلتهم يزعمون أنهم آلهة ، أو أبناء الآلهة ، كما قالت اليهود فى عزير ، وكما قالت النصارى فى المسيح.

ونحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع طول الزمان وبعد المكان وكثرة المعجزات الباهرات له صلى الله عليه وسلم ، ومع بقاء القرآن طريا نضرا ، تتجدد بركاته كلما كرر ، وأنواره كلما تلى ، وأسراره كلما شرح . ولا يزال ولن يزل يظهر للمسلمين من فضل الله رجال يكشفون أسراره ، ويبينون أنواره ، ويجذبون القلوب الى غيبة المكنون ، وسره المصون ، وما من مسلم سمع بيان القرآن ألا فر بقلبه وجسمه الى الله تعالى ، متبعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه يرى أن لا نجاة إلا باتباع رسول الله ε ، وبفهم كلام الله تعالى.

---

(1) سورة الإسراء 79.

وأنا لنرى أن العالم كلما اشتدت الظلمة عليهم ، وساد الجهل بينهم ، وخفيت معالم السنة أقام الله عبدا من أحبابه فأقام الحجة وبين المحجة ، وجميع عباد الله على الحق ، حتى تشرق أنوار الكتاب والسنة ، وتضمحل البدعة وأهلها .وهذا معنى حديث على عليه السلام فى دعائه : "اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة ، أما ظاهرا مشهورا أو باطنا مستورا لئلا تبطل حجج الله وبياناته".
وأن كان الرجال قليل ، إلا أن الله ينفع بهم الكثير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد يجمع الله الأمة برجل يظهر بعد أن تملأ الأرض جورا وظلما وظلمة ، حين ترى العلماء يتبعون الأهواء ، فيخدمون الملوك والأمراء ولو كانوا كفارا، وترى أدعياء الطريق يدعون العامة بجهالتهم الى ما لا ينفعهم بعمل البدع المضلة ، واثبات النفع والضر الى رجال موتى يلفتون أنظار الناس بهم إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى ينسى الناس السنة ، وينسون رسول الله صلى الله عليه وسلم برجال قد يكونون ماتوا على غير الإسلام ، يتبعونهم لا للحق ولكن للشهرة والطمع ، فإنهم لو أحبوا الحق لاتبعوا العالم العامل بعلمه ، المتمسك بالكتاب والسنة ، وكيف بعد سماع تلك الآية التى يقول الله فيها لحبيبه : **"وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ"** نترك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونتبع أهواء العلماء بالدنيا الجهل بالآخرة وأهواء أهل الطريق الجهلاء بدين الله وبكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : [**"الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"**](146).
قوله تعالى **"الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ"** هم اليهود وقوله : يعرفون أى يعرفون الحكم بالتحويل الى الكعبة أنه حق ، لأن الله تعالى بينه فى التوراة بيانا شافيا ، وجائز أن نقول يعرفون الحكم فى استقبال الكعبة ، ويعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم.وقد ورد أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام بعد إسلامه عن رسول الله حين ترى العلماء يتبعون الأهواء ، فيخدمون الملوك والأمراء ولو كانوا كفارا، وترى أدعياء الطريق يدعون العامة بجهالتهم الى ما لا ينفعهم بعمل البدع المضلة ، واثبات النفع والضر الى رجال موتى يلفتون أنظار الناس بهم إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى ينسى الناس السنة ، وينسون رسول الله صلى الله عليه وسلم برجال قد يكونون ماتوا على غير الإسلام ، يتبعونهم لا للحق ولكن للشهرة والطمع ، فإنهم لو أحبوا الحق لاتبعوا العالم العامل بعلمه ، المتمسك بالكتاب والسنة ، وكيف بعد سماع تلك الآية التى يقول الله فيها لحبيبه :

قوله تعالى **"وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ"** نترك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونتبع أهواء العلماء بالدنيا الجهل بالآخرة وأهواء أهل الطريق الجهلاء بدين الله وبكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فأقسم أنه ليعرفه كما يعرف ولده أو أكثر لأنى لا أحكم بالعصمة على امرأتى ولكنى أصدق الله فيما أخبرني به عنه ε فى التوراة ، فقبله عمر.وقد أخبر بذلك تميم الدارى أيضا ، وهو من أحبار اليهود ، فمن اجتباهم الله من أحبار اليهود يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم واستقبال الكعبة كما يعرفون أبناءهم وأكثر.وتلك الآية لا تعارض قوله تعالى : **"وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ"**لأن كل عام له خاص . ولا يمنع أن يؤمن برسول الله حين ترى العلماء يتبعون الأهواء ، فيخدمون الملوك والأمراء ولو كانوا كفارا، وترى أدعياء الطريق يدعون العامة بجهالتهم الى ما لا ينفعهم بعمل البدع المضلة ، واثبات النفع والضر الى رجال موتى يلفتون أنظار الناس بهم إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى ينسى الناس السنة ، وينسون رسول الله صلى الله عليه وسلم برجال قد يكونون ماتوا على غير الإسلام ، يتبعونهم لا للحق ولكن للشهرة والطمع ، فإنهم لو أحبوا الحق لاتبعوا العالم العامل بعلمه ، المتمسك بالكتاب والسنة ، وكيف بعد سماع تلك الآية التى يقول الله فيها لحبيبه : **"وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ"** نترك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونتبع أهواء العلماء بالدنيا الجهل بالآخرة وأهواء أهل الطريق الجهلاء بدين الله وبكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . بعض اليهود بدليل تلك الآية : **"وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"** . أتى بالجملة مؤكدة (بان) وأكد خبرها باللام وأتى به مضارعا ليفيد دوام الإنكار من كل يهودى معاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده.

ولا يكون الكتمان إلا بعد العلم ، ولكن أتى بالجملة الحالية وهى قوله تعالى : **"وَهُمْ يَعْلَمُونَ"** بيانا لبهتانهم وتشنيعا عليهم وتبكيتا لهم يعنى : **"وَهُمْ يَعْلَمُونَ"** نعت محمد صلى الله عليه وسلم وزمانه وقومه . وأن الكعبة قبلتهم ، وأن يثرب دار هجرته ، وأنه من أولاد اسماعيل عليه السلام ، وأنه خاتم الأنبياء ومع هذا كله كتموا تلك الأسرار عن عامتهم . وأنى مبين لك ذلك بتفصيل.

قدم أحبار اليهود على رسول الله ε فسألوا عن الروح ، وعما ينزع بالولد إلى أمه أو إلى أبيه ، وعن أول طعام أهل الجنة ، فأخبرهم ε ، فاعتقدوا أنه المنعوت فى كتابهم ومقاموا من بين يديه ε وقلوبهم منجذبة الى الإسلام ، ثم توجهوا إلى كعب بن الأشراف وهو أغنى اليهود ، وكان يعطيهم أو سقا من التمر صدقة ، فلما حضروا عند غضب عليهم وأخبرهم أنه حرمهم من عطاياه ، فسألوا عن سبب ذلك فقال لهم لأنكم صدقتم هذا الساحر ، فسلب الطمع إيمانهم وقالوا لا . . أن نبى آخر الزمان من ولد اسحاق ، وأنا لم نر فى كتبنا ذكر محمد ولا أن اسماعيل بلد نبيا ، وأخذوا أوسق التمر وسافروا فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وكذبوا على الله وعلى نبيهم موسى عليه السلام . وأمثال هؤلاء الأحبار هم الذين يعنيهم الله تعالى بقوله : **"وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"**.

قوله تعالى : [**"الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ"**].(147)

يخاطب الله نبيه ε بقوله **"الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ"** يعنى هذا هو الحق من ربك فاتبعه وأعمل به ، ولا تكونن من الممترين أى المرتابين الشاكين وفى تلك الآيات ما فيها من بيان كمال العزة الآلهية وكمال إطلاقه سبحانه وتعالى ، وأن كل من فى السموات والأرض آتيه عبدا له سبحانه ، وبيان كمال العبودية لرسول الله ε .

وهذا الخطاب مخاطب به رسول الله ε - والمقصود به الأمة – لأن العصمة تقتضى استحالة الشك منه والريب ، وإنما ذلك قد يكون منا نحن ، لأن يقين رسول الله ε فوق كل يقين . وأما نحن فيقيننا بقدر ما أتضح لنا ن الحجج والدلائل التى نحصلها بتلقى العلم من العلماء العاملين بكتاب الله وسنن نبيه ε .

وأما من لم يتلق هذا العلم ولو حصل أمثال الجبال من العلوم ، وعبد عبادة ابليس ، فإنه لا يخشى الله الا عند نزول الفتن أو الأهوال المحيرة . قال تعالى : **"إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"**[1] وفى رواية برفع الاسم الشريف ، وعلى الروايتين فإن الخشية لا تكون إلا من العلماء الذين أطلعهم الله على مكنون غيبه ، فخشعت قلوبهم أمام الحق جل جلاله ، وكذلك التعظيم من الله لا يكون إلا للعلماء الذين حملهم بالأدب لحضرته العلية.

فإن الخشية من معانيها التعظيم تصحيحا لمعنى رواية رفع الاسم الشريف ، ودليل ذلك قوله تعالى : **"لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"** فأثبت لهم العلم بالأحكام والاكوان ، ونفى عنهم العلم بالله وبأيامه وبحكمة أحكامه الذى يوجب الخشية فى القلوب ، فإذا كان العلم بالله وبأيامه وبأحكامه وبحكمة أحكامه ، لو أحاطت به الفتن ما خطر على قلبه خاطر يبعده عن مراقبة الله ، والخشية منه جل جلاله ، لأنه ساكن النفس ومطمئن القلب بالله سبحانه ، فكيف يكون ذلك لمن بايع الله له الرسل أزلا ؟ ومن أقامه اله سبحانه مقامه فى بيعة الرضوان لأصحابه فقال سبحانه : **"إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ"**[2] وقال تعالى : **"مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ"**[3] تلك البينات والحجج الناصعة جعلت العلماء يأولون تلك الآية ، بأن الخطاب للأمة فى ذات رسول الله ε ، زادنا الله تعالى علما وأيدنا بروح منه حتى نفقه معانى كلامه ونشهد سر تنزيله.

([1]) سورة فاطر آية 28.
([2]) سورة الفتح : آية 10.
(3) سورة النساء : آية 80.

قوله تعالى : ["**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"](148)

التنوين فى قوله (**وَلِكُلٍّ**) يدل عن محذوف ملحوظ ، والمحذوف أهل ملة . والمعنى لكل أهل ملة وجهة هو موليها كما دل التنوين فى قوله تعالى: "**وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ**" [1] أى يوم إذا بلغت الروح الحلقوم تنظرون الحقائق .

قوله تعالى "وجهة" يعنى قبلة . فلليهود بيت المقدس ،وللنصارى جهة المشرق ، وأنتم وجهتكم بين أبيكم إبراهيم وهى الكعبة المشرفة.

وكانت قبل إبراهيم يحجها الملائكة والأنبياء ، وقد كانت فى زمان نوح ربوة فوق الماء كأنها لؤلؤة بيضاء ، وقد حجها آدم ومن بعده حتى أمر الله إبراهيم بجعلها بيتا بعد أن أخفى أثرها ، فجعل الله سحابة بقدر البيت وأمر ابراهيم أن يبنى على حدودها ، وهى كعبة الملائكة والأنبياء والمرسلين.

ولكن الله أضل اليهود والنصارى عنها كما أضلهم عن يوم الجمعة الذى جعله الله يوم عبادة ، فاتخذ اليهود يوم السبت واتخذ النصارى يوم الأحد ، وهدانا الله إلى يوم المحبوب لحضرته وهو يوم الجمعة.

"**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**" أمر من الله تعالى أن نجعل الكعبة قبلة لنا لنفوز بخيرات الدنيا بالهداية فى الصلاة الى جهة الكعبة ، ونفوز بخيرات الآخرة بأن نكون مع الأنبياء والمرسلين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فإن من أحب أحدا حشر معه.

أتى رجل من الصحابة رسول الله ε : فقال يا رسول الل أنى أحبك ولا أعمل كعملك فقال ε (المرء مع من أحب) ، فقال : أنى أحبك يا رسول الله ، فقال : المرء مع من أحب ، فأعادها فقال ε : (المرء مع من أحب . أنت مع من أحببت ولك ما احتسبت) قال العارف : أن المحب لمن يحب مطيع.

والمحبة تقتضي السمع والطاعة . ومن أحب رسول الله ε سمع منه وأطاع فكان معه فى الدنيا والآخرة.

وفى قوله تعالى : "**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**" أمر من الله تعالى لنا أن نسارع فى الأعمال الصالحات فى تعيين الكعبة عند إقامة الصلاة ومن كثرة نوافلها ومن السعى للكعبة للطواف بها. . .

قوله تعالى "**أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"بعد أن بين الله لنا كعبتنا التى رضيها لنا ، وقصم ظهور اليهود بالحجة ، وجللهم بالخزى والبهتان الذى هم أهله ، ذكرنا سبحانه وتعالى بيوم القيامة ، وبين لنا عجائب قدرته ، أنه يجمعنا من أى مكان نكون فيه ، وقد شرحت فى كتاب : (النشأة الثانية) ، ما بينه رسول الله حين ترى العلماء يتبعون الأهواء ، فيخدمون الملوك والأمراء ولو كانوا كفارا، وترى أدعياء الطريق يدعون العامة بجهالتهم الى ما لا ينفعهم بعمل البدع المضلة ، واثبات النفع والضر الى رجال موتى يلفتون أنظار الناس بهم إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى ينسى الناس السنة ، وينسون رسول الله صلى الله عليه وسلم برجال قد يكونون ماتوا على غير الإسلام ، يتبعونهم لا للحق ولكن للشهرة والطمع ، فإنهم لو أحبوا الحق لاتبعوا العالم العامل بعلمه ، المتمسك بالكتاب والسنة ، وكيف بعد سماع تلك الآية التى يقول الله فيها لحبيبه : "**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ**" نترك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونتبع أهواء العلماء بالدنيا الجهل بالآخرة وأهواء أهل الطريق الجهلاء بدين الله وبكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . من الأواسط التى جعلها للحياة الثانية.

كما ورد ذلك بالرواية عن على بن أبى طالب فى حديثه الذى يقول فيه : "أن لله ينزل مطرا من السماء كالمنى أربعين يوما ، أو شهرا أو سنة . . ." لم تصح الرواية بتعيين واحد منها ، ثم يرسل أربعة رياح فتعتقم الأرض بعد أن تذوب حتى تكون سائلة . ودليل ذلك قوله تعالى : "**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا**" [2] وارتجاف الأرض يكون بتلاطم رياحها ، لأن كل ريح من جهة من جهات الأرض وتكون الجبال يومئذ كثيبا مهيلا رملا متهايلا. .

---

(1) سورة الواقعة : آية 84.

(2) سورة المزمل : آية 14.

أبين لك ذلك الحديث : يريد على عليه السلام ، أن السماء تمطر ماء كمنى الرجال فيعلو سطح الأرض جميعها ، فتذوب فيه حتى تكون كالعجينة السائلة وتعتقمها الرياح من جهاتها الأربع ، فترجف الأرض رجفا يعنى يتداخل بعضها فى بعض ، فكل جسد من أجساد بنى آدم كان فى البر أو البحر تتقابل أجزاؤه فينجذب بعضها إلى بعض.
فقد تكون الرأس فى الشام ، والجسم فى مكة ، والأطراف فى البحر ، وعند رجفة الأرض وتداخل بعضها فى بعض ، تلتقى تلك الأجزاء المتفرقة ، فيجمع الله بعضها على بعض بحكمته وقدرته ، حتى يكون الإنسان كما كان فى الحياة الدنيا . وقد فصلت لك أيها القارئ هذا الإجمال فى كتاب : (النشأة الثانية) فراجعة أن شئت.
فظهر أن الله يأتى بجميع بنى آدم على ما كانوا عليه فى حياتهم الدنيا حتى يعيد لهم "الغرلة" أى لحمة رأس الذكر التى تقطع عند الختان ، وذلك لأن الله تعالى يحب أن ينعم الأعضاء التى جاعت بالصوم فى حبه ، وسهرت الليل فى طاعته ، ونالها الألم والتعب والقطع بجهادها فى سبيله ، والأعضاء التى آثرت بنعيم الدنيا غيرها ، ورضيت بالعناء والتعب والشقاء فيها ، حتى يتجلى ملكا حكماً عدلا متفضلا ، وليؤنس الأرواح التى جاهدت مع الأشباح فى الإقبال بها على الله تعالى ، مع كثرة دواعى الشهوة والنزوع الى الطمع والانتقام والحرص.
وهذا نص القرآن المجيد ، لأن الله تعالى أخبرنا بأن فى الجنة أنهارا متنوعة ، وفيها أشهى الأطعمة ، قال تعالى : **"يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ"** [1] وقال تعالى : **"يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ، وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ"** [2] وهذا كله لا يناسب الأرواح ، لأن الأرواح لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح . وأذن فالروح والجسم يبعثان ويحشران ويتنعمان فى الجنة. ومن قال أن البعث للروح فقط فقد أنكر ما أنزله لله على محمد ε .
ولعلم الله تعالى أن النفوس الخبيثة الإنسانية التى لم يهب الله فها نورا تفقه به عن الله كلامه لا تؤمن ببعث الأشباح فأيد الله تعالى خبره بقوله: **"إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"** يعنى أن قدرة الله تعالى استعلت على إيجاد ما لا يمكن للعقل أن يتصوره . وما للعقول ولقدرة الحى القيوم : العقول تعقل الكون وما فيه ، فلا يمكنها أن تصل الى الغيب المصون فتدركه . قال تعالى : **"يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ"**[3].

قوله تعالى : ["**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**"](149).

يتفضل الله تعالى تنزلا من حنانه علينا فيبين لنا مناسكنا كل البيان ، فيخاطب حبيبه ε لأنه المبلغ عن الله أوامره ونواهيه ، فيقول سبحانه ، **"وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ"** أى من أى مكان خرجت إلى مكان بعيد عن الكعبة ، وقمت للصلاة فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وفى قوله : **"شَطْرَ"** وسعة لنا ، لقيام الحرج بنا إذا أوجب علينا سبحانه أن نجعل الكعبة تجاه وجوهنا فى الصلاة ، فقال تعالى : **"فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ"** اى جهته ، والواجب علينا الاقتداء برسول الله ε ، ولكن أراد أن لا يجعل عذرا لمتساهل ، فقد يقول المتساهل : هذا أمر خاص برسول الله ε ونحن نترك الصلاة مادمنا بعيدين عن الكعبة حتى نرجع إليها كما يفعل اليهود ، فبين الله لنا كل البيان تفصيلا بقوله : **"وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ"**.
وقوله تعالى : **"وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ"** أكد هذا الأمر سبحانه وتعالى بتلك الآية المفتتحة بأن التوكيدية ، المؤكدة بلام القسم أيضا طمأنينة لقلب رسول الله ε ، وتأييدا لنا ، يعنى أن تحويل وجوهنا فى الصلاة الى الكعبة هو الحق الذى جاء لرسول الله ε من ربه . وفى هذا الخطاب من التعظيم لقدره ε ما لا تصل العقول الى غيبه المصون.

([1]) سورة الزخرف : آية 71.
(2) سورة الواقعة : آية 17 – 23.
([3]) سورة الرحمن : آية 33.

وقولـه تعـالى : **"وَمَـا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّـا تَعْمَلُـونَ"** عنايـة من الله تعـالى بالمسلين الـذين ظنـوا أن صـلاتهم قبـل بيت المقدس لم تقبل ، وأن صلاة إخوانهم الذين ماتوا قبل تحويل القبلة لم تقبل ، فشرح الله صدورهم بقوله : **"وَمَـا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"** يعنى أن الله تعالى أحاط علمه بأعمالكم التى أمركم بها من تولية وجوهكم إلى بيت المقدس ، وتوليتها بعد إلى الكعبة كما أمر الله تعالى ، والله لا ينسى ولن ينسى . قال سبحانه : **"فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"**[1] والخير هو كل عمل يأمر الله تعالى به سواء نسخه أو أحكمه كما فى القبلة.

قوله تعالى :[**"وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"**](150).
تقدم شرح : **"وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ"** وليست هذه الآية مكررة ولكنها فى موضعها الحقيقى ، ليبين لنا بيانا مرتبا عليها ، وهو قوله تعالى : **"وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ"** حتى يرفع قدرنا سبحانه عنده بجعلنا مأمورين بما أمر به رسوله ε ، وليعلمنا سبحانه وتعالى أنه واجب علينا التشبه به فى كل ما يأمره الله تعالى به ، إلا ما بين لنا أنه من خصوصياته ، كأمره بقيام الليل ، وأمره سبحانه له بقوله تعالى : **"خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"**[2] وبأمره سبحانه له بأنه ينكح ε من أباحهن الله له بعد تعيين ما أباحه للمؤمنين.
وأما ما عدا ما خصه الله سبحانه به ε ، فالواجب على آل العزائم أن يتشبهوا به فى كل ذلك بدليل هذه الآية . وقد بينا تولية الوجوه شطر المسجد الحرام فيما تقدم . . .

قوله تعالى **"لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ"**
الناس هنا هم اليهود ، وكانت حجتهم قولهم أنا بينا لمحمد قبلته فكيف لا يدين بديننا . وقولهم بعد التحويل إلى الكعبة : **"مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا"**.
وقول كفار قريش أن محمدا رجع إلى بيت أبيه وسيرجع إلى ديننا و "والذين ظلموا" الذين استثناهم الله تعالى هم أهل النفوس العنادية الذين لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر . وهم كما أخبرنا الله عنهم أنهم اليهود والنصارى وكفار قريش . .

قوله تعالى **"فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي"**
يطمئن الله قلوبنا بأنه سبحانه وتعالى يعصمنا من شرورهم ، ويحفظ عقولنا من الميل إليهم بما يودعه فى قلوبنا من العلم به ، الذى نتلقاه عن رسول الله ε ، فإن الخشية من صفة القلوب ، والقلوب لا تخشى إلا من عرفت.
ولو جئت بطفل صغير ووضعت أمامه النار لهم بقبضها لجهله بها ، أما العارف فأنه يعرف أنها تحرقه ، وكذلك من جهل الله تعالى تعدى حدوده ، ومن عرف الله تعالى تأدب لأمره ونهيه ، قال تعالى : **"إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"**[3].
وهنا إشارة . يقول الله تعالى : **"فَلَا تَخْشَوْهُمْ** – لأنى جعلت قلوبكم معمورة بعلمى ، وكل قلب عمرته بعلمى كلا على قدر يقينه فصار لا يخشى إلا الله ، ولا يسأل إلا الله.
وفى ذلك بشرى لأهل الإيمان بالله تعالى أنهم مع النبيين والصديقين والشهداء ، لأن قوله تعالى : **"وَاخْشَوْنِي"** أمر صادر عن قدرة وحكمة ، والكلمة فى قوة كلمة "كن" فإذا سمعت قلوب أهل الإيمان هذه الكلمة صغرت فى أعينهم الدنيا وما فيها ومن فيها – رزقنا الله اليقين الحق أنه على كل شئ قدير.

([1]) سورة الزلزلة : آية 7 – 8.
([2]) سورة الأعراف : آية 199.
([3]) سورة فاطر : 28.

قوله تعالى **"وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ"**
ليست منسوخة بقوله تعالى **"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ"** فإن تلك الآية تدل على تمام النعمة علينا بجعل الكعبة قبلة لنا فى الصلاة ، وأما قوله تعالى : **"أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ"** أى أصوله وفروعه إلى يوم القيامة . وتمام النعمة الموت على الإسلام ، وقال بعضهم : تمام النعمة دخول الجنة . وقال آخرون : تمام النعمة الفوز برضوان الله الأكبر.

قوله تعالى **"وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"**
أى لتهتدوا بعد بيان الله لكم مناسك الصلاة . ولعل وعسى فى القرآن بمعنى اللام ، لأن عسى ولعل فى غير القرآن تفيد جهالة المتكلم بالمستقبل ، يقول عسى أن يحصل لى كذا مترددا فى الخبر ، ولكنها من الله تعالى للوقوع فقوله تعالى : **"وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"** ، والهداية أنواع:
1- الهداية العامة وهى هداية الله تعالى كل نوع من خلقه إلى ما ينفعه ، قال تعالى : **"سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى"**[1] فهدى الأطفال إلى الرضاع من أول ولادتهم وهدى الطيور إلى التقاط قوتها من الأرض من أول فقسها.
2- هداية البيان وهى من الأنبياء وورثتهم ، بدليل قوله تعالى : **"وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"**[2].
3- هداية الإحسان وهى من الله تعالى ، قال سبحانه : **"إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"**[3] أى يحسن إلى من يشاء بالهداية فليس لعارف بالله ولا لنبى ولا لرسول أن يهدى من أحب هداية إحسان.
4- هداية الدخول فى المكان . قال تعالى : **"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ"**[4].
فقوله تعالى : **"لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"** أى لتهتدوا هداية الإحسان من الله تعالى.

وقوله تعالى :[**"كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"**](151).
كشف الله الحجاب عن بصائر من اجتباهم للعلم به ، وجعلهم من السعداء بدعوة الخليل وولده اسماعيل عليهما السلام لنا جماعة المسلمين . وأتم سبحانه نعمته علينا ببعثة رسول الله ، وبتعيين الكعبة قبلة لنا وسيتم نعمته علينا يوم القيامة بالفوز برضوانه الأكبر ، وبالنعيم المقيم فى الملك الكبير ، كما أتمها علينا بإرسال حبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم لنا.
قوله تعالى : **"كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ"** جار ومجرور متعلق بقوله : "لأتم" وفى قوله تعالى : "منكم" مزيد عناية وعطف بنا ، إذ جعله منا ، نسمع منه فنفقه ونشهد أعماله فنتشبه به ، ونألفه صلى الله عليه وسلم لأنه منا ، فله سبحانه وتعالى المنة العظمى بجعلنا من أمته صلى الله عليه وسلم ، وبجعله منا حتى يكون لنا كمال الشرف من الله تعالى بإقامتنا مقاما جعل منا أفضل رسله ، وإكرامنا به بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس ، وأن أقامنا مقام رسله الكرام ، وأيدنا بإنزال الملائكة لنصرتنا على عدونا ، ويكرمنا يوم القيامة بأن ينصر بنا رسله المسابقين بشهادتنا لهم على أقوامهم.
ثم تفضل بالمزيد من فضله علينا بأن وصف رسول الله ε الذى بعثه إلينا بأنه يتلو علينا آياته ، وتلاوة الآيات هى أن يسمعنا كلام الله تعالى ، وأن يبين لنا ما فى الكون من بدائع إبداع آيات الله الدالة على قدرته وحكمته.
وقوله تعالى : **"يتلوا عليكم آياتنا"** فيه تعظيم لحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث أقامه سبحانه وتعالى ليتلو الآيات المضافة إلى ضمير المتكلم بلفظ "نا" الدالة على العظمة ، التى يدل معناها على أن الآيات التى تتلى هى ألفاظ الكتاب العزيز ، وبيان أسرار الكون مما ظهر للأبصار والعقول ، وما غاب عنهما ، حتى

([1]) سورة الأعلى : آية 1 – 3.
(2) سورة الشورى : آية 52.
(3) سورة القصص : آية 56.
(4) سورة الأعراف : آية 43.

تحصل لنا الطمأنينة فيكمل اليقين كما قال الله تعالى : **"وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ"**[1] وبيان الآيات الكبرى بعبارات الصادق كرؤيتها بالعيان من حيث حصول اليقين الحق بها . . قال على عليه السلام . .

"لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا" كأنه يقول : أن سمع أخبار الحقائق الغيبية من الصادق كرؤيتها. .

قواه تعالى **"ويزكيكم"** الزكاة فى اللغة هى الطهرة ، والمراد هنا والله أعلم هو تزكية نفوسهم بما يشرحه ε لنا من أسرار النشأة الأولى والثانية ، وبيان حكم الله فى إيجادنا وإمدادنا ، وبيان آيات الله الخفية التي لا تعلم ولا تشهد إلا ببيانه ε ، وبعد التزكية أى التطهير تكون النفس مؤهلة لتلقى أسرار التوحيد العالية ، وتكون قابلة لمواجهة وجه الله تعالى.

قوله تعالى**"ويعلمكم الكتاب والحكمة"** ذكر التعليم بعد التزكية وبعد تلاوة الآيات ، ليعلمنا الله تعالى كيف نعلم الناس ، فنبتدئ أولا بتلاوة الآيات ، ثم نقدم الوسائل التى بها تزكو نفوسهم ، ثم نأخذهم بالعلم على قدر عقولهم ، حتى يحصلوا من العلم ما به تخشى قلوبهم من الله تعالى ، والكتاب هو القرآن المجيد ، وتعليمه كشف أسراره وبيان حكمه ، وعلم الهيئات فى الأحكام الدالة على العبادة بتفصيل المجمل منها بالعمل ، حتى تكمل النفس ويكمل الجسم : "والحكمة" الحكمة هى أقوال رسول الله ε وأعماله وأحواله التي يتذوقها من سمعوا التلاوة ن وزكت نفوسهم ، وتعلموا الكتاب.

والظاهر عندي أن بلوغ الكمال المطلوب في نيل الفوز برضوان الله تعالى مرتب على تلك الحقائق ، وأن كانت الواو لا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا وقد سبقت تلك الآية في دعوة الخليل عليه السلام فكانت كلمة : "ويزكيهم"([2]) فى آخرها ، ولكن تلك الآية هي من كلام الله تعالى وليست خبرا عن غيره كالآية السابقة التي هي خبر عن الخليل إبراهيم عليه السلام ، والحكمة التي يعلمنا إياها رسول الله ε هي الحكمة النظرية ، التي بها تقوى النفس بعد طهارتها فتسوح فى عالم الملك والملكوت ، وقد تشرف على حضرة العزة والجبروت.والحكمة العملية وهى الجامعة لهيئات العبادات صلاة وصوما وزكاة وحجا ، وبذلك يكون المسلم خليفة ربه فى أرضه ، يقوم لله بما فرضه عليه من أركان الإسلام ، ومن حسن المعاملة والمبادلة ، ومن جمال الأخلاق ، فيكون غيثا هاطلا على الأرض لينفع أخوته المؤمنين ، ولتجديد السنة ، وإعلاء الكلمة بما منحه الله من العلوم والصناعات والفنون ، وسياسة المجتمعات الأربعة المنزلة ، والقروية ، وسياسة المدن ، والمجتمع الإسلامي العام.

قوله تعالى **"وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"** من العلوم التي لا تحصلها العقول ولا الأبدان ، وتلك العلوم نوعان : نوع عملي ونوع شهودي ، أما العملي : فما يتعلق بالواجب على الإنسان لله ، والواجب عليه لوالديه ، ومن يليه فى منزله ، ولجيرانه ، ولأهل بلده ، وللمسلمين ، جمعيا أين كانوا . وأما الشهودي : فإن الإنسان لا يمكن أن يعمل ما يحبه الله تعالى ويرضاه منه سبحانه بالعقل ولا بالجسم ، ولكن يحصل تلك الأسرار من رسول الله ε ، وهى الحكمة فى بعثة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وإن كان المجتمع الإسلامي لا يهتدي إلى خير معاشه ومعاده إلا بالرسل ، إلا أن تلك العلوم العالية التي ليس للعقل أن يحصلها ، لأن العقل معقول بالقول ، قال تعالى : **"يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ"**[3].

ولو كان الإنسان يمكنه أن يحصل بعقله محاب الله ومراضيه لكانت بعثة الرسل عبثا وقد ورد أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام فقالوا : يا كليم الله سل ربنا يبين لنا ما يرضيه عنا لنجاهد أنفسنا فى ذلك ، فسأل موسى عليه السلام ربه قائلاً : رب أنت أعلم بسؤال عبادك ، بين لنا ما يرضيك عنهم من الأقوال والأعمال ، فقال الله لموسى : "يا موسى إنهم لا يطيقون ذلك" فقال: "رب بينه وتفضل علينا" فقال الله له : "الذى يرضيني عنهم هو رضاهم عنى" فرجع موسى فرحا جزلا واخبر بنى إسرائيل ففرحوا جميعا وقالوا : رضينا عن الله تعالى.

فما مضت أيام إلا وغضبوا على الله تعالى فقالوا : يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، وكان قوتهم المن والسلوى وهو خير طعام فى الدنيا ، يأتيهم الله به من غير مشقة ، ولا تعب ، وكانوا فى بلاد مصر فى ذلك

([1]) سورة الأنعام : آية 75.

([2]) سورة البقرة : آية 129.

([3]) سورة الرحمن : آية 33.

العبودية لفرعون وقومه ، يأكلون القديد ، وينامون على الخشن ، ويشربون الماء الآسن، حتى كان الواحد منهم يتمنى أن يمضى عليه اليوم فى أمن وفى تيسير قوت فلا يجد.
فصدق الله العظيم ، وكذب بنو إسرائيل لأنهم لم يطيقوا عمل ما يرضى الله عنهم وكيف لا ؟ وقد جعل رضاه سبحانه عنهم في رضاهم عنه ، فسخطوا على خير عطائه وقالوا : **"لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا"**[1] فاستبدلوا الخبيث بالطيب ، وحكموا على أنفسهم أنهم ليسوا من أهل الله تعالى ، كما قال تعالى . **"أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ"**[2] وكأنه سبحانه يقول : "ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون " –بأنفسكم- من علم النفس وعلوم التوحيد والغيب ، وعلوم ما فوق المادة الى أن تعرفوا الله تعالى ، فتكونون معه ويكون سبحانه معكم.

قوله تعالى :[**"فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ"**](152).
هذا مقام كشف يجذب القلوب إلى علام الغيوب حبا فى إحسانه العلى المتوالى لنا ، لأنه خصنا بالخطاب فى هذه الآية ، بعد أن بين ما تفضل به علينا فى الآيات السابقة . ففى تلك الآية خصوص لاختصاصها بنا دون غيرنا.
يعين ذلك سياق الآيات السابقة ، فإنه سبحانه بين أننا خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وإننا نكون شهداء لأنبيائه ورسله يوم القيامة وأننا دعوة الخيل على السلام ، وأنه سبحانه أتم علينا نعمه بتعيين الكعبة قبلة لنا ، وبإرسال حبيبه ومصطفاه لنا ، وبيتن ما أجراه الله من الفضل على لسانه ويده ε من تلاوة الآيات ، ومن تعليمنا الكتاب والحكمة ، وتعليمنا ما لم نكن نعلم.أذن يتعين فى قوله تعالى : "فاذكروني" الذكر الذى يرضيه سبحانه ، فان قوله "أذكركم" فى هذه الآية يعنى أمن عليكم بذكرى الذى ينيلكم رضاى والنعيم المقيم فى جوار الأنبياء والصديقين.
أما هذه الآية ، لو كانت فى غير هذا السياق لدلت على الإطلاق لا التخصيص ، فمن يذكر الله بسوء يذكره بانتقام كالمعترضين على الله فى قضائه وقدره ، والمكذبين لأنبيائه ، والمخالفين لأحكامه ، والضارين لعباده كل هؤلاء يذكرون الله بما لا يرضاه ، ولكن الله لا يذكرهم بالانتقام منهم وعقوبتهم فى الدنيا.
والذكر فى هذه الآية لا يكون ذكرا يترتب عليه ذكر الله لنا إلا إذا كان بالقلب أو المراقبة والمحاسبة ، أما ذكر اللسان المجرد عن العلم والقلب فلو ملأ الإنسان ما بين السماء والأرض ذكرا بلسانه رجع بالتعب والعناء ، ولم ينل خيرا من الله تعالى.
وعندى أن الدجاجة التى تسجد فى النهار ألف مرة خير منه ، لأنها كلما وضعت فمها على الأرض التقطت رزقها ، والذاكر الجاهل يحرك لسانه من غير أدراك بقبله ، وقد يبلغ به الذكر بلسانه التى الغرور لأنه لم يحصل علما يخشى الله به.
وأول واجب على كل مسلم قبل العبادة تحصيل العلم بالمعبود ، وبآداب الأعمال ، والقيام بها على ما كان عليه رسول الله ε وأصحابه الكرام.
والذكر أما بالقلب وهو استحضار عظمة الله تعالى واليقين الحق بأنه هو الله المعبود الفاعل المختار لما يحب ويشاء ويختار ، أو يكون الذكر بسياحة الروح فى ملكوت الله وملكه حتى تشهد ما أبدعته القدرة ، وأحكمته الحكمة ، فتزداد علما ويقينا وهو خير الذكر للسالكين.
وأما ذكر الواصلين فهو مراقبة الله فى كل حركة وسكنه ، وفى كل نومة ويقظة ، حتى كأنه يرى الله أمامه ، أو كأنه معالم بين عينيه ، لا يغيب إذا غاب الغافلون ، ولا يحجب إذا حجب الجاهلون ، وهذا ذكر الواصلين ، ونهايته الفناء فى الله حتى يغيب بشهود وجهه العلي عن كل كائن ، وهو بداية ذكر المتمكنين.
والمتمكن عبد عرف نفسه وعرف ربه ، فقام لله تعالى بما يحب ويرضى ، وهو عند الله تعالى أفضل من الملائكة ، وقد تكون نعم الله الكونية على الناس من الأمطار والزروع والضروع ، إكراما لهذا العبد المسكين الذى قد يكون لا يملك قوت يومه ، ولكن أنفاسه تستطيء بها عوالم عالين ، لأنها تصدر عن حضور مع الله ، ووجود عند الله ، وأنس بالله جل جلاله.

---

(1) سورة البقرة : آية 61.
(2) سورة البقرة : آية 61.

وهذا هو الذكر الذى يمكن أن يسطر على الأوراق محافظة على العقول ، أما ذكر الله تعالى الذى اصطفى الله له صفوة الأخيار من عبيده ، فذلك ما لا يباح إلا من قلب العارفين إلى قلوب الأطهار من خيرة طالبى الله سبحانه وتعالى.

أما قوله تعلى : **"أذكركم"** فقد بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ف الحديث القدسى ، بقول الله تعالى : "أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وأن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ، وأن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا وأن أتاني يسعى أتيته هرولة" أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، فجمع عليه الصلاة والسلام مراتب الذكر لأهل الذكر الأكبر ، رزقنا الله الفقه عن الله ورسوله.

وهذا فضل لك بقدر العقول ، من ذكرني بالتوبة غفرت له ذنوبه ، ومن ذكرني بالإنابة إلي وفقته لطاعتي ، ومن ذكرني بشكر ما أنعمت به عليه ذكرته بالمزيد من العلم بي ومن خيري الدنيا والآخرة ، ومن ذكرني بجمالي وجلالي جملته بمعاني صفاتي وحرمت عليه النار ، ومن ذكرني بكمالي الذاتي فلا تعلم نفس ما أخفى له من قرة أعين منحنا الله علو الهمة ، وأكرمنا بالتشبه بحبيبه ومصطفاه ε فى قوله وعمله وحاله ، حتى نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ظهر لنا بتلك الآية أن الذكر منا لله ننال به التفضل بذكر الله لنا ، وأن الشكر هنا خاص با لله لا يجوز لغيره . ولذلك قال الله تعالى : "فاذكروني أذكركم واشكروا لى " ولم يقل أشكركم . والشكر هو الاعتراف بأن النعمة من الله تعالى ، وطهارة القلب من أن ينسب فضلا أو نعمة أو إيجادا أو إمدادا لغير الله تعالى ، فالشكر أدق بكثير من الذكر لأن الله تعالى يقول : " **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**" [1] والشكر عمل بالجوارح الظاهرة ، وبالقوى الباطنة من القلب والنفس والعقل والروح . . قال تعالى : " **اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا**" [2] فالشكر عمل.

وإنما يشكر الله تعالى من عرفه بأسمائه الحسنى ، قلم ير فى الوجود بأجمعه اثرا لغير الله تعالى ، بل الوجود جميعه آثار قدرة الله وحكمته . ومن جهل ذلك كيف يشكر الله تعالى ؟ ولا يشكر على السراء والضراء إلا الله تعالى، فما من نعمة ولا نقمة إلا وهو جوذاب من الله لعبده ، فالنعمة تسر العبد وتذكره المنعم ، والنقمة تخيفه وتذكره المنتقم فيرجع إليه سبحانه ، فجعل مقابل الشكر الكفر كما جعل مقابل الحج الفكر فى قوله تعالى : **"وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ"** [3] أى من لم يحج مع الاستطاعة فهو فى موضع الكفر.

قوله تعالى :[**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"**].(153)

قوله تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ"**أنزل الله تعالى المؤمنين منه منزلة القريب الذى يخاطب بـ "يا" الدالة على القرب ، وهذا النداء للمؤمنين فى مقام التلطف نهاية فى الإحسان من الله تعالى إليهم ، وبعد أن ناداهم هذا النداء أمرهم سبحانه وتعالى بعمل ما هو خير.

وما أمر الله المسلمين إلا بما فيه الخير لهم فى الدنيا والآخرة ، وأن لم يلائم طبعهم ولا تميل إليه نفوسهم الأمارة بالسوء ، فإن الله تعالى إنما يأمر بما به تزكو نفوسهم فيقربون إلى ربهم ، وفى أمره لنا بالاستعانة بالصبر والصلاة فضل منه ونعمة ، فإنه سبحانه أمرنا بالصبر على جهاد أعدائنا لإعلاء كلمته سبحانه ، ودفع شرورهم عنا حتى نتفرغ لطاعة ربنا ، ولتحصيل مالا بد لنا منه مما فرضه علينا من علم وعمل فيما يحبه ويرضاه ، وبالصبر ننال رضوان الله تعالى ، وأمرنا بالصلاة لننال الخير العاجل والآجل وقد جمع لنا فى قولة "والصلاة" القيام بكل العبادات البدنية والقلبية.

([1]) سورة سبأ : آية 13.

([2]) سورة سبأ : آية 13.

(3) سورة آل عمران : آية 97.

قوله تعالى "**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**"أكد هذه الآية بقوله "أن" لأن الخير على عن أن يدركه العقل ، فجعل العقول تأنس بالتوكيد فى هذه الآية ، والمعية بحسب الله تعالى.
فمن الناس من يكون الله تعالى معه بالتوبة والإنابة وقبول العمل . ومنهم من يكون معه بالتوفيق والإلهام ، ومنهم من يكون معه بالنصرة والتأييد، ومنهم من يكون معه بالتنزل والإحسان ، أو بالكشف والبيان . قال تعالى مخبرا عن الملائكة "**وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ**"[1] ولا يتأهل الإنسان لتلك المشاهدة العلية ، والمقامات السنية ، إلا إذا جاهد نفسه الأمارة بالسوء حتى زكت نفسه فأفلح فصار إنسانا فى شكله وهيئته ، ملكا فى همته ونيته ، ولأهل القلوب مشاهد فى قوله تعالى : "أن الله مع الصابرين" نطوى بساطها حتى يتلقاها أهلها سماعا فى الخلوة. . .

قوله تعالى :[" **تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ**"](154).

جاء لفظ السبيل فى القرآن المجيد مفردا وجمعا ، فجاء مفردا فى قوله تعالى : "فى سبيل الله" وفى قوله "**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**"[2] وفى قوله سبحانه "**صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**"[3] وجاء جمعا فى قوله سبحانه "**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**"[4]ومعناه فى الجمع جهاد النفس ، والنفس قد تجاهد لمحو الرذائل وللتجمل بالفضائل ، وتجاهد لتنطبع على الطاعة مخالفة لفطرها وحظها وهواها ، وقد تجاهد لترغب فى تحصيل العلم وفى صحبة الأخيار ومجالسة الأبرار ، وقد تجاهد لتتشبه برسول الله ε ، أو لتتخلق بأخلاق الله تعالى ، وغير ذلك مما لا يسعه هذا الكتاب لأننا لا نحب الإطالة على طلبة العلم ، ولذلك أتى بلفظ السبيل جمعا ، وفى أفراده كما بينت لك فى الآيات السابقة هو جهاد العدو الداخلي حتى تستعلي عليه الآداب الشرعية وذلك فى ذات الله تعالى ثم جهاد العدو الخارجي وبذلك أما أن يجندل بين الصفين مقدما نفسه وهو المقصود فى هذه الآية بقوله تعالى : " **ولا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**" لأنه أقدم على القتل لا طمعا فى جنة ، ولا خوفا من نار ، ولا رغبة فيما دونهما ، ولكنه أقدم ليلقى الأحبة ، محمد ε وحزبه ، وهذا الذي نراه قتيلا بين الصفين لم يمت، ولكنه رفع إلى حظيرة القرب حيا يرزق ، لا يمضى نفس من الأنفاس إلا وتتوالى عليه الخيرات المعنوية والحسية.
أما الخيرات المعنوية فإنه يكتب له في صحيفته أعمال كل من هداهم الله تعالى على يده ، وأعمال من اهتدوا بهداهم إلى يوم القيامة ، وقد يكون فى قبره وعشرات الملايين تعمل بعمله فيكتب الله له أعمالهم فى صحيفته ، ولا ينقص ذلك من أعمالهم شيئا ، قال ε "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" فذلك هو جزاؤهم ، وهم بمثابة الأحياء يرزقون خير الأرزاق من حيث لا يعلمون.
وكم من رجال قتلوا فى هذا سبيل ، ولهم أكبر قسط من عملنا وعلمنا لأنهم قتلوا فى إعلاء كلمة الله وأحياء سنة رسوله ε ، وهذه هى الشهادة الكبرى ، لأنه جاهد نفسه فى ذات الله حتى أفلحت ، ثم خرج فارا إلى الله تعالى حتى قتل بين الصفين ، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر تسكن سدة المنتهى ، وورد أيضا أنهم يكونون طيورا خضرا يسبحون فى الجنة يأوون إلى سدرة المنتهى ، فهم فى نعيم مقيم فى الدنيا ، ومشاهدة الوجه العلى الجميل يوم القيامة ، وورد أيضا أن الله يفتح لهم وهم فى قبورهم بابا يشهدون منه أماكنهم فى الجنة ، فيسألون الله السرعة ، كما يفتح للمنافقين والكفار بابا إلى النار فيتمنون تأخير وصولهم إليها . أما الذين يرجعون إلى أهليهم من المجاهدين فى الصف فإنهم يرجعون بالنصرة والغنيمة والمغفرة. . .
أما الذين يموتون قبل الملحمة فلهم رزقهم فى البرزخ لا كمن جندل فى الصف ، وإنما عين الله من قتل فى هذا الموقف وخصهم بهذا الفضل العظيم لأنهم باعوا أنفسهم وأموالهم ، وقد نهانا الله فى هذه الآية أن نقول عنهم أنهم أموات وأثبت لهم الحياة عند ربهم : والعندية أعلى مقامات القرب لأهل اليقين الكامل من الأمة ، وليس فوق هذا

([1]) سورة الصافات : أية 164.
([2]) سورة الفاتحة : آية 6.
(3) سورة الشورى : آية 53.
(4) سورة العنكبوت : آية 69.

المقام إلا مقام الرسول ε وهو مقام اللدنية . قال تعالى : **"وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ"**[1] ومقام العندية فوق مقعد صدق قربا ، لأن القوم رضي الله عنهم أعطوا الله الكل فأعطاهم سبحانه الكل ، فكانوا فى جواره عنده ورفع "أحياء" لأنه خبر لمبتدأ تقديره هم أحياء . . .

قواه تعالى **"وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ"** أتى بهذه الآية الشريفة حفظا لقلوب المؤمنين ، وقصما لظهور المنافقين ، وكأن مترددا قال كيف يكونون أحياء بعد أن مزقت أشلاؤهم وعلاهم التراب ؟ فقال الله تعالى وهو أصدق القائلين ولكن لا ترونهم ، فمعنى : "لا تشعون" أى لا ترون ولا تشهدون ، لأن عيون الرؤوس وعيون العقول لا تنكشف لها الغيوب المصونة – ولكنها تنكشف لعيون أرواح أحباب الله الذين هم عنده – فكم من أحياء يمشون على التراب وقلوبهم سابحة فى ملكوت الله الأعلى ، لم تحجبهم عن حبيبهم ضروريات الكون ولا كمالياته ، لأن الحقائق انكشفت فهم فتحققوا أن ما فوق الأرض فإن بديل قوله تعالى : **"كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ"**[2] وتحققوا أن الكون من العرش إلى الفرش هالك لا دوام له ولا بقاء بدليل قوله تعالى : **"كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ"**[3] وقوم وقعت عيون بصائرهم على هذا الغيب المصون كيف لا يشهدون مقامات الذين قتلوا فى سبيل الله ؟ ومن كانت همته بطنه وفرجه فهو أضل من الأنعام فكيف يشهد مقامات أهل الحب والعلم بالله تعالى ؟ . . .

قوله تعالى : [**"وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ"**](155)

بين الله لنا الحكمة فى إقامتنا فى هذا الكون مقام المجاهدة فيه سبحانه والصبر على القيام بأوامره ، وأن ذلك إنما كلفنا الله به لحكمتين عظيمتين ، الحكمة الأولى اختيارنا وامتحاننا فى كمال إيماننا به وتصديقنا لرسول الله ε ، واعتقادنا فيما أخبرنا به من المغيبات كالجنة والنار والميزان والصراط الحساب والوقوف بين يدي الله ، فإن كل مصدق بهذا كره الدنيا وما فيها من النعيم الفاني ، وفر بقدر ما علمه أما الجنة ، أو إلى الرضوان الأكبر، أو إلى الله تعالى . وتلك المقامات بقدر العلم بها.

والحكمة الثانية : هي كشف الحقائق وبيان السبيل الموصل إليه سبحانه والإكرام منه عز وجل بالمزيد من الهداية والإحسان . لكشف مقامات القرب والوصل والحب لنرقى إليها ونتنعم فيها.

قوله تعالى **"وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ "** أى ولنختبرنكم **"بِشَيْءٍ"** قليل **"مِنَ الْخَوْفِ"** من عدوكم الذى يناؤكم ويحاربكم ليردكم عن دينكم **"وَالْجُوعِ"** يعنى بالجدب **"وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ"** ، ببذلها فى الجهاد ضد الأعداء **"وَالْأَنْفُسِ"** بالقتل فى الجهاد **"وَالثَّمَرَاتِ"** موت الأولاد . وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية **" وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ "** أى خوف جهنم **"وَالْجُوعِ"** يعنى صيام شهر رمضان "ونقص من الأموال" يعنى الزكاة "والأنفس" بالموت الطبيعى **"وَالثَّمَرَاتِ"** بموت الأولاد ولكن تفسير الأمام بن عباس رضى الله عنه حق لأهل السلوك ممن لم يقو دينهم.

ولأهل الإشارة فى هذه الآية ملاحظة **"وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ"** وهو مقام الخشية والرهبة **"وَالْجُوعِ"** وهو الزهد فيما سوى الله "ونقص من الأموال" التوبة مما يملك **"وَالْأَنْفُسِ"** الفناء عما سوى الله وهو الذى يقولون عنه موت الإرادة ، قال رسول الله ε : "موتوا قبل أن تموتوا" أى موتوا بالإرادة قبل أن تموتوا بالقهر ، والموت بالإرادة هو الفناء عما سوى الله تعالى . والموت بالقهر هو الموتة العزرائيلية.

قوله تعالى **"وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ"** البشرى خبر لم يسبق لك معرفته ويكون الخبر بالخير والشر ، فمن أخبرك بخبر لم تعلمه فهو خبر وبشرى ، ومن أخبرك بخبر تعلمه فهو خبر فقط ، ولكن البشرى فى هذه الآية للخير.

وهنا تشهد الأرواح الطاهرة أن جمال العبد عند الله تعالى هو جمال العبودية ، لأن الله تعالى على عظيم عن أن يتأثر بالأحداث ، أو أن يضره أحد أو ينفعه ، والعبد محدث مقهور ، ومن جماله تحمل الشدائد والمضار ، فإن نظرها أنها بقدر الله وفى طاعة الله وصبر عليها منحه الله جماله العلى ، فصرفه فى الملك ولملكوت بكلمة "كن" فى الدنيا ، وبالمشيئة المطلقة يوم القيامة.

([1]) سورة النمل : آية 6.

([2]) سورة الرحمن : آية 26.

(3) سورة القصص : آية 88.

قال تعالى : **"لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا"**[1] وقال تعالى : **"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا"**[2] أما آجلها فى الآخرة فقال الله تعالى فيها : **"لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ"**[3] والحسنى مقعد صدق ، الزيادة شهود جمال وجه الله تعالى ، فاشتاقت الأرواح إلى معرفة الصابرين فبين الله للأرواح صفات الصابرين لتسارع إلى أن تتجمل بصفاتهم فقال تعالى : **"الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"**.

قوله تعالى :[**"الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"**](156)

فبين صفاتهم ولم يذكر أشخاصهم للوسعة الآلية ، حتى يكون منهم فى زمن رسول الله ε وفى الأمة جميعها إلى قيام الساعة ، ومن حظر فضل الله على واحد من أمة محمد ε حرم ذلك الفضل ، فأن فضل الله تعالى لم يقف عند أشخاص معينين ، ولا رجال مخصوصين ، بل قد يكون من الكفار فى كل زمان من يهديهم الله تعالى ويجملهم بالفضل العظيم ، قال تعالى : **"ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"**[4] وقوله تعالى : "أنا لله" أى ملكا وإيجاد وإمدادا ، بدليل قوله تعالى : **"لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[5] **"وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[6] **"وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ"**[7].
وجملة "أنا لله" لم تكن رواية ولا دراية ولكنها شهود عين وخبر عن عيان "وأنا إليه راجعون" أى أن بدايتنا منه ونهايتنا بعد أدوار الكون إليه ، وليس معنا إلا أعمالنا التى بها نجازى أو عليها نحاسب.
ومن بلغ به اليقين الحق هذا المقام ، حتى شهد أنه لله شهود عين ن وتيقن أنه إليه راجع يقينا حقا ، كان من ضنائن الله التى يضن بها على خلقه ، ومن أوليائه الذين أخبر عنهم بقوله تعالى : **"أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ"** فى الدنيا والآخرة **"وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"**[8] فيهما.

قوله تعالى : [**"أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ"**(157).

تشوقت الأرواح إلى ما يتفضل الله به على أهل هذه المقامات العالية ، والله عليم بأسرار عباده ، فبين الله لهم ما به شرح صدورهم ، وطمأنينة قلوبهم، فقال : **"أُولَئِكَ"** والإشارة إلى من ذكرهم الله فى الآية السابقة.
"عَلَيْهِمْ" قال بعض المفسرين أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، فعلى هنا بمعنى اللام ، فتكون المعنى أولئك لهم صلوات ، والأولى رعاية الأدب للقرآن المجيد ، فتكون معنى : "عليهم" أى تعلو صلوات الله تعالى على مقتضيات قواهم البشرية ، فتخرجهم إلى التشبه بالعالم الروحانى ، فيكونون أفضل منه لما قاموا به من المجاهدة قال تعالى : **"وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا"**[9] وصلوات لله تعالى جمعها سبحانه

([1]) سورة ق : آية 35.
(2) سورة النور: آية 55.
(3) سورة يونس : آية 26.
([4]) سورة الحديد : آية 21.
(5) سورة الشورى : آية 49.
(6) سورة الأنبياء : آية 19
(7) سورة آل عمران : آية 129.
(8) سورة يونس : آية 62.
([9]) سورة النساء : آية 95.

فى هذه الآية ، إشارة إلى أن صلوات الله أنواع ، فمنها المغفرة والتوبة والقبول والرضوان الأكبر والجلوس على منابر من نور قدام عرش الله تعالى يوم القيامة ، ولذلك قال سبحانه : "عليهم صلوات" ولم يقل عليهم صلاة ،

قوله تعالى "**مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ** ".وهنا إشارة خفية يتذوقها أهل العلم بالله تعالى : "**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**"[1] وقال هنا "**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**" وشتان بين المقامين ، فالصلاة من الله تعالى العظيم العظيم لا تدركها العقول ولا الأرواح.أما الصلاة من الرب جل جلاله فهي كمال الأنعام متواليا ، فإن اسم الربوبية جامع تسعة وثمانين اسما من أسمائه تعالى ، "**عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ**" يعنى عليهم إحسان أسماء الجمال السبعين ، والاسم الأعظم "الله" هو العلم على الذات الواجبة الوجود ، الذى لا يراعى فيه معنى جمال ولا جلال ، بخلاف اسم الرب فإنه يلاحظ فيه جمال وجلال ولذلك قال بعض الأفراد المحبوبين: أنا لا أعبد الرحمن ولا الوهاب ، فأفتى علماء عصره بقتله ، فقال: أنا لا أعبد إلا الله ، لأني لو عبدت الرحمن والوهاب كنت معللا لعبادته لعلة الرحمة والهبة.
قال عمر بن الخطاب : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصيه . يعنى أن صهيبا رضى الله عنه شهد سواطع العظمة والكبرياء الإلهي وأنوار كماله سبحانه ، فجعله يكمل يقينا بما يتلوه كل يوم أربعا وثلاثين مرة .
وهو قوله تعالى : "**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**" يعنى نخصك بالعبادة يا الله لذاتك لا لعلة أخرى.

ومن عبد الله رغبة فى الجنة أو خوفا من النار أو طلبا في حطام الدنيا عبد غير الله تعالى عند القوم ، والرحمة من الله تعالى هي الفضل الذي يوليه عبده من عفو وعافية ومال وأولاد فى الدنيا ، وستر وصبر وحلم ورضوان ونعيم مقيم فى الآخرة : "وأولئك هم المهتدون" الواو هنا للمدح لا للعطف ، لأنها لو كانت للعطف لكان "أولئك" الثانية غير الأولى.

والحقيقة كل الأوصاف لمن ذكرهم الله تعالى فى الآية السابقة . . فالإشارة الثانية إليهم . وقوله : "هم" يقول المفسرون "هم ضمير وصل والحقيقة أنه للاختصاص وهو مبتدأ . والمهتدون بعده خبر . والجملة خبر "أولئك" يعنى أن من أثنى الله عليهم فى الآية السابقة خصهم الله بالهداية ، والهداية هى بيان الحقائق.

ومن انكشفت له الحقائق فى مرتبة من المراتب حفظه الله من الخطايا ، فمن رأى نار جهنم ورأى الموصل إليها هل يفارقه ؟ الجواب : لا . قال الله تعالى : "**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**"[2] لأن الله تعالى هداه فحفظه وهذه هى هداية الإحسان من الله تعالى.

وقد خصها الله بأهل محبته كما قال سبحانه : "**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا**"[3] بتوفيقه وعنايته بكشف الحقائق أمامهم وبيان السبيل الموصل لهم إليه ، وجذبتهم الهداية إليه سبحانه وتعالى.

أكرمهم الله عز وجل بالمزيد من الهداية والإحسان "**زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**"[4] ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء يشاء والله ذو الفضل العظيم ، والمزيد من الهدى هو كشف مقامات القرب والوصل والحب ، فيرقون إليها ويتنعمون فيها ، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا معهم أنه سميع مجيب.

---

(1) سورة الأحزاب : آية 56.
(2) سورة التكاثر : آية 5 – 7.
(3) سورة محمد : آية 17.
(4)سورة محمد : آية 17.

قوله تعالى ["**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**"](158)

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة ، ما به الفوز عنده من الصلاة والصبر والجهاد والعلم ، بين لنا الحج وأحكامه وفرائضه وواجباته بيانا إجماليا فصله رسوله ε بعمله وقوله ، وابتدأ فى بيان ما كان مختلفا فيه بين المسلمين والجاهلية.فإن قريشا كانت تطوف بالصفا والمروة فلما أشرقت أنوار الإسلام امتنع المسلمون عن الطواف بالصفا والمروة وعن السعي بينهما ، حتى سأل قوم رسول الله ε واستفسروا منه عن السعي بين الصفا والمروة وكان ε لا ينطق عن الهوى فأنزل الله تعالى فى هذا قوله تعالى : "**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**" أى من مناسكه ومن عبادة الله تعالى.

ثم بين سبحانه ذلك بقوله "فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما" وبين ذلك رسول الله ε عملا خصوصا في حجة الوداع ولكن الصحابة رضى الله عنهم اختلفوا فى تأويل هذه الآية فقال بعضهم "**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**" أن ذلك نفل لو تركه الحاج لم يبطل حجه ، حتى ذهب بعض الصحابة إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فسألها البيان فى هذه الآية بعد أن شرح عقيدته فيها فقالت : لو كان هذا كذلك لقال فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما كما قال تعالى "**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ**"[1] بل السعى بين الصفا والمروة بعد طواف الإفاضة فريضة على كل مسلم.

ولكن الآية منعت الجناح الذى كان يراه المسلمون وعينت الطواف بهما بدليل قوله تعالى : "من شعائر الله" وتأول هذه الآية بعض الصحابة بأن السعى واجب فى الحج وركن من أركان العمرة ، فليس فريضة فى الحج لأن الواجب فى الحج غير الفرض فيه ، وليس عند المالكية فرق بين الفرض والواجب إلا فى الحج ، فترك الواجب عندهم يجبر بالدم وترك الفرض يبطل الحج.

وقد فصلنا ذلك فى كتاب : "هداية السالك إلى علم المناسك" وبعض العلماء تأول هذه الآية بأن السعى بين الصفا والمروة سنة ، والإجماع الآن كما قررت لك أن السعى بين الصفا والمروة فريضة بعد طواف الإفاضة، أو بعد طواف القدوم.

والصفا جمع صفاة . والصفا هى الصخرة الملساء التى تشبه الرخام . وهى ككل جمع واحد بالتاء كتمرة وتمر . والمروة جمعها مرو وهو الحصاة.

قوله تعالى "**وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**"وقد وردت رواية بياء المضارع أتت بلفظ الماضي ، وقد اختلف العلماء فى لفظة "تطوع" فقال بعضهم : أى كرر الحج فإن الأولى فريضة ، وقال بعضهم : "من تطوع" يعنى أعتمر . وقال بعضهم بالنسبة لمنامبة الآية : "**وَمَنْ تَطَوَّعَ**" يعنى سعى بين الصفا والمروة فى أوقات الحج . وقد بينا هذا الخلاف فيما سبق . والرجوع إلى قول من قال : "**مَنْ تَطَوَّعَ**" أى من كرر الحج فهو خير له يعنى رجوعه إلى الحج بعد تأدية الفريضة خير كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث القديسى : "ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه".

قوله تعالى "**فان الله شاكر عليم**" يخبرنا الله تعالى أن الله يقبل منا الفرائض وهى أحب ما يتقرب بها إليه العبد ، ثم يتفضل فيقبل النفل وهو التطوع ، ثم يحسن سبحانه وهو المحسن فيقبل النفل ويشكر عليه ومن شكر الله له فلا تعلم نفس ما أخفى له من قرة أعين ، والشكر عمل ، وشكر الله الإحسان بالمزيد لمن تطوع. "عليم" أى مطلع على أعمال العبد ونواياه القلبية وأعماله الجسمية ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولفظة الحج لغة هى القصد ، ولفظة العمرة لغة هى الزيارة.

([1]) سورة ص : آية 75.

قوله تعالى ["**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**"](159)

تمهيـــــــد افتتح الله الآية بالتوكيد لبيان الحقيقة المؤكدة إزعاجا لقلوب اليهود والنصارى ، فإن الريبة لا تفارق قلوب المبطلين ، فهم وأن كانوا أنكروا ما بينه الله تعالى فى التوراة من نعوت رسول الله ε فإن الحق له صولة على قلوبهم ، فإذا سمعوا آيات القرآن تتلى مبينة للحقائق التى ينكرونها بعد اعتقادها تخفق قلوبهم خوفا من أن يحصل لهم ما حصل لسلفهم بعد تكذيب الأنبياء من المسخ.وفى تلك الآية ما يذيب قلوب العلماء العارفين بالله تعالى ، فيدفعهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهما قابلهم من البلايا فى سبيل ذلك، وقد قال الصحابة لأبى هريرة : أكثرت الكلام عن رسول الله ε ، يعنى كذبت على رسول الله ، فقال : ما بالكم ؟ أن إخواننا الأنصار كانوا مشغولين بمزارعهم واخوتنا المهاجرين بتجارتهم ، وكنت أقيم مع رسول الله ε أجوع ويما وأشبع يوما ، ووالله الذى لا إله إلا هو لولا آية فى كتاب الله ما قال أبو هريرة كلمة ، وهى قوله تعالى : "أن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون" والآية نزلت فى أهل الكتابين ، ولكنها تجر بذيلها كل عالم لا يبين لعباد الله آيات الله وأسراره إلا بمقابل من مال أو غيره.

قوله تعالى "**يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ**"

والبينات جمع بينة وهى الآية الظاهرة الجلية ، أو بمعنى مبينة وهى الآية التى تبين غوامض أسرار التوحيد ، أو تبين أيام الله وإحكامه وحكمة أسرار الكتاب ، وقد تقدم لك معناه فيما سبق . "من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب" أى بين تلك الآيات البينة والهدى للناس ، أى بإنزاله بلغتهم أو ببعثة الرسل الذين يبينونه مفصلا ، فيكون بيان الرسل والهدى للناس هو بيان الله تعالى لهم ، كما قال تعالى : "**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**"[1] ومن قبل من الرسول ايضا فقد قبل من الله ، وإنما الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أواسط بين الله وبين خلقه ، لأنه سبحانه وتعالى اصطفاهم وأهلهم لأن يتلقوا من الملك الموكل بالوحى او يسمعوا منه سبحانه وتعالى ، كما قال جل جلاله : "**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**"[2] وكتم تلك الآيات جائز أن يكون بمنعهم بيانه للناس ، أو بتغيير عباراته ، أو بتأويل الفاظه الى غير مراد الله تعالى ، وكل ذلك جائز فى الكتم.

قوله تعالى "**أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**"

الإشارة إلى اليهود والنصارى الذين وقعوا فى تلك الخطيئة ، واللعنة هى سلب الإيمان من القلوب ، وهى فى اللغة الطرد والبعد ، ولما كان الطرد يكون بحسب الطارد والمطرود ، فالطرد من الناس الإبعاد ، والطرد من الله تعالى حرمان العبد من فضله وإحسانه حتى يبعد عن محاب الله ومراضيه فيقيمه الله تعالى فى مساخطه ، أعاذنا الله تعالى من غضبه سبحانه."**وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**"اللاعنون هنا هم من هداهم الله تعالى ، بعد أن قطعهم وأبعدهم عن رسول الله ε أحبارهم ، فإنهم بعد الهداية يسألون الله أن يلعن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى الذين كتموهم نعت رسلو الله ε ، وهذا عاجل غضب الله على اليهود والنصارى.أما أجله يوم القيامة فإنهم يكونون فى نار جهنم يوم يقولون : "**رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ**"[3] فإن الذين هداهم الله من بنى إسرائيل كعبد الله أبن سلام وتميم الدارى ، والذين هداهم الله من علماء النصارى أو من غير علمائهم إذا علموا بكيد الأحبار والرهبان سألوا الله أن يلعنهم لعنه كبيرا.

وقد ورد أن البهائم إذا عضها الجدب قالت هذا من عصاة بنى آدم لعن الله عصاة بنى آدم ، معاصيهم سبب الجدب . قال تعالى : "**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**"[4].

([1]) سورة النساء آية : 80.

(2) سورة النمل آية : 6.

(3) سورة فصلت آية : 29.

([4]) سورة الشورى آية : 30.

قوله تعالى ["**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**"](160).

تمهيـــــد كشف الله تعالى للعقول ما كان خفيا عنها مما هو خاص بالحضرة الإلهية ، لتقوم الحجة على أنه جل جلاله لا تضره المعاصى ولا تنفعه الطاعات، باستثنائه استثناء مفصلا ممن حكم عليهم سبحانه باللعن بسبب ما ارتكبوه من كتمان ما أنزله الله فى التوراة والإنجيل من صفات رسول الله ε , وتلك الخطيئة بحسب الشريعة هى أكبر الكبائر ، لأنهم كذبوا على الله تعالى وكتموا أوامره التى بها إصلاح العالم أجمع ، وفى ذلك ما فيه من غضب الله تعالى حتى حكم عليهم بالمطرد والبعد والقطيعة عنه سبحانه ، وفى تلك الخطايا ما يوجب خلودهم فى النار ، وما يجعل هذا الغضب يحيق بهم ، ولكنه جل جلاله عطوف رءوف رحيم ، بعد كل تلك الخطايا الموبقة يتعطف جل جلاله فيستثنى منهم "**الَّذِينَ تَابُوا** " ويخبرنا أنه سبحانه يقبل توبتهم ويتوب عليهم.

قوله تعالى "**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا**"والتوبة لغة : الرجوع ، ولما كان الرجوع انتقالا من المكان الذى انتهى إليه إلى المكان الذى خرج منه ، كان المعنى فى التوبة إنه يرجع من هممه ولممه وأهوائه وعلله ونواياه السيئة ، إلى حظيرة الإقبال على الله تعالى ، مطيعا لأمره ، مسارعا إلى ما يحبه ويرضاه ، بعد التوبة التى قدمت لك أركانها التى هى النم على ما فعل ، والعزم على عدم العودة ، والمسارعة إلى استبدال القبائح بالمحاسن ، والمخالفات بالطاعات والمفاسد بالإصلاح ، وذلك بأن ينظر إلى ما أفسده بقوله وعمله وحاله فيصلحه بحسب ما أمر الله تعالى.ومن تفصيل هذا المجمل أن يؤمن برسول الله ε ، فإنه قد يتوب من تغيير ما نزله الله أو من كتمانه بإعلانه ، ولكنه يصير مكذبا برسول الله ε أن لم يجمل باطنه بالإيمان به ε وبن تثيب توبته . فإن الحكم عليهم باللعنة : إنما كان سببه كتمانهم ما أنزله الله على موسى ، مبينا به صفات رسول الله ε ، وإلا فكل اليهود من بنى إسرائيل كانوا يعتقدون ما فى التوراة بالنسبة له عليه الصلاة والسلام لوم يعترهم العناد والإنكار إلا بعد أن بعثه الله تعالى بالحق بشيرا ونذيرا حسدا من عد أنفسهم.
قوله تعالى **"وبينوا"** البيان : هو إظهار الحقائق جلية ما كان منها معنويا أو حسيا ، ولما كان ما نحن فيه أمورا معنوية ، لزم أن يكون البيان فيه بالعبارة المطابقة للحقيقة التى أنزلها الله تعالى ، وهذا القيد إنما أنزله الله تعالى لأنه يعلم خبث نفوس اليهود ، فقد يرجعون الى الحق فيما بينهم ، وتأبى عليهم أنفسهم أن يبينوا لعباد الله الحقائق لينتفعوا برسول الله ε ، حرصا على ما ينالهم من حطام الدنيا الزائل ، وعلى الرياسة التى لو بينوا ما كتموه للناس لسلبت منهم، ولذلك يقول الله تعالى **"وَبَيَّنُوا"** فإن لم يبينوا بإخلاص لله رد الله عليهم توبتهم.وهنا لقائل أن يقول : بعد أن يتوب العبد ويصلح ويبين كيف يقول الله تعالى : **"أَتُوبُ عَلَيْهِمْ"** وهل هناك تائب بغير تواب يتوب عليه ؟ وإذا أتم أركان التوبة هل يقبل الله أولا يقبل حتى يقول : **"فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ** " وهل هناك من يستوفى شروط التوبة ولا يتوب الله عليه ؟ فنقول لهذا القائل : أن مراد الله وهو سبحانه أعلم بمراده أنه يوفقهم للتوبة ويشرح صدورهم للقيام بها ثم يتفضل سبحانه فيبين لهم أنه قبلها ، ليعلم عباده أنه قاهر غير مقهور.وانه سبحانه لا يعامل عباده بمقتضى العدل ولكن يعاملهم بمقتضى الفضل ما داموا فى تلك الدار الدنيا . كما قال ابراهيم عليه الصلاة والسلام وهو فى الدار الدنيا **"فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**[1] ومن قرأ الآية التى يخبرنا الله فيها عن قول عيسى عليه السلام **"إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"**[2] وفقه ما بين الرسولين عليهما السلام وبين آيتهما رأى أن الخليل عليه السلام يقول : **"وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"** لطمعه فى مغفرة الله لهم بتوفيقه لهم فى الدنيا.وفى قول عيسى عليه السلام يقول : **"وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"** علم أن المغفرة يوم القيامة لا تكون إلا عن عزة وحكمة ولا تكون عن مغفرة ورحمة إلا فى الدنيا **"فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"** الإشارة إلى من استثناهم الله تعالى ممن لعنهم ، ويكون المعنى فهؤلاء أتوب عليهم أى أرجع عليهم بما سبق لهم فى قدرى من الهداية والتوفيق **"وَأَنَا التَّوَّابُ"** الذى أتوب على الخلق وأقبل منهم وأبدل سيئاتهم حسنات **"الرَّحِيمُ"** فيما سبق.

([1]) سورة ابراهيم آية : 36.
(2) سورة المائدة آية : 118.

قوله تعالى ["**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**"](161).

أتى الله بحرف التوكيد فى هذه الآية الشريفة ليقطع طمع من مات كافرا ، والكفر هو الستر ، فالكفر والغفر بمعنى واحد ، إلا أن الكفر ستر الحق عمن سجل عليهم القضاء شقاءهم ، والغفر ستر العيوب.
والجنة ستر الذات وكل ما أستتر عن الأبصار من الأنواع الحية يمسى جنا ، وما ستر ما فيه بسور يسمى جنة.
فالذين كفروا ك يعنى ستر عنهم الحق فلم يقبلوا عن الله آياته ، ولم تقبل عقولهم الأدلة والبراهين القائمة على تفريد الله ، وانفراده بالوحدانية ، واختصاصه بالعبادة دون غيره.
والكفار أنواع منهم أهل الجحود الذين حجبتهم المادة بكمها وكيفها وخصوصياتها فوقفوا عندها ، وهم الذين بحثوا بعقولهم حتى انتهت بهم العقول التي نهايتها الكبرى ، التى نهايتها الوقوف عند المادة . قال تعالى : "**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**"[1] ، ومنهم أهل الفطرة الذين لم تبلغهم دعوة الرسل ، فإنهم وإن كانوا من أهل الجحود ولكن لهم العذر ولا يتعين الكفر إلا بعد بعثة الرسل وتبليغ الدعوة ، ومنهم من فسدت فطرهم فلم يميزوا بين التشبيه والتنزيه ، فاتخذوا الأنبياء الذين أجرى الله على أيديهم معجزات مادية ، كأحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص وفلق البحر ، وكالموت مائة سنة والإحياء بعدها ، فعجزت قواهم العقلية عن فقه غرائب قدرة الله فاتخذوهم أربابا أو أولادا لله سبحانه وتعالى.
ومنهم أهل النفوس العنادية الذين يدعوهم الكبر والحسد لإنكار ما أثبته الدين . ومن أنكر معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر ، ومنهم أهل الشك والريب ، ومنهم ومنهم . . . . الخ ،تلك الأنواع كلها من مات منهم حكم عليه بوعيد الله فيه ، وحكم الله عليهم هو قوله سبحانه "أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين".
"**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**".
وقد بينت لك معنى اللعنة فيما تقدم فلا نطيل بذكرها . ومعنى عليهم أى استغرقتهم اللعنة استعلت عليهم فكبكبوا فى النار ، ولعنة الملائكة معدومة، وإنما الخلاف فى قوله تعالى : "والناس أجمعين" ونكن خصص بعضهم فقال : "الـ" العهد ، والمراد المؤمنون يلعنونهم ، وهذا التأويل لا يؤيده صريح القرآن.
والتأويل الذى يتحد فى صريح القرآن هو أن الناس جميعا يلعنون الظالم . والكافر هو الظالم . ولك أن تقول أن الناس أجمعين إنما أضل الكافرين منهم الزعماء والدعاة إلى النار فإذا انكشفت الحقائق يوم القيامة لعن المؤمنون الكافرين أجمعين ، ولعن الكفار من أضلهم وأوقعهم فى الكفر ، ولعن الزعماء الكافرين الذين أضلوهم فصحت اللعنة من الناس أجمعين ، كما قال تعالى مخبرا عن الشيطان : "**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ**"[2] وهذه الجملة من الشيطان فى قوة اللعنة منه على من اتبعه وتبرأ منه يوم القيامة ، فكذلك يكون الدعاة إلى النار يوم القيامة يلعن بعضهم بعضا.

قوله تعالى ["**خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ**"] (162).

"**خَالِدِينَ فِيهَا**" الخلود معلوم وهو البقاء فيها ، إلا أنه هنا ملاحظ فيه معنى الأبدية وأن لم يذكر لفظ أبدا بعدها ، لأن الذى ورد فى الشريعة أن الكافر يخلد فى النار أبدا ، وأن عصاة المسلمين لا يخلدون فيها أبدا ، وقد صرح القرآن فى غير هذه الآية بالأبدية للكفار دون المؤمنين.
ولقائل أن يقول : أن أطول أعمار الناس لا يتجاوز الألف سنة ، فمن عاش ألف سنة كافرا كان من العدل أن يعذب بقدر عمره ، كما أن المؤمن الذى يعيش ألف سنة ينعم بقدر عمره ، إلا أننا نقول : أن فضل الله للمؤمن يعلمنا المزيد من إحسانه ، أما عدل الله تعالى فيقتضي معاملة الكفار بقدر أعمارهم.

([1]) سورة الرحمن آية : 33.
([2]) سورة ابراهيم آية : 22.

وهنا نرد على صاحب هذا القول بأن نبين له سر الحكمة فى ذلك ، وهو أن الله تعالى لو أبقاهم فى الدنيا إلى الأبد لداموا على الكفر ، ولو أبقى الله المؤمنين فى الدنيا إلى الأبد لداموا على الطاعة . وهذه هى حكمة بقاء كل منهما فيما قدره الله له أزلا ، والواجب على كل مسلم أن يسلم لله أحكامه ، ويؤمن بالغيب حتى يمنحه الله العلم بأسرار حكمته تعالى.

قوله تعالى **"لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ"**

التخفيف قد يكون بجعل أوقات للعذاب وأوقات للأفاقة منه ، أو بوعد من الله بإخراجهم منه ، أو بأن يمنحهم الله نظرة ينتظرون فيها فرج الله تعالى أو خفي لطفه بهم ، فقطع رجاءهم سبحانه وتعالى لأنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله تعالى ، بعد إقامة الحجة ووضوح المحجة ، قال تعالى : **"وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ"**[1] وإنما ثبت كفرهم بعد أن كذبوا محمدا ε لأنه أتى عليه الصلاة والسلام بالبيان الذى تقبله العقول ، ولكن نفوسهم الأمارة بالسوء أعمت عيون عقولهم عن تعقل ما جاء به ε .

قوله تعالى [**"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ"**] (163).

بين الله تعالى فى هذه الآية الشريفة حقيقة التوحيد بحججه البالغة التى تقبلها العقول السليمة من الهوى ، والنفوس الطاهرة من الخبث ، إقامة للحجة على من أشرك بالله وأتخذ له ندا وشريكا ونظيرا وشبيها من خلقه فابتدا الآية الشريفة . بقوله تعالى : **""وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ"** ومن بيان ذلك:

1- الإله : هو الغنى عما سواه ، المفتقر إليه كل ما عداه . والإله هو من يأله إليه الناس جميعا فلا ينكر الوهيته أحد من الخلق . ولكن كفر من كفر لم يكن بجحود الوهيته ، بل بالخطأ فى توحيده سبحانه ، فإن الله تعالى يقول: **"وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ"**[2] ولكنهم عبدوا غيره من الأوثان والأفلاك والأملاك ، ومن الأنبياء والملائكة بتأويل أنهم أبناء الله وأنهم شفعاء عند الله أو يقربوهم إلى الله زلفى ، والحكم هنا بتلك الآية إثبات الوحدانية لله تعالى لأن الأناس فطروا على الدين.

2- وقد عرف بعض الحكماء الإنسان بأنه حيوان دينى بالطبع ، فليس عندهم شك فى إثبات الألوهية ، ولكن الكفر الجحود إنما حصلا فى معرفة هذا الإله جل جلاله . ولذلك يقول الله تعالى : **"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ"** والوحدة هنا ليست كالوحدة فى المشهود المحسوس الملموس من تلك الآثار وما فيها ومن فيها ولكنها وحدة تناسب من هى وصف له.

3- والله تعالى ليس كمثله شيء ، وكذلك أسماؤه وصفاته وأفعاله ، وغاية ما يمكن أن يبينه المعبر أن يقول : **"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ"** أى أنه سبحانه واحد بمعنى أنه ليس من شيء ، ولا على شيء ، ولا منه شيء ، ولا في شيء، ولا فيه شيء ، فليس فى ذات الحق إلا الحق ، وليس فى الكون إلا الكون ، والله سبحانه على عن العقول والأرواح ، وعن الكم والكيف ، وعن الزمان والمكان.

4- وأن الواحد فى قومه من لا مثيل له ولا نظير له فيهم ، وقد يقال لشيئين متماثلين فى المعنى هما واحد ، ويقال للممتاز بصفات عالية أو سافلة هو واحد أو هو نسيج وحده ، ويقال للمنفرد عن الخلق بجماله وجلاله وكماله هو واحد ، وهذه الوحدة هي التي تأولها بعض العلماء بقوله تعالى : **"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ"**.

وعندي أن البيان الأول هو الذي يناسب هذا المقام ، وأما الأقوال الأربعة فقد يقرب منها إلى هذا المقام البيان الرابع ، ولكنه لا يحصر المعنى التي تناسب الجلالة الإلهية.

والمراد كله اليقين بواحدية الله تعالى أيمانا بالغيب ، حتى تقوم الحجج ، وتستبين الدلائل ، وتنكشف للنفس أنوار الغيب المصون ، فإن التوحيد هو رأس أيمان المؤمن ، ومن خرج به من الدنيا غفر الله له ذنوبه ولو كانت من

([1]) سورة فصلت آية : 46.

(2) سورة لقمان آية : 25.

الكبائر ، حاشا الشرك بالله لقوله تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ"**[1] وقد فصلت مجمل التوحيد فى رسالة : "عقيدة النجاة" فليراجعها طالب النجاة.

قوله تعالى **"لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ"**

حصر الألوهية فى ذاته بما بينه من القصر فى هذه الآية ، فإن قصر الصفة على الموصوف يقتضي عدم خروج الصفة عن الموصوف مع جواز اتصاف الموصوف بغيرها ، وقصر الموصوف على الصفة يقتضي قصر الموصوف على الصفة ، وقد تكون الصفة لغيره ، وهنا قصر الصفة على الموصوف.

فصفة الألوهية مقصورة على ذات الله تعالى لا تتعداه لغيره أبدا . فإن من سواه وما سواه آثار مخلوقة بقدرته سبحانه وتعالى ، وعباد مربوبون لربوبيته جل جلاله ، و **"كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ"**[2] و **" كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ"**[3] وهو جل جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد لم يمتزج بشيء ، ولم يزدوج بشيء ، وهو قبل كل شيء ، وليس قبله شيء.

سأل رجل أمير المؤمنين عليا عليه السلام فقال : أين كان ربنا قبل خلقنا ؟ قال : كان ولا أين . وبهذا الجواب أثبت أن هذا السؤال باطل ، وأن سائله شاك مرتاب . فإن الله تعالى يقول لزكريا : **"وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا"**[4] . وهذا حكم على الجزء والحكم على الجزء حكم على الكل.

وقوله تعالى : **"الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"** فى هذا السياق وأن كنا بينا معنى الرحمن الرحيم فيما سبق ، إلا أنا لا نخلى كتابنا هذا من مزيد فى تلك الآية – فالرحمن هو المنعم بجلائل النعم في تلك الدار الدنيا ، والرحيم هو المنعم بالخير الدائم في الآخرة ، وفى ذكرهما في هذه الآية إشارة إلى أن سبحانه وتعالى عامل العالم بالرحمن الرحيم ، فأبدعهم وأنشأهم وخلقهم بمشيئته وإرادته ، لا لعلة ولا سبب ، بل بفضله وبرحمته ، وأمدهم بما به قوام حياتهم ضروريا وكماليا . بحيث لو فقد عنصر من عناصر هذا الكون لهلك العالم اجمع ، ومثال ذلك الهواء والماء والشمس والأرض المنبسطة التي يسر لنا حرثها والبناء عليها والسير فيها ، ولو كانت أباطح وجبالا لهلك الإنسان لتعذر الحياة عليها.

ولذلك ورد فى الأثر الشريف : "سبقت رحمتي غضبى" ولو أن الغضب سبق الرحمة ما أبقى على ظهرها من دابة . قال تعالى : **"وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ"**[5] وقد بين الله تعالى التوحيد بيانا مفصلا لا يحتاج إلى بيان بعده . ومن تلقى عقيدة التوحيد من غير القرآن هوى فى هاوية الحجاب.

وأول بدعة مضلة اشتغال العلماء من زمان المأمون بالرد على من تلقو فلسفة اليونان والرومان والبابليين ، وجعلوا المنطق الذي هو ضروري للإنسان في تدبير منزله وتدبير المدن وسياسة الأمم ، لأن أصغر طفل يعلم البديهيات المنطقية ، وكلما كبر قويت عنده المبادىء المنطقية فتراه وهو صغير إذا أعطته أمه رغيفا وأخذت منه لقمة بكى لأنه يعلم أن الجزء ينقص الكل ، ويعتقد أن السماء فوق ، والأرض تحت ، فيدرك البديهيات ، فإذا كبر أدرك التصورات ، فإذا كبر أدرك التصديق ، ثم يدرك القضايا ، ثم يحكم بالنتائج.

فإن المنطق من ضروريات الإنسان ، ووضع العلماء له كوضع الحساب والهندسة والطب والبيطرة من الصناعات الضرورية للمجتمعات ، ولم يوضع لتقوم به الحجة لله تعالى ، لأن اليقينيات في المنطق هي المحسوسات ، والحق هو الحاكم ويعلو قدره أن يدركه الحس أو يحيط به علما فضلا عن إدراكه ، وما عرف الله تعالى إلا من فقهه الله في كتابه العزيز فعرفه بكلامه.

([1]) سورة النساء آية : 116.

(2) سورة الرحمن آية : 26.

(3) سورة القصص آية : 88.

(4) سورة مريم آية : 9.

([5]) سورة فاطر آية : 45.

والبدعة التى ابتدعها من ترجموا كتب الفلاسفة فى الرد على أهل الإنكار والجحود أنهم بالغوا فيها حتى حكموا على من لم يعلمها بالكفر ولم يتدبروا قول الله تعالى : **"الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"** إلى قوله **"وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"**[1] فحكموا على أنفسهم بالجهالة لأنهم لم يفقهوا الفرق بين الإيمان والعلم ، ولو فهموا الفرق بينهما لتحاشوا الوقوع فى تلك الكبائر.

وأنى أبين الإيمان والعلم ، أما الإيمان فهو تصديق المخبر فى خبره حتى يبلغ تصديقه التسليم له ، فإذا سلم له أخذ يبين له العلم بقدر عقله حتى يحصله.

أما العلم فهو تصور النفس رسوم المعلوم تصورا يجعل المعلوم كأنه معالم بين عينه ، مع نزاهة المعلوم وقداسته عن أن تحوم الأرواح والعقول حول قدس ذاته ، كما قال على عليه السلام : "لو شف الحجاب ما ازددت يقينا" لأنه علم علما تصور به رسوم المعلوم على جوهر نفسه.

إذا علمت الفرق بين العلم والإيمان حكمت أن الذين يؤمنون بالغيب لهم الزلفى عند الله تعالى ، سواء علموا الدلائل أو لم يعلموها ، وقد يرفعهم الله تعالى مقاما عليا ، أما أهل العلم بالله الذين عقلوا عن الله أسرار كلامه حتى منحهم الله اليقين ، فلهم درجات عالية عند الله قال تعالى : **"يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"**[2] فالذين آمنوا بالغيب يرفعهم الله تعالى ، والذين أوتوا العلم أعد لهم درجات عنده سبحانه ، وقد بر الله المؤمنين بالغيب ، ثم حثهم على طلب العلم فقال تعال : **"فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ"**[3] وقال سبحانه : **"قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[4] فأهل الهمم العالية من المؤمنين لا تقف همتهم عند الإيمان بل يهاجرون إلى الصين وأبعد منها ليحصلوا العلم النافع ، شوقا إلى الفوز عند الله تعالى بالدرجات العلا التى يمن الله بها على أهل العلم ، قال تعالى : **"هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"**[5] ودليلنا على أن الإيمان غير العلم قوله تعالى : **"وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ"**[6] فعطف الإيمان على العلم يقتضى المغايرة ولكن الجهلاء من الأدعياء جعلوا العلم والإيمان سواء فقالوا: الإيمان علم من طريق النقل ، والعلم علم من طريق العقل ، فما ورد من طريق النقل علم ، وما ورد من طريق العقل فهو علم ، وقد قال تعالى : **"أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ"**[7] وكم تراهم لجهلهم بهاتين الحقيقتين يلعن بعضهم بعضا ، ويكفر بعضهم بعضا كما اخبرنا الله تعالى عن أهل جنهم : **"كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا"**[8] حفظ الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم من تلك الفتنة وتفضل علينا سبحانه بأن يجعل لنا نورا فى قلوبنا نهتدى به إلى سواء السبيل.

([1]) سورة البقرة آية : 3 – 5.
([2]) سورة المجادلة آية : 11.
(3) سورة الحشر آية : 2.
(4) سورة يونس آية : 101.
(5) سورة الزمر آية : 9.
(6) سورة الروم آية : 56.
(7) سورة الجاثية آية : 23.
(8) سورة الأعراف آية : 38.

قوله تعالى [**"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"**](164).

يخاطب الله تعالى العقل بالحجة القاهرة ، مبينا له سبحانه أن كل إنسان لا يعقل عن الله خبره عن الحقيقة التى هى هو بالنسبة لنا فى قوله تعالى : **"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ"** لا يكون له عقلا موهوبا كما تفضل الله على أهل محبته ، بل يحتاج كل عقل لم يكن موهوبا للفضل من الله تعالى ، لأن الإنسان حيوان مستقيم القامة ، سوى ليس مكبا على وجهه.
وبما تقتضيه قواه التى تركب منها فى احتياج الى جميع العوالم علوا وسفلا ، وقد تكون ضرورياته ميسرة فتستعمل مباشرة بدون كم ولا عناء كالماء والهواء والشمس ونباتات الأرض وشجرها ، وكالمن والسلوى ، وكل ما لم يجعل الله للإنسان فى نيله عملا ولا بذل جهد ولا كد ، أو كنزه الله للإنسان فى الأرض ويسر له استخراج معادنها وتخليصيها ، وإستنبات زروعها التى يحصل منها ما لا بد له من ضرورياته وكمالياته من مأكل ومشرب وفراش , وبيوت يستخفها يوم طعنه وبيوت لإقامته مما يحتاج إلى العقل المفكر والأعضاء العاملة لاختراع الآلات والأدوات التى تيسر له ما يحتاج إليه فى حله ورحلته ، وفى مرضه وصحته ، وفى طفولته وشبابه وهرمه ، وفى مجتمعه المنزلي والقروي والمدني ، وفى المجتمع العام الإسلامي والإنساني. كل تلك الحاجيات لا تتيسر بسهولة إلا بالعقل الإنساني ، الذى يكون عاملا فى الجسم الصحيح الأعضاء ، فإذا مرض الجسم عجز هذا الجسم لضعفه عن القيام بما يريده العقل ، وهذا العقل هو الذى يحصل علوم ظاهر هذه الحياة الدنيا.
ومن لم يهب الله له عقل يعقل عنه فهو حيوان راق كالحيوانات المفكرة مثل الخيل والقدرة النسانيس ، وبعض الطيور والأسماك فى البحار ، وكالنحل ، وكل تلك الأنواع من الحيوانات مؤهلة لجلب النفع ودفع الضر بقدرها ، وكذلك الأناس من أهل الكفر بالله ويرسله عليهم السلام ، هم من فصيلة تلك الحيوانات الراقية إلا أنهم لكثرة احتياجاتهم كان رقيهم بقدر احتياجاتهم ، وكانت البهائم أهى منهم ، لأن البهائم لم يطالبها الله بما كلف به الإنسان فليس لها بعث بعد الموت.

أما هذا الإنسان الذى هو العالم الوسط بين من دونه من عوالم الجمادات والنباتات والحيوانات ، وبين من فوقه من عوالم الملكوت ، فوهب لمن سبقت لهم الحسنى منه سبحانه عقلا يعقل عنه فيؤمن بالغيب بمجرد خبره ، فإذا قال الله تعالى : **""وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ"** قال : صدقت لانفرادك بالألوهية دون غيرك ، ولواسع رحمتك فى الدنيا يا رحمن ، وعميمها فى الآخرة يا رحيم، فإذا أقام الحجج والدلائل زادهم الله إيمانا حتى يبلغوا مقام اليقين بما ينكشف لهم من الآيات المنبلجة فيما أبدعه الله تعالى ، وتكون تلك الحجج لهم لا عليهم ، مزيد إحسان من الله تعالى.

وأما من لم يهب الله لهم العقل الذى يعقلون به عنه سبحانه ، فأن الله إذا أخبرهم بمثل تلك الآية أنكروا ، كما فعلت قريش حيث قالوا : كيف يسع إله واحد هذا الخلق ؟ وسألوا اليهود : ما الذى جاءكم به موسى ؟ قالوا : أتانا بالعصا وباليد البيضاء ، وسألوا النصارى بم جاءكم عيسى ؟ فقالوا : جاءنا بإحياء الميت وشفاء الأكمه والأبرص ، فتوجهوا إلى رسول الله ε وقالوا : أجعل لنا الصفا ذهبا ، فقال الله له : أنى أجعله لهم ذهبا فإن كذبوا بعد ذلك فإنى أعذبهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين.

ورسول الله كما أخبرنا الله تعالى رءوف رحيم بالمؤمنين ، فأبت عليه رأفته ورحمته ε أن يدخل قومه فى التجارب والامتحانات الإلهية ، قال : دعنى يا ربى أدع قومى يوما فيوما وأسألك لهم الهداية. وأنزل الله تلك الآيات الى هى روح وريحان لمن جعل الله لهم نورا فى قلوبهم ، وقصما لظهور من لم يؤمنوا بالغيب ، فقال سبحانه : **"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**.

قوله تعالى **"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**
افتتح الآية بالتوكيد ثم قال : "فى خلق" ولم يقل فى السموات والأرض ، لحكمة عالية اختلف فيها العلماء ، لأنهم فهموا تلك الآية بقدر عقولهم ، لأنهم لم يتلقوا من ربهم بقلوبهم حكمة التنزيل ولا أسرار التأويل ، فقال بعضهم : أن الخلق غير المخلوق ، واستدلوا على تأويلهم بما يناسب المحسوس الملموس ، وقال بعضهم : هو عين المخلوق ، واستدلوا على ذلك أيضا بما يناسب المشهود مع رعاية الأدب.
والأولى لمن يرد أن يفقه عن الله ، ملازمة التقوى رعاية لقوله تعالى : **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ"**[1] فإنه فى تلك الآية الشريفة قال : "أن فى خلق السموات والأرض" وفى غيرها قال : **"إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[2] لفت العقل هنا إلى إيجاد السموات والأرض ؛ ثم عدد بعد ذلك ما فيها من الأنواع المحيرة للعقل التى هى برهان روحانى فوق براهين العقول ، ولذلك قال : **"فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"** أى فى إيجادها من العدم ، من غير مادة كانت أو صورة ، ومن غير آلات وأدوات ، ولا همامة نفس تجول فى تركيب ، بل بإرادة خصصت ، وقدرة أبرزت ، وكلمة أظهرت.
والبحث فى أن الخلق غير المخلوق أو عين المخلوق ، كالبحث فى أن الوجود غير الموجود أو أن الوجود عين الموجود ، وهى المباحث التى تحجب الروح عن سياحاتها فى ملكوت السموات والأرض لينكشف لها غيب الله المكنون فى مكوناته.
كأن الله تعالى يقول لأهل الإيمان بالغيب : أنى وهبت لكم نورا من نوري يبين لكم غرائب قدرتي وعجائب حكمتي ، وسر إرادتي في إيجاد السموات والأرض بعد أن لم تكن شيئا ، إمدادا لكم وجعلتها مسخرة لكم لتشهدوا آياتنا التى تجذبكم إلى العلم بأنى إله واحد رحمن رحيم ، فى خلق السموات وخلق الأرض بم فيهما من بدائع إبداع صنعي فى السموات من أفلاك ثابتات وسائرات ، ومن أرواح عاليات ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ومن حملة العرض ومن حولهم ، ومن ملائكة هم رسل الله لتصريف أقداره ، وأمناؤه على وحيه ، ومعقباته الذين هم يحفظون عباده.
وما فى تلك الأفلاك من الخواص التى عجزت العقول عن إدراكها من حيث كمها وكيفها ودورانها وما هو منها ثابت ، فما من كوكب يرى أولا يرى إلا وله خصوصية عجيبة جداً جعلها الله تعالى لخير العالم الأرض . فمنها الشمس التى تخزن حراراتها فى أجسام الأشجار فينتفع بها الناس فى أيقاد النار ، ومنها كواكب تكسب النباتات ألوانا ، ومنها ما يخزن الزيوت فيها ، ومنها ما يجعله الله تعالى لوضع الألوان والطعوم والروائح ، فلا ترى معدنا ولا نباتا ولا حيوانا على الأرض إلا ولكل كوكب فى السماء خصوصية تكون بها منفعة.
فالقمر منفعة أودعها الله فيه لنفع النباتات التى لا ساق لها . ولمد البحار وجزرها عند تمها ، ولبقاء صحة العيون للطاقة نوره ، ولإصلاح الألوان ، فيما لا لون له كالنباتات فى بدئها ، ولإفساد الألوان لما له لون ، كإفساد ألوان الملابس الموضوعة تحت نوره من غير حائل وقد أودع الله فيه تأثيرا به يضر الأجسام التى تجلس فى نوره أو تنام فيه ، وله خواص من حيث شهود آيات الله الدالة على جماله وبهائه وضيائه ونوره لا تفى العبارة بها ، ولكنها تشهد بعيون الكشف.
وقد بينا طرفا مما يناسب أهل العلم بالله فى كتاب : "شراب الأرواح" فى مثل هذه المواضيع ، وهنا أنبه السالكين إلى أن يتلقوا هذا العلم من الله تعالى إلهاما ، أو مراقبة ، أو مشاهدة بعد الإيمان الكامل بقوله تعالى : **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ"**[3] فان كشف تلك الأسرار بالرصد أو بالحدس والتخمين لا تنكشف به الحقائق ، والحكم بهما على ما يعجز العقل عن إدراكه باطل.

([1]) سورة البقرة آية : 282.
(2) سورة الجاثية آية : 3.
([3]) سورة البقرة آية : 282.

إنما خلق الله تلك الكائنات ليعرف ويظهر جل جلاله ومن حجبته تلك الكائنات عما أودعه الله فيها من أسرار حكمته وبدائع قدرته ، ووقف عند الانتفاع بخواصها ، أو بيان أسرارها التى لا تنال ألا بعد إتقان الصناعات وعلوم الرياضيات أهلك نفسه وغيره ، وفاز بأجره بما يناله من شهرة ومال وجاه فى تل الدار الدنيا ، ولم يظفر من جهوده إلا بشىء قليل مما فى السموات والأرض من الأسرار والحكم.

والسعادة كل السعادة أن تنكشف للسالك غوامض أسرار هذا الكون وما فيه من العجائب والغرائب ، التى تحتاج فى معرفة ظاهرها إلى سبعين ألف علم بينها الله فى كتابه العزيز ، فقهها من فقه ، وحجب عنها من حجب ، ومن شغله العلم عن المعلوم باء بالخيبة ، فإن العلم الحقيقى هو تصور النفس رسوم المعلوم بعد صفاء جوهرها ، حتى تكون مرآة تنقش عليها الحقائق من حيث هى حقائق.

"والأرض" ذكر الله السموات بصيغة الجمع والأرض بصيغة الأفراد لأنه يخاطب العقول ، والعقول أدركت أن الكواكب السيارة سبعة وكل كوكب منها فى سماء ، وهى زحل فى السماء السابعة ، والمشترى فى السماء السادسة ، والمريخ فى الخامسة ، والشمس فى الرابعة ، والزهرة فى الثالثة ، وعطارد فى الثانية ، والقمر فى الأولى . والآية إنما سيقت للحجة الواضحة على العقول ، ولكن فوق زحل فلك يسمى : "نبتون" أو الكرسى ، وفوقه " "الأطلس الأعظم" وهو العرض ، وفوق العرش لإخلاء ولإملاء ، ولا يعلم علم ذلك إلا الله تعالى أو من أسرى به إليه صلى الله عليه وسلم ، فأطلعه على غوامض أسراره فى كل مكوناته ، ليريه آياته مما غاب عن العقول والأرواح ، مما لا يعلم علمه إلا الله ، ليحيط ε بكل ما أبدعه الله تعالى ، فإن العلم بتلك الآثار العظيمة يجعل العالم بها عارفا بالله وبأسمائه وصفاته وبآثار أسمائه.

وإنما أفرد الأرض لأنها كوكب واحد من الكواكب المنتثرة مما لا يحصى أحد عدها ، موضوعة فى هذا الجو الفسيح وهى كمركز العالم ، ولما كانت أقرب الأفلاك إلينا وكانت محل إيجاد ما لا بد لنا منه كأن التدليل بها على وحدانية الله وقدرته وإحسانه وفضله الصق بالعقول من السموات ، لأن الذى علمناه بعقولنا من السموات لم يكن عيانا لأبصارنا وبصائرنا إلا إذا كشف الله الحجاب عنا.

ولكن ما فى الأرض أدركناه بأعضاء السمع والشم والذوق والبصر والمس ، وتحققنا قدر احتياجنا إليه ، وعجزنا عن أن نوجده لأنفسنا ، وأنه فضل من الله تعالى تفضل به علينا . وفى الأرض أسرار وغرائب إذا كوشف بها السالك تجلت له معاني صفات الحق جل جلاله منبلجة فحيرت عقله ، وأدهشت لبه ، وجعلته يدرك عجزه عن أدراك حقيقة ذرة منها هى أثر القدرة، فكيف يدرك قدرة أبدعت وإرادة خصصت وكلمة نفذت؟

وهنا تقهره الحقائق فيقول : سبحانك ما عرفنك حتى معرفتك ، سبحانك لا تدركك الأبصار وأنت تدرك الأبصار وأنت اللطيف الخبير.

وبقدر ما يعلمه من تلك الحقائق يكون علمه بالله ، وبقدر ما يجهله من تلك الحقائق يكون جهله بالله ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" والذى أراه أن مراده صلى الله عليه وسلم والله أعمل ، طلب علم المعرفة بآثار قدرة الله وغرائب حكمته ، لترتسم تلك الحقائق على جوهر نفسه.

قوله تعالى **"وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ"**

يبين الله سبحانه حقيقة محسوسة تكشف لمن نظر إليها نظرة عبرة ، أن القادر الحكيم هو الذى أبدع تلك الآية بسر إذا كشف ، حكم العقل بانفراده وبالألوهية ، وبأنه واحد أحد لا يزدوج ، منزه عن النظير والضد والند ، فاختلاف : أى تعاقب الليل والنهار بمعنى أن الليل يخالف النهار ، والنهار يخلف الليل ، فهى من الخلف ولفظها بمعنى الافتعال ، وتأولها بعض العلماء بأنها من الاختلاف أى المخالفة.

ومعنى هذا أن الليل والنهار لا يفقدان ، فقد يكون عندنا عصر وفى بلاد مراكش ظهر ، وقد يكون عندنا نهار وعند غيرن ليل ، وقد يكون النهار بضع عشرة ساعة كأيام الصيف والليل بضع ساعات.

وهذا الاختلاف لخير العالم لا لضررهم ، فهى آية كبرى لأن الله سبحانه جعلهما مختلفين ، والعادة أن المختلفين يحصل منهما الضرر ، إلا اختلاف الليل والنهار فإنهما لنفع كل ما على الأرض من دابة أو طير وما فيها من معدن أو جماد أو ماء ، وفى اختلاف الليل والنهار من طول الليل وقصر النهار ، أو طول النهار وقصر الليل ، وتعاقب آثار العناصر الأربعة فى اليوم الواحد بل وفى كل السنة ، فترى من ثلث الليل الأخير إلى الفجر الصادق بردا ورطوبة تناسب الماء ، وترى من الفجر الصادق الى شروق الشمس بردا ويبوسة وسكون هواء يناسب

التراب . وترى من الضحوة إلى ما بعد الزوال حرارة ويبوسة تناسب النار ، وترى وقت الأصيل إلى جوف الليل حارا رطبا يناسب الهواء وما فى اليوم الواحد تراه فى السنة كلها ، فترى فى السنة انقلابين واعتداليين ، فمن الاعتدال الربيعي يستوي الليل والنهار ثم يأخذ الليل فى النقصان والنهار فى الزيادة ، إلى الانقلاب الصيفي ومنه إلى الاعتدال الخريفي فيعتدل الليل والنهار ويأخذ الليل فى الزيادة والنهار فى النقصان ، إلى الانقلاب الشتوي وكل هذه التغيرات من كبريات الآيات التى بها حفظ حياة العالم ، متمتعا ، بما لا بدله منه من ضروریاته وكمالياته ، فإن كل فصل يناسب اعتدال أمزجة وزروع وضروع ، وشفاء من أمراض اقتضاها السن والزمن والمكان.

وفى اختلاف الليل والنهار من أسرار الحكمة وواسع الرحمة وعميم النعمة ، ما به يشاهد من جعل الله له نورا فى قلبه جمال ربه جليا تشهده روحه ، ويلحظه قلبه ، ويفرح به جسمه ، فينجذب الإنسان بكل حقائقه إلى شكر ربه العلى العظيم ، الذى هيأ له قبل وجوده فى هذا الكون ما به ينال السعادات الكونية فى بسط وأمن ويسر ، وما به ينال السعادات الأخروية فى جوار ربه العلى ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين ، بما أمده به فى هذا الكون من ماء أنزله من السماء فوق أرض خصبة ، وأجراه على الأرض أنهارا مرتفعا عن سطحها ، مسورا بجبال تحفظه من أن تمصه الرمال ، أو أن يتسرب فيضيع من غير أن ينتفع به بنو الإنسان ، وجعل الأرض منبسطة أمام الناظر ليسهل على الإنسان زرعه وبنائه وسفره وغير ذلك مما لا يتم صفاء الحياة إلا به.

ففى اختلاف الليل والنهار من تغير أحوالهما من وقت لطيف بين حرارة وبرودة ينشط للعمل ، إلى وقت حار يلزم أن يستريح من العمل ، إلى وقت الطف من حيث النسيم العليل البليل ، فالبرد المناسب الذى يجعل الناس تسكن إلى فراشها ، لتهجع من شواغلها ، فتكون أنواع التغيرات فى اليوم الواحد سببا فى حفظ قوة الإنسان وحياته.ولولا تلك التغييرات فى كل يوم لهلك العالم أجمع ، بحيث لو اشتدت الحرارة حتى فقد الهواء من الجو وتنفس الإنسان نارا حامية لهلك ، ولو اشتدت البرودة حتى تقلصت الأجسام لهلك الإنسان وسبحان المدبر الحكيم الخبير اللطيف الرءوف الرحيم

ولو أجتمع الإنسان المغرور بما منحه الله من الصناعات والفنون على أن يغير ما يريد الله أن ينزله به من الصواعق والزوابع ، وهزات الأرض ، وطغيان الماء ، وكان كل إنسان من الأناسي علم من الصناعات ما به يقهر المعادن والجمادات والنباتات والحيوانات ، لعجزوا جميعا عن دفع أصغر آفة من تلك البليات.

ولكن قتل الإنسان ما أكفره ، يتفضل الله عليه بسوابغ النعم تتوالى عليه من البحار والأنهار والأرض اليابسة ، والجبال والتلال والمناجم ، ومن الهواء وما فوقه من السحب ، وما فوق ذلك من الكواكب السيارة ، وما فوق ذلك من قدرة القادر ، وحكمة الحكيم.

وإحسان المنعم المتفضل ، وكرم الغفور الصبور الشكور الستار ، وغير ذلك مما أخفاه الله عن الصناع والمخترعين والفلاسفة من جماله وفضله وجوده الذى أودعه فى كل ذرة من ذرات العالم ، قال تعالى : **"وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ"**[1] وقال سبحانه ليقهر من غرهم علم ظاهر الحياة الدنيا : **"وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"**[2].

هذا ما يمكن أن يسطر فى صفحات الأوراق ، وفى غضون اختلاف الليل والنهار وسرعة تغيرهما فى كل نفس دليل على حسن تدبير الله تعالى وواسع رحمته ، وعلى أنه سبحانه الأحد الصمد القادر ، وأن كل من سواه وما سواه محدث جديد أوجده سبحانه من لا شيء ، ليظهر جل جلاله بكماله وجماله وجلاله ونوره وبهائه وضيائه ، وأنه سبحانه هو الرب الكبير المتعال ، الذى لا يضره كفر عبادة جميعا ، ولا ينفعه أيمانهم وطاعتهم ، وهو الذى سخر لهم كل شيء فى ملكه ، ووهب لهم العقول المكتسبة بالتثقيف والتهذيب ، وجعلهم لا حياة لهم إلا بضروريات كثيرة يسر لهم منها ما لا غنى لهم عنه نفسا واحدا كالأرض التى تقلهم ، والسماء المزينة بالكواكب التى تظلهم ، وكالماء والهواء والحرارة والحيوانات والنباتات والمعادن ، وخلق لهم أعضاء كالآلات والأدوات ينوعون بها مواد تلك الحقائق ، وينتفعون بما كنزه الله لهم فيما أحاط بهم من الموجودات بالهام من الله تعالى ، أو بتعليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم.

([1]) سورة يوسف آية : 76.

(2) سورة الإسراء آية : 85.

فأن الله تعالى علم الأنبياء الصناعات وعلموها لأممهم ، فعلم آدم الزراعة وعلم أولاده فى زمنه تربية الحيوانات ، وعلم نوحا النجارة ، وعلم أدريس الحياكة ، وعلم ابراهيم الحكمة النظرية ، وعلم موسى الحكمة العملية ، وعلم داود الحدادة ، وعلم عيسى الطب ، وجمع لخاتم الأنبياء كل الصناعات الجسمانية والروحانية ، فعلمه رعى الدواب صبيا ، والتجارة شابا ، والزراعة ، وعلو الهمة فى إتقان الصناعات الضرورية والكمالية ، فكان ε طبيبا رفيقا ، وعلمه السياسة والحكيمة فى تدبير المنزل والقرية والمدينة والمجتمع العالم ، وعلمه ε أكمل سياسات الجهاد.

وفوق ذلك علمه صلى الله عليه وسلم علم الغيب المصون الذى به الفوز بالملك الكبر فى جوار رب العالمين ، وعلمه سبحانه ما به كمال الأشباح حتى يكون الإنسان عالما أصغر ينطوى فيه العالم الأكبر ، فكان لما تفضل الله به عليه ε الحقيقة التى جملها الله تعالى بما يحبه ويرضاه من خلقه ، وبما ينال به الخلق كمال النعمة ودوام المسرات ، وكان الله تعالى يقول : أن حبيبى محمدا ε جملته بما أحبه من خلقى عقيدة وعبادة وأخلاقا ومعاملة وأحوالا وكلفت عبادى أن يطيعوه فيا أمرته به بقدر استطاعتهم ، وأن ينتهوا عما نهاهم مرة واحدة إلا ما أكرهوا عليه.

قوله تعالى **"وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ"**

يذكر الله الإنسان بم أنعم به عليه من ماء سائل مستبحر ، وهواء متوسط بين نسيم عليل بليل وريح عاصف عقيم ن وعقل مخترع ، وأعضاء عاملة تتقن الصناعة ،وأشجار ضخمة نأخذ منها الأخشاب اللازمة للصناعة واختراع منشآت للشحن والنقل كالسمك يسهل مرورها فى الماء ودورانها فيه وهى السفن وسميت فلكا لأنها مستديرة ، وتلك السفن التى يقيم الله بها الحجة لأهل العقول التى تعقل عنه ، وعلى أهل البعد عنه إذا نظر إلي أهل العقل وإلى ما يلزمها لتجرى لنفع الناس حكم بالبديهة أن كل تلك الحقائق اللازمة لسيرها لا يقدر على إيجادها إلا الله تعالى ، لأنه جل جلاله أوجد الإنسان من لا شىء روحا ، وأوجد له من العناصر الكونية جسما.

وتلك العناصر التى خلق الإنسان منها خلقت من لا شىء . قال سبحانه لزكريا عليه السلام: **"وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا"** [1] فكشف للعقول فى تلك الآية حكمة إمداده بتلك الحقائق ، لتشهد جماله الظاهر الجلى فيها فتذكره ولا تنساه ، وتطيعه ولا تعصاه ، وتشكره ولا تكفره.

وفى تفصيل ما أجملناه فى تلك الحقائق طول على السالك ، وفيما قررناه بيان يكفى السالكين قال تعالى : "واتقو الله" بما علمتم **"وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ"**[2] ما لم تكونوا تعلمون ، وإنما تعلم الإنسان صناعات الفلك من الرسول الكريم نوح عليه السلام ، ومن ساحت روحه الفاضلة فى ملكوت السموات والأرض بعد أن زكت نفسه ، ورسمت تلك الآيات المكونات على جوهر نفسه ذكر وحضر ، ولربه شكر.

فانظر بعين الفكرة فى الفلك التى تجرى على الماء يجريها الله تعالى بالهواء وبالبخار ، تحمل للناس أقواتهم من بلاد غير بلادهم ، وتحمل إليهم ما يحتاجون إليه من مال أو صناعات أو آلات أو قوت أو ملابس فيحصل التبادل الذى به حياة المجتمعات الإنسانية.

وفى الفلك لأهل البصيرة مزيد علم فى أقدام الإنسان وشجاعته ، والقاء نفسه فى المهالك لنيل ضرورياته ، وذكرها فى القرآن دليل على إباحة الله للتجارة والأمر بالعمل فى طلب المعاش ، وفيها ظهور خفى لطف الله تعالى للمسافرين فى البحر عند سقوط زوابع الرياح ، وعجز الربان والنوتية عن حفظ السفينة من هيجان البحر ، ونجاة السفينة من تلك الأخطار عند ما يعجز المسافرون عليها عن حفظها ، ويفوضون أمورهم إلى خفى الألطاف ، فيتداركهم اللطف الخفى ، فيخرجون من السفينة وقد كمل إيمانهم لمعرفتهم أنفسهم بالعجز.

وهنا أبين لك مثلا تتذوق منه التوكل على الله تعالى ، فإن المسافرون مهما هاج البحر بزوابع الريح فإنهم يعتمدون على النوتية والربان ، فتطمئن قلوبهم كلما راءوهم مطمئنين ، فإذا انزعج النوتية التفتوا إلى الربان ، فإذا يئس الربان من النجاة أقبلوا بكليتهم على الله متوكلين عليه بإخلاص ، وهذا هو التوكل حقا . ومسلم يعتمد

([1]) سورة مريم آية : 9.

(2) سورة البقرة آية : 282.

على غير الله من مال أو ولد أو حكم ويدعى أنه متوكل على الله فهو كاذب حتى يكسر تلك الأصنام من قلبه بشهود أو بحادث مهلع ، وبذلك يكون صادقا فى توكله. . .

"تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ" البحر هو الواسع المتنائي الأطراف ، يقال فلان بحر فى العلم أى واسع الإطلاع ، وفى اللغة البحر هو الشق فى الأرض ، وأصطلح الناس على أن يمسي الشق الذى يجرى فيه الماء الملح بحرا ، والشق الذى يجرى فيه الماء العذب نهرا وقد بين علماء تخطيط الأرض بحارها وأنهارها فليراجع ذلك من أراد معرفتها.

ولكنى هنا أبين لك الحكمة فى أن جعل الله ثلاثة أخماس الأرض بحارا ملحة ، وخمسين منها يبسا وأنهارا . تعلم أن الله تعالى جعل الماء الملح أجاجا وخلقه ينفع الناس مدة بقاء هذا الكون ، فلو جعله عذبا لأسن وتعفن فأفسد الهواء بعفونته وأهلك العالم أجمع ، فجعله ملحا حفظا للماء وطهارة للهواء . أما الأنهار العذبة فإنه سبحانه جعل منابعها من أعلى شواهق الجبال وأجراها سبحانه منها إلى منبسط من الأرض إلى إن تصب فى البحار الملحة بعد أن تنفع الأنواع كلها.

وهنا أبين لك مذاهب الناس فى البحار والنهار : قال بعضهم : أن الشمس تبخر طبقة كثيفة من ماء البحار فى الأقطار التى تمسها بحسب تغير فصول السنة فترتفع إلى الأفق إلى أن تصل إلى درجة الزمهرير فتتجمد وتحملها الرياح بتقدير الله تعالى ، ثم تسقط بها إلى أن تصل قرب الأرض فتتفرق وتصب عليها وتنزل سيولا إلى الأنهار وقال بعضهم : أنه ينزل من السماء كما أخبرنا الله تعالى.

وكلا القولين يقيمان الحجة على عجائب القدرة ، وعلى حسن تدبير الله وإكرامه لخلقه ، فإن الذى خلق الشمس التى تبخر الماء ، وجعل الماء يتبخر بحرارة الشمس فيخرج عذبا نقيا ، وخلق الهواء الذى يحمل تلك القطرات الى حيث شدة البرودة فتتجمد وتكون سحابا ، أى مسحوبا بقدرة الله ورحمته إلى الأماكن التى قدر الله أن ينفعها به ، والله تعالى هو الذى جعل تلك السحب إذا قربت من الأرض ذابت ونزلت قطرات لنفع الخلق ، لنه لو أنزلها كمرات كبيرة لهدمت المنازل ، وخمدت الأرض ، وأهلكت الزرع والضرع والحرث والنسل.

وكل تلك الآيات دلائل حق على أن الله واحد أحد فرد صمد غنى عن العلة والغرض ، وسعت رحمته كل شيء ، ولو أن العالم أجمع كان أشر من إبليس وأضر من الوحوش الكاسرة لما منع عنه تلك الرحمة وهذا الفضل، لأنه رب تعالى . خلق الخلق لا لحاجة إليهم ، ومنحهم فضله وجوده وبره لا لعبادة تقربوا بها إليه قبل وجودهم فى هذا الكون ، ولكنه محسن كريم حليم شكور.

وهذا الرب القوى القادر الخلاق الرزق قادر أن ينزل تلك الأمطار من السماء مباشرة ، ولكنى أرى أن وجود البحار الملحة العظيمة فيه أسرار عظيمة وحكم عالية وأن كان لها حكم أخرى فى حفظ الأرض من أن تميد بنا حث قابلت الجبال ، إلا أنها يكون وجودها عبثا إذا لم يكن فى إيجادها وأبداها أسرار غامضة تحير أكمل العقول فيما ينفع الناس ويكمل به إيمان المؤمنين.

وتنزه الله تعالى عن العبث . فإذا أنكشف لنا حكمة إيجادها والسر فى إبداعها من حيث نفع الخلق بها لكان ذلك أقوى لإيماننا وأقرب إلى كمال يقيننا ، لأننا كلما أنكشف لنا حكمة من حكم الكون وتحققنا عجزنا عن إدراك الحقائق المحيطة بهذا الكون ، نكون أعظم عجزا عن أدراك غيب الغيب المصون ، فسبحان من حير أكمل العقول فى بدائع إبداع صنعه ، وفى على آياته الجلية للعقول تنزه وتعالى.

ولنا أن نقول : **"وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ"**

أى من المكان العالى عنا ، لأن السماء كل عال من السمو ويكون للعقل فى هذا الفهم سياحة تكشف له ما به يطمئن القلب ، فإن القادر القوى المتين يخلق ما يشاء من غير شيء ، ويخلق ما يشاء من شيء هو سبب له ، وإنما الذى نخشاه هو وقوف أهل الجهالة عند الأسباب وقوفا يجعلهم يرتدون إلى أسفل سافلين الطبيعة ، فتحجبهم الأسباب عن واضعها مثل الملحدون الجاحدون.

وأن جهنم لمحيطة بالكافرين قال تعالى : **"مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"**[1] وقد علمت فيما تقدم الأسباب الى وضعها الله لجريان الفلك فى البحر.

([1]) سورة الكهف آية : 17.

وقوله تعالى : "بما ينفع الناس" يعنى أنه سبحانه وتعالى أمد الإنسان بكل كائن فى السماء وطبقاتها وأجوائها ، وفى الأرض وأرجائها ، وفى الرياح ومهابها ، وفى الأفلاك ومداراتها ، فما من ذرة فى العالم من علوه إلى أسفله ، بل من العرش إلى الفرش إلا وفيها خواص لنفع العالم ، والكون كله مسخر لمصالح الناس.
قال سبحانه **"وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ"**[1] فسبحانه الغنى عمن سواه ، الذى أغدق نعمه وفضله وجوده بالإحسان على جميع خلقه ، فهو الرزاق اللطيف الرحيم بالدودة فى جوف الحجر ، وهو الرزاق الكريم الحفيظ بالمسندل "حيوان يعيش فى جوف النار" وهو العطوف الرءوف بالأسماك فى جوف المحيط الشمالى والجنوبى اللذين يتجمدان أكثر العام ، فيجرى لها تيارات حارة تحت الثلج ، ويخلق لها نباتات فوق أرض البحار رحمة بها وحفظا لها وتيسيرا لقوتها.
قال سبحانه **"وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا"** [2] كل هذه الحقائق تنكشف للنفوس الزكية حتى ترتسم على جواهرها ، فتشهد بعيون الأرواح جمال الخلاق العظيم الواسع الكريم ، الذى سبقت رحمته غضبه.
فقوله : "بما ينفع الناس" والناس منهم المؤمن والكافر فللكافر نفع بالمدة لنيل السادة الفانية ، لأن الله تعالى يمنحه وسعة الرزق بقدر جهوده ، وللمؤمنين نفع فوق هذا النفع ، فإنهم ينتفعون بما ينتفع به الكافر لوجوب السعى عليهم بقوله تعالى : **"فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ"**[3] ويزيدهم الله شهودا بعيون الإيمان لما أودعه من معانى صفاته العلية فى الكائنات.حيث تحجب أنوار معانى الصفات تلك الآثار والكائنات ، ويظهر نور الخلاق الرزاق المعطى الوهاب الموفق القريب المجيب ، بل تظهر معانى صفات أسماء الجمال والجلال بحسب ما يتوالى عليهم مما يلائمهم أولا يلائمهم ، فسبحان من خلق الإنسان وخلق له جميع الكائنات ليعبده فى يجحده ، ويشكره فى يكفره ، ويطيعه فلا يعصاه ، ويذكره فلا ينساه.
فمن وفقه اله لهذا فقد أتم عليه نعمته ، وجمله بأخلاقه ، ومنحه الملك الكبير : **"يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ"**[4] ومن أضله الله ،وعن الفوز بهذا الخير أقصاه ، وقف عند الأسباب فبحث ، حتى وقف عقله خاسئا وحسيرا ،وزعم لجهله أنه أدرك الحقائق ، والله تعالى يقول : **"مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ"**[5] ويقول سبحانه : **"يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ"**[6] فليفرح بفضل الله وبرحمته من نفعه الله بما نفع به أنبياءه ورسله والشهداء والصالحين ولينظر إلى نعمة الله عليه فى إقامته فى محابه ومراضيه، وليدوم الشكر إذا رأى إنسانا نظيره جاحدا لا حدا ضالا مضلا ، يحكم بهواه وعماه حكما باطلا على الحقائق ، منكرا أن لهذا الكون العجيب ربا حكيما مدبرا . نسأل الله أن يحفظ لنا إيماننا ، وأن يديم لنا شهودنا بحفظه وعنايته.

قوله تعالى "وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ"
قد بينا تأويل إنزال الماء من السماء ، ولكنى هنا أتكلم مع أهل الإيمان الذين جعل الله لهم نورا فى قلوبهم . أسند الله إنزال الماء من السماء إليه سبحانه ،ليكشف لك الحجاب عن حقيقة يكمل بها يقين العبد عند انبلاجها له.
وهى أنه سبحانه إذا أسند إليه إيجاد خير للعالم يكون ذلك الخير كخيرات الجنة ، ليس لنا فيه عمل ولا ف تحصيله جهود ، كالماء المنزل من السماء ، والرياح التى بها حياة العالم ، وكالشمس التى لولاها لهلك الخلق وكوجود الأرض التى مدها الله ومهدها للإنسان لينتفع بها فى حياته ، وكوجود التراب بها قابلا للزرع ، وغير ذلك ، وأن كان ما يناله الإنسان بالجهود كالمصنوعات من المعادن والأخشاب والخام فإن ذلك خلقه لنا ليقيمنا عمالا له فى أرضه ، وخلفاء عنه فى ملكه ، فكان إنزال الماء من السماء يذكرنا بالجنة كما قال صلى الله عليه

---

(1) سورة الجاثية آية : 13.
(2) سورة النحل آية : 18.
(3) سورة الملك آية : 15.
(4) سورة الشعراء آية : 88.
(5) سورة الكهف: 51.
(6) سورة الرحمن آية : 33.

وسلم : "سيحون وجيحون والذيل والفرات من الجنة" وعلى ذلك فالأنهار والبحار من الجنة . ومعنى كونها مع الجنة يعنى أن الإنسان ليس له فى تحصيلها عمل ولا بذل مجهود مع أنها أشد ضروريات الإنسان.

قوله تعالى **"فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا"**

الحياة أنواع : منها حياة المعادن وحياة النباتات ، وحياة الحيوانات ، وحياة الأناس ، وكل حياة بنسبتها إلى النوع الحى ، فالماء المنزل من السماء يحى كل تلك الأنواع : "وفيه إشارة للعقول أن هذا الماء المنزل من السماء أحيا الله به موات كل تلك الأنواع".

فإذا أفنى الله من على وجه الأرض أعاد حياة الأناس بماء ينزله من السماء قد بينته فى كتاب : "النشأة الثانية" فراجعه ، ويكون هذا سببا فى أحياء بنى آدم للبعث والنشور ، وفى هذا الوقت يكون الجمال الآلهى الصرف قد غمر من سبقت لهم الحسنى ، ويكون الجلال والقهر قد أوبق أهل الكفر بالله . أقول لك الجمال الصرف لأن جماله سبحانه فى هذه الدار الدنيا مشوب بالجلال.

وفى قوله : "بعد موتها" إشارة إلى الجدب والزلازل وغيرها ، وفيه إشارة إلى إحياء القلوب ببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وإقامة ورثتم الذين كانت ساعة واحدة من رجل منهم خير من أربعين سنة مطرا ، لأن الناس لو فقهوا أن الأمطار تحى النباتات والحيوانات والجمادات . وأما لفقهوا أن الماء الذى ينزله الله من سماء القلوب إلى أرض القلوب وأنه يحيى النفوس فيزكيها ، والأرواح فيخلصها من سجن الهياكل ، ويحيى العقول فيشهدها جمال آيات الله فى الكائنات ، ويحيى الأجسام فيقيمها فى محابه ومراضيه.

وبذلك تملأ الأرض قسطا وعدلا بعد أن كانت ملئت ظلما وجورا وشتان بين نور الشمس الذى يبين تلك الآثار المادية ، وبين نور الله تعالى الذى يسطع من القلوب العامرة به ، فيبين جمال الله ، ويشهد عجائب بديع آياته ، فيكون العبد المشاهد فرحا بفضل الله تعالى ورحمته ، أو حاضرا مع الله تعالى أو عنده أو لدنه ، أو آنسا بالفناء به سبحانه عما سواه.

وقد جعل الله تلك الحقيقة المحسوسة الملموسة التى هى إنزال الماء من السماء مثالا لما ينزل سبحانه : من سماء فضله على من يشاء من رسله لتحيا به القلوب فتشرق بأنوار علام الغيوب قال سبحانه **"أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ"**[1] وأن شاء الله تعالى نبين ذلك بعد.

قوله تعالى **"وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ"**

يظهر للعقول سبحانه ما ستره عنها الحس بوقوفه عنه منفعة الأشباح، حاجبا الأرواح عن أن ترى آيات الله بتوفيقه لها فيما أبدعه لنفع الحس والجسم ، ولتحصيل الروح مزيد العلم بالله بشهود ما فى تلك الأنواع ، يقول سبحانه : **"وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ"** أى فرق فى الأرض أنواعا كثيرة من الدواب.

وهنا غلب ما يدب فى الأرض على ما يطير فى الجو ، وأن مراد الله تعالى فى هذه الآية وهو أعلم ، أن يمن علينا بما خلقه لأجلنا من الحيوانات التى تدب على الأرض ، أو تسبح فى البحار ، أو تطير فى الأجواء ، كما تقول النيران للشمس والقمر ، والعمران لأبى بكر وعمر ضى الله عنهما . وقد بينت فى كتبا : "شراب الأرواح" بعض عجائب القدرة المودعة فى بعض الحيوانات.

وأكمل العجائب المحيرة للعقول القاصمة لظهور الملحدين ما فى الإنسان من الآيات التى جمعت فيه العالم الأكبر ، لأنك تراه وهو العالم الوسط الذى جمع الله فيه معانى صفاته كلها ، فوهب له عقلا يفتح به كنوز الأرض فيستخرج منها ما أودعه الله فيها من أنواع المعادن ، وكنوز النباتات ويستخرج منها ما ينال به السعادة فى الدنيا من حفظ الصحة وأعادتها بعد فقدها وكنوز الأجواء والأرجاء فيتحصل منها على تيسير المواصلات ، وسخر لك شيء من الكون لهذا العقل فيقهر به أنواع الحقائق لينتفع بها فى نيل السعادة الكونية.

([1]) سورة الرعد آية : 17.

وجعل تلك السعادة الكونية ميسرة لكل من استعمل عقله وكد نفسه فى أى نوع من أنواع العمال الكونية ، من صناعات ومخترعات وتجارات وزراعات وطب وبيطرة وفنون ضرورية للمجتمع وأعان هذا العقل بأعضاء تنفذ له ما يتصوره نافعا.

فلا ترى خيرا وسعادة وعمرانا ومدنية وأمنا وعافية ورخاء إلا الإنسان سببه إذا عمل مستمدا من الله القوة والعون ، شاكرا له أنعمه ومتابعا لرسول الله ε ، عاملا بهدى السلف الصالح ، لأن الإنسان خليفة ربه فى أرضه ، ولا ترى خرابا ودمارا ووباء وزلزالا وصواعق وإبادة ألا والإنسان سببها إذا نسى ربه واليوم الآخر ، وآثر نفسه على من يجب عليه أن يحب له ما يحب لنفسه ، لأن الحق جل جلاله الذى أقامه خليفة عنه فى أرضه بشره بالوعد وأنذره بالوعيد فالإنسان هو آية الآيات.

ولا ترى على الأرض من قام يحارب ربه وينسى نفسه إلا الإنسان فهو شر من إبليس ، ولا ترى من إذا هم للضر أضر مجتمعا كالإنسان فهو أضر من النار المسعرة ومن الوحوش الكاسرة ، بل ولا ترى من يقربه الله فيتقرب إليه حتى يسمع كلامه كفاحا ويرى جماله عيانا إلا الإنسان فهو خير من الملائكة ، وأفضل من الأرواح الهائمة فى جلال الله ، فان شئت أن ترى مدعيا الألوهية بالباطل طالبا من أمثاله اتخاذه ربا بالبهتان فلا ترى إلا الإنسان ، ولا ترى متخلفا بأخلاق الله قائما مقام ربه فى محابه ومراضيه إلا الإنسان.

وهذا الإنسان الذى قال الله تعالى فيه " **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**"[1] وصدق الله العظيم ، فإن الإنسان يخرج من بطن أمه لا يتصور ولا يحكم على شىء ، بل هو كالنبات الذى يتغذى وينمو إلى أن يستوى ، فيخرج العادات بذكائه وفطنته وتحصيله العلوم ، بخلاف الأنواع الحية من بطون أمهاتها ملهمة علم كل ضرورياتها وكمالياتها فلا تزداد باستوائها علما بل تزداد قوة . قال رسول الله ε : "من عرف نفسه فقد عرف ربه" وقال تعالى : "**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**"[2] فما فرق الله فى الأرض من الدواب وسخرها للإنسان دليل على أن الإنسان هو الذى خلقه الله لعبادته وخلق لأجله جميع خلقه.

وقد شرح بعض العلماء العبادة أنها هى المعرفة والعمل بمقتضاها، لأن الإنسان متى عرف نفسه بما جمله الله به من معانى صفاته ، وبما أظهره له من نشأته الكونية التى هى النطفة الجارية فى مجرى البول مرتين ، ثم صوره جل جلاله فى الرحم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ثم كسا العظام لحما ثم أنشأه خلق آخر مجردا من كل إدراك وشعور وعلم ، كأنه نبات يأكل ويشرب من لبان أمه ، وينمو ويتحرك من غير إرادة وشعور ، ثم سخر له الكون ، ثم أقامه خليفة عنه ، ثم اصطفى من شاء فرفعه عن ملائكته وعن حملة عرشه كما قال تعالى: "**وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ**"[3] ورد من شاء فجعله أسفل من الشياطين، قال تعالى: "**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**"[4] خلق الإنسان على صورة الرحمن.

ورفع من أحبهم إلى أن أجلسهم على منابر من نور قدام عرش الرحمن ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يفزعون إذا فزع الناس ، لا يردون نارا ، ولا يرون صراطا فى الآخرة ولا يشعرون بحسيس جهنم ، بل يجعل الله لهم أجنحة من نور يطيرون بها إلى ربهم ليظهر كماله وفضله وإحسانه ونزاهته عن العلة والغرض ، وغناه عن العبادة والتقوى.

وأرسل لقوم ممن سجل عليهم سوء القضاء زبانية جهنم يسوقونهم بمقامع من حديد حتى يكبونهم فى النار على وجوهم ، ليظهر كمال قهره وعزة ربوبيته جزاء لمن كفر بإنعامه.

هذا رذاذ مما أودعه الله تعالى فى الإنسان من الآيات التى تدركها العقول السليمة من الهوى . أما ما فيه من القوى الظاهرة والباطنة التى تسمى قوى النفس ، فقد زعم الخراصون الذين بحثوا فى العلوم الطبيعية بقوة الهوى والحظ أن النفوس فى الهيكل الإنسان ثلاثة : الحس والجسم والنفس.

([1]) سورة النحل آية 78.

(2) سورة الذاريات آية : 20-21.

([3]) سورة محمد آية 35.

(4) سورة النساء آية : 145.

وكذبوا ، لأن النفوس لو كانت ثلاثة وفقد الحس بالنوم أو بالإغماء أو بضياع قوة من قواه المركزية كالسمع والبصر أو الشم أو الذوق لفقدت النفوس كلها ، أو فقد الجسم أطرافه بالبتر لفقدت النفوس كلها. وأنا لنرى الإنسان يفقد حسه بالنوم أو بالإغماء أو بمرض عضال وهو حى يرزق.
والحقيقة أن النفس واحدة ولها ثلاث قوى ولكل قوة منها أعمال خاصة ، وقد بينت ذلك بالتفصيل فى كتاب : "معارج المقربين"(3) وكتاب: "النور المبين"(4) ، وكتاب : "تذكرة المرشدين والسترشدين".
وهنا ألمع إليك بسر عجيب وسع السموات والأرض ولم يتجاوز شبرا فى شبر ، وهو الوجه والرأس ، فتجد فى الوجه آلات السمع والبصر والشم والذوق والنطق التى بها أدراك الحقائق الكونية ، وتجد فى الرأس قوة الخيال والوهم والإدراك والحافظة والمخيلة والحاكمة ، فسبحان من جمع فى هذا العضو الصغير ما جعل الإنسان عالما كبيرا ينطوى فيه العالم الأكبر.
أما ما عدا تلك الأسرار من سر الغيب المصون فلا يكون إلا بعد تزكية النفس وصفائها حتى ترسم عليها آيات تلك الحقائق العلوية والسفلية التى بها يعرف الإنسان نفسه فيعرف ربه ، وبها تحصل البهجة والأنس للنفس باستجلاء معانى الصفات العلية ، فلنمسك اللسان عن هذه الغيب المصون حتى يعلمه الله تعالى أهل التقوى من خاصة عباده الصالحين بالهام منه سبحانه ، أو بإقامة مرشد عارف به يبين للسالكين بعد المجاهدة أنوار المراقبة فالمشاهدة.
قال تعالى : **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ "**[1] وكفى أهل العلم شرفا قوله الله تعالى : **"إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"**[2] برفع لفظة العلماء أو بنصبها فتكون : "إنما يخشى الله" بالرفع "من عباده العلماء" بالفتح لأن العلماء مفعول به ، ولما كان من الخشية التعظيم فيكون تأويل الآية إنما يعظم الله من عباده العلماء.
أما باقي الأنواع الحية من الأرواح العاليات ، والملائكة عمار السموات، ومادونهم من الكائنات السابحات فى الأجواء والأرجاء ، ومن الحيوانات التى تدب على الأرض ، ومن النباتات التى تأكل وتشرب وتنمو وتعيش وتموت ، ومن المعادن التى تتربى فى طبقات الأرض ، ومن الأنواع التى لها حياة نسبية كالأفلاك والجبال والتلال والماء ، فقد كتب عنها العلماء من المنجمين ومن أهل الطب والبيطرة واليازرجة وعلماء الزراعة والفلاحة ، وعلماء الكيمياء وعلماء النفوس غير الإنسانية ، فلا نطيل الكلام فيها فى هذا المختصر.
ومن هداهم الله بسابق إرادته يصلون إلى الله تعالى – بعد الإيمان برسول الله ε والعمل بسنته – بالفكر فى أصغر ذرة من ذرات الكون قال العربي : "البعرة تدل على البعير" ومن أضلهم الله تعالى فإنهم لا يصلون إلى الله ولو كانوا في حضانة نوح والخيل والكليم عليهم السلام . قال سبحانه: **"مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"**[3] وقد رأيت بعيني رأسي دودة في حجر حولها رطوبة ماء وخضرة نبات ، فسبحان الله اللطيف الخبير الحكيم العليم.

قوله تعالى **"وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"**
الرياح جمع ريح ، وأسمه مأخوذ من الروح لأنه حياة العالم أجمع فهو كأنه روح الروح المادي ، لأنه لو فقد نفسا لفقد كل حي ، وقد وارد الريح فى القرآن المجيد بلفظ الجمع ولفظ الأفراد ، وبعض العلماء يرى أن لفظة الريح بـ(ال) تكون فيه (ال) للجنس فيكون بمعنى الرياح ، وبعضهم يفهم أن لفظة الريح بالأفراد تدل على ريح مخصوصة وهى الريح العقيم التى تضر ولا تنفع.ولفظة الرياح تدل على الرياح النافعة للعالم : قال تعالى: **"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ"**[4] وقال تعالى : **"إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ"**[5] وقال ε : "اللهم اجعلنا رياحا ولا تجعلها ريحا" عندما كان يرى هبوب الريح . وفى قوله تعالى : "وتصريف الرياح" يقظة لأهل القلوب

([1]) سورة البقرة آية : 282.
(2) سورة فاطر آية : 28.
(3) سورة الكهف آية : 17.
(4) سورة الروم آية : 46.
(5) سورة الذرايات آية : 41.

المطمئنة ، وسبحان المعطى الوهاب الفتاح العليم القائل سبحانه : **"وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ"**[1] والقائل جل جلاله **"وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ"**[2].

قوله تعالى : "وتصريف الرياح" يقظة لأهل القلوب المطمئنة بذكر الله تعالى ، فإن تصريف الرياح وتغيرها بأن تكون شمالية أو جنوبية أو صبا أو دبورا – وفى هذا التصريف ، المنافع العامة لمصالح العالم أجمع ، وهناك تيارات دورية وهو التيار الذي يأتي من جهة القطب الشمالي فيمر على نصف الأرض الشمال حتى يصل إلى خط الاستواء الى القطب الشمال حيث المنطقة الثلجية ، فيثقل وينزل إلى الأرض حارا فيحيا به ما هنالك من الحيوانات والنباتات والأناس فى هذا الأفق المتجمد ، ثم يأتي باردا إلى البحر المتوسط مارا على البحر الأسود فبحر بلطيق ويمر على شمال أفريقيا محملا بالبرودة التى اكتسبها من الشمال ، ويمر على خط الاستواء كما تقدم ، وهذا التيار الدوري دائم المرور من خط الاستواء إلى القطب الشمالى ومنه إلى خط الاستواء.
وهناك تيار دورى أيضاً ، يأتى من القطب الجنوبى إلى خط الاستواء فيتبخر هناك بحرارته الشديدة ، ويرتفع إلى الأفق الأعلى ثم يميل إلى الجنوب لنفع العالم عند القطب الجنوبى وهكذا يفعل كما يفعل التيار الشمالى.
وهناك رياح تسمى الرياح الموسمية ، وتلك الرياح تتولد من مصادمة تلك التيارات الدورية بالجبال الشاهقة فيتغير مجراها ، فقسم منها بانفعال المصادمة ينصرف إلى الغرب ، وقسم ينصرف إلى الشرق ، وقد تتغير تلك التيارات بتغير الظواهر الجوية من حرارة شديدة إلى برودة شديدة فيثقل تيار من التيارين ، فيحصل اصطدام الهواء بعضه ببعض فتتولد منه الزوابع التى تقتلع النباتات وتغرق السفن وقد تهدم البيوت بشدة تصادمها وضغطها.
وتلك الرياح المختلفة فى التى تلقح النباتات فتأتى بذكور النباتات إلى إناثها كما قال تعالى : **"وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ"**[3] ، وقد تنقل تلك الزوابع بذور نباتات إلى بلاد لم تكن فيها تلك النباتات ، وفى كل ذلك من تطهير الهواء فى الآفاق ، ونقائه من الأوساخ والكائنات الصغيرة السامة كالذباب والناموس وما دونه من البعوض ولولا ذلك التصريف لفقد أكثر الناس صحتهم.

وفى هذا التصريف حجة قاصمة لظهور الملحدين ، لأن هذا النظام والترتيب لا يكون عبثا ولا لغير حكمة ، لكنه بقدرة وإرادة ومشيئة ، يريد فاعله سبحانه أن ينفع خلقه جميعا بهذا التصريف ن ولو نظر أهل القلوب العامرة بنور الله تعالى ألى تصريف الهواء فى يوم واحد لشهدوا جمال الله تعالى فى كل نفس من أنفاسهم ، ولعجزوا عن شكر الله تعالى لإنعامه عليهم ، فسبحان مصرف الرياح الذى أودع فيها فضله وإحسانه وإمداده لخلقه.

ولو أن الله أمسك الهواء أن ينصرف حتى فقد من إفق من الآفاق لما وجد على ظهرها دابة بل ولا نبات ، ولو أنك حبست الهواء عن الحيوان لمات فورا ، أو عن النبات لذبل وفقد حياته قال تعالى : **"وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ"** ولو فى نوع واحد من أنواع العناصر من نعمة **"لَا تُحْصُوهَا"**[4] فكيف يمكن لبنى الإنسان أن يحصوا نعمه فى كل خلقه من العرش إلى الفرش بالنسبة لنا ؟ وإذا عجزنا عن حصر نعمه فى الهواء فكيف يمكننا أن نقدره سبحانه حق قدره أو نحيط به علما ؟ فسبحان من أعجز العقول عن علم آياته فى مكوناته ، وأعجز الأرواح من علم حقيقة أسمائه وصفاته ، وتنزه وتعالى على أن تحوم الأرواح العاليات حوالى قدس عظمته وكبريائه . قال تعالى: **"فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ تُفُوتٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ"**[5].

---

(1) سورة يوسف آية : 76.
(2) سورة ق آية : 35.
([3]) سورة الحجر آية 22.
([4]) سورة النحل آية : 18.
(5) سورة الملك آية : 3 – 4.

قوله تعالى"**وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**"
تقدم أن بينت لك فى قوله تعالى : "**وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ**" معنى السحاب وكيف يكون إنزال الماء من السماء – وهنا أزيدك علما أن السحب يعنى المسحوب الذى تسحبه قدرة الله تعالى إلى حيث شاء الله أن ينزل ماءه ، فالسحاب مسخر للإنسان ولكن ليس للإنسان حكم على فضل الله تعالى ، وقد يمنع الله السحاب عن قوم حتى يحصل الجدب فيهلك الحرث والنسل والزرع والضرع ، وقد ينزله سبحانه على سواحل الأنهار لمن لا حاجة لهم إليه ، وقد ينزله تنزه وتعالى على قوم فيهلكهم به ويصير عليهم عذابا من الغرق كما يحصل فى بلاد أوربا ، وقد يمنعه عن أهل الحاجة إليه مع شدة الضرورة فيحصل لهم الجدب وله فى ذلك حكمة عالية تنادى بأفصح عبارة : "**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**"[1] وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ويمنعه عمن يشاء.
وهذا هو سر التسخير – منحنا الله الآدب مع المنعم جلا جلاله – لأن الله تعالى يقول : "**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ**"[2] لا لأننا نستحق ذلك بعمل أو بخصوصية فينا ، بل هذا التسخير بفضل الله وإرادته وقدرته لا معقب لحكمه ، وإنما يكون هذا الخبر العظيم نافعا فى الدنيا والآخرة لمن كشف الله عنهم الحجاب فشهدوا معانى صفاته فى آياته ، وانتفعوا بنعمه فى مرضاته.
وأما من بدلوا نعمة الله كفراً فتكون تلك النعم عليهم نقما فى الدنيا بالمنافسة فى نيلها ، وبالحروب التى تبيد العالم حرصا على تحصيلها ، وتكون يوم القيامة عذابا أليما على من استعملها فى غضب الله تعالى ، فهى نعم فى الحقيقة ونفس الأمر ولكن المنعم الوهاب لا يسأل عما يفعل.
ومن حرص على النعمة وجهل المنعم وغفل عنه كانت عليه نقمه ،ومن عرف المنعم بالنعمة فاستعملها فى محابه ومراضيه وشكره عليها كانت مسرة له فى الدنيا ونال بها الملك الكبير يوم القيامة.
وفى قوله تعالى : "المسخر بين السماء والأرض" إشارة إلى أن عمار السموات لا يحتاجون لماء ولا سحاب ، وقوتهم التسبيح والتهليل والتمجيد ، قال تعالى : "**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**"[3] وفى الآية دليل على أن المطر ينزل من السحاب.
قوله تعالى "**لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**"
أى لدلائل على صحة التوحيد ، وعلى تفريد الله بالألوهية دون غيره ، وعلى وجوب الشكر علينا له ، وعلى اعترافنا بالعجز عن أن ننال بحولنا وقوتنا ما ينفعنا إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ، وبرهان جلى للعقول التى لم يعمها الهوى عن أن الفاعل المختار هو الله ، وعن أن كل شىء فى الوجود من مادة قطعت أهلها ، وأنواع نباتية وحيوانية ومعادن أبعدت الواقف عندها بل ومن أعضائنا المجترحة ، كل ذلك بقوة الله تعالى وقدرته وإرادته ، فلا فاعل فى الوجود غيره.
وإنما وضع الأسباب ليتعرف بها إلى خلقه ليعرفوه ، وليشهد جماله العلى أهل العقول التى تعقل عنه . لأنه عظيم عن أن يعلم أو يدرك فأظهر معانى صفاته فى الكائنات لتستحضره القلوب الموقنة ، والنفوس الزكية ، والأرواح المجردة من ملابسة الحظ والهوى.
قوله تعالى : "لقوم يعقلون" أى لمن وهب الله له العقل الذى يعقل عنه ، فتلك الآيات التى بين الله بها آثار رحمته فى الكون حجج جاذبة لقلوب أهل العقول الكاملة ، وحجج الله على أهل البعد تقوم عليهم يوم القيامة ليظهر عدله فيهم وفضله على من اجتباهم.
وقد اختلف العلماء فى العقل اختلافا كثيرا ، وهو من الحقائق التى لا تعرف إلا بآثارها كالكهرباء وكالشيطان وكالنفس ، فإن الإنسان لا يعلم منها إلا آثارها، فإذا وقع الإنسان فى معصية قال : لعنة الله على الشيطان ، وإذا وفق لعمل نافع قال الناس : هذا لرجاحة عقله وإذا رأوا عملا يعجز كثيرا قولوا : قوة الكهرباء.
والذى استحسنه هو أن العقل نور من الله تعالى بجعله فى قلب الإنسان يتصل شعاعه برأسه ، قال تعالى : "**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا**" أى عقلا يعقل عن الله "**فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**"[1] وقد حرم أهل الدنيا بهجة الأرواح ومسراتها فلم

([1]) سورة يوسف آية : 67.
(2) سورة الجاثية آية 13 .
([3]) سورة التحريم آية : 6.

يروا إلا ما يلائم أجسامهم من المادة من مأكل شهى ، وملبس بهى ، وفراش وطى ، ومنكح رضى ، وهذه هى السعادات كلها عندهم.
ولو تفكروا لرأوا أن تلك السعادات بأكمل معانيها قد فازت بها البهائم بأكثر مما فاز بها الإنسان ، فإن الديك متمتع من حيث الوقوع بما لا يتمتع به الإنسان ، والطاووس من حيث اللباس بما لا يتمتع به الإنسان ، والخنزير من حيث الطعام بأشهى مما يتمتع به الإنسان ، والوحوش من حيث نفوذ الكلمة والقهر متمتعة بأعظم مما يتمتع به الإنسان ، وما بقى للإنسان من سعادات إلا السعادات الروحانية فإذا فقدها كان كالأنعام بل أضل ، قال تعالى : **"وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ"**[2] فحظر على أهل الجهل به سبحانه أن يعقلوا عنه شيئا.

قوله تعالى : [**"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ"**](165).

بعد أن قرر سبحانه وتعالى دلائل التوحيد الملموسة ،وأقام البرهان على أن آله واحد منفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والقدرة والقوة والحكمة فهو الواحد الأحد القادر الحكيم العليم الخبير ، حتى أسجد العقول التى تعقل عنه سبحانه بهذا البيان ، حتى حكمت العقول بعد أن بلغت اليقين الحق بهذا البيان أن أحدا من الأناسي لا ينكر وجود الحق ولا تفريده بالكمال والجمال والبهاء والنور والضياء.
فبين الله لتلك العقول أن تسليمها له وإيمانها به نعمة فوق نعمة الدلالة، لأنه سبحانه وتعالى جعل لها نورا قابلا للفهم عن الله تعالى بما بينه لها من أن أكثر الأناس لم يتفضل الله تعالى عليهم بهذا النور ، لتعلم العقول التى تعقل عنه سبحانه أن الله أتم عليهم النعمة فتسارع إلى شكره ومحابه ومراضيه.

قوله تعالى **"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا"**
أتى بـ "من" التى تفيد التبعيض لحقارة أهل الكفر بالله وقتلهم فى الحقيقة مع كثرتهم فى الوجود الكونى ، لأنهم مع كثرتهم أقل عددا من أى نوع ن الأنواع الحية كالبعوض والجرذان ، فأنك ترى البيت فيه من تلك الأنواع ما يتجاوز الألف عدا وفيه من الأناسي بضعة أشخاص أما أهل الإيمان فالواحد منهم يوزن عند الله بكثير من الملائكة.
قوله تعالى : "الناس" يراد بهم المعلمون وهم أهل الكفر بالله والمنافقون الذين اتخذوا أهواءهم آلهة ، والمارقون من الدين كما يمرق السهم من القوس بما أشربوا فى قلوبهم من حب المال والجاه والرفعة والتمكين فى الأرض بغير الحق ، وهم الذين أخبر الله عنهم فى كتباه بقوله تعالى : **"أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ"**[3] الآية . فكل من تولى أعداء الله تعالى واستعان بهم على المؤمنين فهو داخل فى هذه الآية.
"من يتخذ من دون الله أندادا" الاتخاذ معلوم ، والند كما بينا فيما سبق هو المثل أو العدل المساوي ، وقد قال العلماء أن الأنداد هى الأوثان المعبودة من دون الله ، والأفلاك والبهائم كالعجل معبود المصريين القدماء والبقر معبود المجوس فى الهند والصين.
لكن يرد عليهم قوله تعالى : "يحبونهم" فإن الهاء والميم من ضمائر العقلاء ، فيكون التأويل أن الأنداد فى هذه الآية هم دعاة الضلالة من الملوك ومن دعاة الجهالة الذين يتمكنون من قلوب الناس بخبثهم وطلاقة ألسنتهم بالباطل إلى أن يتخذهم الناس أندادا مندون الله يقومون لهم بالطاعة العمياء ، ومن بذل الأموال لهم وتنفيذ كلمتهم وعقد يقومون لهم بالطاعة العمياء ، ومن بذل الأمور لهم وتنفيذ كلمتهم وعقد القلب على ما يلقون إليهم من

([1]) سورة النور آية : 40.
(2) سورة العنكبوت آية : 43.
([3]) سورة المائدة : 51.

الأباطيل المضلة والعقائد المفسدة فى التوحيد ، حتى يرون الحق فيهم فيميلون عما أنزل الله تعالى ، فقد تكرر فى القرآن المجيد التشنيع على عباد الأوثان وقصم ظهورهم بالحجة بعد الحجة.

قوله تعالى **"يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ"**
يعنى أنهم أن كانوا يعرفون الله تكون محبتهم لهم مساوية لمحبة الله تعالى ، وأن كانوا لا يعرفونه سبحانه فتكون محبتهم لهم كمحبة المؤمنين لله تعالى ، أو أنهم ينزلونهم فى منزلة الآله سبحانه وتعالى فى العقيدة والطاعة لهم .
وذكر تلك الآية بعد تقرير دلائل التوحيد مناسب جدا كما قال العربى : وبضدها تتميز الأشياء . . ليقوم المؤمنون بالشكر لله على ما تفضل به عليم ، وأنك لترى الإنسان الصحيح لا يشعر بالصحة حتى إذا مرضى تذكرها وحن إليها وتمناها.

قوله تعالى**"وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ "**
يكشف الله تعالى الحجاب عن القلوب التى جعل لها نورا فتشهد جمال الله ظاهرا فيما أظهره سبحانه فى هذا الكون من الحقائق التى أبدعها لخير الأنواع الحية ، وسخرها لبنى الإنسان ، فتتجلى لجواهر نفوسهم بعد رفع الحجاب معانى صفات الله تعالى ، فتتصور النفوس التى زكاها الله تعالى رسوم المعلوم بعد العلم.
فيكون هذا الجمال العلى معالم بين أعين قلوبهم لا يغيبون عنه ، فلا يمضى نفس أو لمحة أو لحظة إلا وتنبلج لهم حقائق تلك الآيات فتجذبهم بدافع المحبة إلى شهود الحق جلا جلاله ، حتى تبلغ المحبة مبلغ الغرام والهيام الذى يستغرق كلية من تفضل الله عليهم بهذا المشهد ، فيفرون إلى الله بالفناء عنهم وعما يحجبهم أو من يحجبهم كما حجب الذين قالوا : **"إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ"**[1] وهم الأنداد من دون الله ، وأهل الجهالة أطاعوهم نصرة للباطل على الحق كما يطيع بعض الهمج الرعاع زعماء السوء من غير بصيرة فيهلكونهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صناعا.
وهنا ألمع إليك ببيان رذاذ من غامض المحبة لأنها فوق أن تدرك حقيقتها العقول ، لأنها سر من أسرار الله وغيب من غيوبه سبحانه يتفضل بها على من سبقت لهم الحسنى ، وما تقول فى قوم قد أحبهم الله من الأزل لا لعمل عملوه ، ولا لقربة تقربوا بها إليه ، ولكن بمحض الفضل أظهرهم فى الكون أحبابا له ، وقال لهم افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم.
وانظر إلى أحوال أهل المحبة . أتى عزرائيل إلى الخليل يستأذنه فى قبض روحه فقال الخليل لعزرائيل : هل الخليل يميت خليله؟ فأوحى الله إلى عزرائيل قال له : وهل الخليل يكره لقاء خليله ؟ والله سبحانه ينادى الأمم بأسماء أنبيائهم فيقول : يا أمة ابراهيم ويا أمة موسى ويا أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، وينادى أهل المحبة بيا أوليائى.
والحجة فى ذلك قوله تعالى **"وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"**[2] فأمر الحبيب ε أن يصبر مع أحبابه سبحانه وتعالى ، وفى الحديث القدسي : "يا داود اطلبني عند المنكسر قلوبهم من أجلى".
وقد أنكر بعض العلماء محبة العبد لله ومحبة الله للعبد ، وقالوا أن المحبة إرادة وإرادة الحادث لا تتعلق بالقديم ، وأولوا المحبة بأنها الرغبة فى نيل عفو الله ومغفرته وإنعامه وإحسانه ، وأولوا محبة الله للعبد بتقدير الإحسان والفضل عليه ، وذلك بأن المحبة أبعد من أن تعرف وأعلى من أن توصف.
وماذا تقول فى سر بين العبد وبين ربه لا يطلع عليه غيره ؟ حتى قال بعض العارفين "من أدعى المحبة وأشار إليها كذب فى دعواه فإن الذين منحهم الله المحبة منه وتفضل عليهم بأن جعلهم يحبونه هم ضنائنه من خلقه، أن أظهرهم فى الكون غاروا على المحبة أن يشيروا إليها حتى تسلب عقولهم التى يعقلون بها عن الكون ، فتطيش

([1]) سورة الأحزاب آية : 67.
([2]) سورة الكهف آية : 28.

أحلامهم فيفنوا عن شهود وجودهم بوجود شودهم ، فيكونون من غير كون ويكون ربهم وطنهم كما قال تعالى : **"فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ"**[1] وقال تعالى : **"فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ"**[2].
وأنى أجارى العلماء فى تأويلهم هذا فأقول : المحبة إرادة ، فإرادة العبد الجنة والمغفرة والعفو هى محبة جمال الله تعالى ، وتعلق إرادة العبد بما فوق الآلاء والنعماء من الاستغراق فى جمال المنعم المتفضل هى محبة العبد لله تعالى ، وكذلك إرادة الله تعالى للعبد بالمال وبالأولاد ونفوذ الكلمة والرفعة هى رحمته.
وإرادة الله تعالى للعبد أن يمنحه معرفته ومشاهدة جمال آياته وفهم أسرار كتابه ، ورعايته الأدب معه سبحانه ، وتفريده بالألوهية واختصاصه بالعبادة هى محبة الله للعبد ، فثبت أن رحمة الله هى إسباغ نعم الكون ، وأن محبة الله تعالى هى إسباغ نعمة المكون الجاذبة إلى حضرته ، حتى تقع العين على العين فيرى محبوب الله تعالى غيب الغيب ببصره . قال صلى الله عليه وسلم بسند الإمام البخارى فى الحديث الطويل : "ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى يتكلم به" . . . الخ الحديث.
وسأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم قال : "يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : وما أعددت لها ؟ فقال : ما أعددت لها إلا حب الله ورسوله. فقال ε : المرء مع من أحب" فما فرح المسلمون بشىء أحب إليهم من هذا.

قوله تعالى**"وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ"** يقيم الله تعالى الحجة على أهل الكفر به سبحانه أنهم إنما أحبوا سادتهم وكبراءهم وأصنامهم اقتداء بآبائهم من غير بصيرة ، وتقليدا لمن سبقهم من غير برهان ولا حجة ، فهم أضل من البهائم لأنهم يحبون بأبصارهم وأسماعهم لا بعلم تتمثل به النفوس تلك الحقائق ، حتى يقوى هذا التمثيل فيكون شهودا للغيب بيقين حتى بقيام تلك الحجج والأدلة القوية.
قال على عليه السلام : "لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا" قال تعالى: **"كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ"**[3] أما الذين أمنوا وإزدادوا إيمانا فإنهم أحبو الله تعالى حبا أكسبهم رعاية الأدب معه سبحانه ، وبذل النفس والنفائس استجابة له جل جلاله.

فإن قال لنا قائل : أن أهل الكفر بالله يقتلون أنفسهم فى محبة من اتخذوهم أندادا من دون الله ، فهل المؤمنون يقتلون أنفسهم فى محبة الله ؟ فالجواب : أن أهل الكفر بالله يقتلون أنفسهم فى أقل من ذلك فى سبيل امرأة أو فخر ، ولكن المؤمنين يقتلون أنفسهم إذا أمرهم الله فى الجهاد ، ولهم مشهد على أنهم هم وأموالهم لله تعالى لا يعملون عملا إلا إذا أمرهم الله تعالى بعمله.
وكان بعض الرجال إذا أراد أن يعمل عملا سأل عنه القرآن فإن أذن له به فعل وإلا ترك ، فيقرأ القرآن مرة ومرتين حتى يظهر الحكم فى العمل أو يسأل من هو أعلم منه بذلك ، وليس قتل النفوس بأمر الله عند المؤمنين إلا الفوز برضوان الله الأكبر.
وما يعمله مجوس الهند وغيرهم من عباد غير الله تعالى من العناد فى العبادة والخدمة فذلك من عبادة أهل الجهالة الذين تسفلت أفسهم عن أن تساوى نفوس أهل الإيمان بالله.

وقى قوله تعالى : "أشد حبا لله" إشارة إلى تفاوت أهل الحب فإن قوله: "أشد حبا لله" بخلاف قوله شديد والحب فى الله ، فإن الصفة المشبهة تدل على حقيقة واحدة ، وأما اسم التفضيل وهو قوله : "أشد" ففيه التفاوت . وفى قوله : "لله" إشارة عالية إلى كمال الإخلاص فى عبادة الله تعالى ، فإن لو قال : أشد حبا للرحمن أو الرحيم أو المنعم لكان فى ذلك تعيين فى الحب.

([1]) سورة البقرة آية : 115.
(2) سورة الذاريات آية : 50.
([3]) سورة التكاثر آية : 5 – 6.

قوله تعالى"**وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ**"
بعد أن طمأن سبحانه قلوب المؤمنين بما تفضل به عليهم من نيلهم كمال معرفته التي جعلت جواهر نفوسهم تتصور رسوم الغيب المصون من معاني صفاته جلا جلاله الظاهرة في آياته ، القائمة حجة لتلك النفوس على شهود كمال أسمائه وجمالها وجلالها ، منحهم اليقين الذي يجعل اله معالم بين أعينهم لا يغيبون إذا غاب الغافلون.
وفى خبره سبحانه عن المؤمنين بتلك الآية دليل على أنه سبحانه وتعالى أشهدهم فى تلك الدار الدنيا حقائق الكائنات فضلا منه وإحسانا ، وأنه جلت ذاته سيمنحهم يوم القيامة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقد توعد سبحانه أهل الكفر بما أعده لهم من نكال العذاب
"**وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ**"
فـ "لو" هنا للمبالغة ليست على بابها لن "لو" حرف امتناع لامتناع وأتت هنا للمبالغة ،وفى قوله "يرى" بالياء إشارة إلى أن الخبر عن الذين ظلموا . والظلم هو الشرك ، والمعنى الذين ظلموا أنفسهم بشركهم ، قال تعالى: "**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**"[1] وقد يأتى الفعل المضارع بالتاء فيكون "ولو ترى"خطاب لرسول الله ε يرى المؤمنون حال الذين ظلموا يوم القيامة . "إذ يرون العذاب" أى يعقون فيه.
"**أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** "
الهمزة "أن" روايتان بالفتح والكسر ، فمن تأولها جوابا لـ "لو" قال أنها مقول لقول محذوف أى لقالوا . أو أنها مفعول لفعل محذوف تقديره لعلموا . ومن قال أن جواب "لو" محذوف أتى بها مفتوحة الهمزة ويكون التأويل يرون العذاب ، وأن القوة لله بحذف حرف العطف ، ويكون تقدير الجواب المحذوف لتحققوا صدق الله وصدق رسوله ε ولما اتخذوا أندادا من دون الله تعالى . وفى رواية : "ولو يرى الذين ظلموا" بضم الياء ويكون المعنى يرى الله الذين ظلموا وبأي قراءة قرأت فأنت مصيب.
"أن القوة لله" أتى بأن التوكيدية تقوية للخبر الذى يخبرنا الله تعالى به عن قول الكفار يوم القيامة عندما يرون العذاب ، والقوة هى القدرة على تنفيذ ما وعد الله المؤمنين وتوعد به الكافرين ، لأنه لو كان لله أندادا لكانت لهم بعض القوة ، ولو كانت لهم بعض القوى لنفعوا من عبدوهم فى الدنيا يوم القيامة.
ولكن الله تعالى يقول : و "**أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**" أى ليس ثم يوم القيامة من له قوة أو قدرة أن ينفع غيره أو يضره غيره الله تعالى وهذا لا يمنع من إثبات الشفاعة العظمى لرسول ε ، لأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والأولياء رضوان الله عنهم هم لله وبالله وهم الدعاة إلى كمال التوحيد.
وقد أخبرنا الله بقوله عنهم " **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ**"[2] ورسل الله وأولياؤه خصوصا خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه ، أخبرنا الله عنه أنه رءوف رحيم وأنه يكون شهيدا علينا ، فمن منحهم الله التوفيق فأطاعوا الله ورسوله لا يرضى رسول الله ε أن يراهم فى النار بعد قوله الله تعالى له : "**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**"[3].
"**وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ**" فهر لأهل الكفر به بعد أن بين دلائل التوحيد جلية للعقول بالآيات الظاهرة فى الكائنات ، وبعد أن بين تلك الآيات رسله عليهم السلام ، وبعد أن ذكرهم بتلك البينات أولياؤه بعد رسله ، وبعد تلك الحجج القوية يكفرون بالله ويتخذون له أندادا من دونه ويحاربونه سبحانه فى ذات رسله وأوليائه . لذلك كله استحقوا أن يخبرهم الله تعالى بأنه سبحانه شديد العذاب.
وهذه الآية أخوف ما يخافها أهل الإيمان لأنهم لا يأمنون جانب الله تعالى ، وفيها إشارة عليه خفية وهى أن شدة عذاب الله تعالى لأعدائه ليست كعذاب حضرة اسم الرب لأن عذاب الله تعالى يكون ظاهرا وباطنا.
أما ظاهرا فالام السعير والحطمة نعوذ بالله منها . وأما الباطن فحرمانهم من نعيم مقيم فى فردوس الله الأكبر ، وبعدهم عن الأنس بالله على بساط مؤانسته قام العرض ،وهذه هى نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة وحرمان الرضا من الله عن العبد أشد عذابا من نار جهنم.

([1]) سورة لقمان آية 13.
([2]) سورة الشورى آية : 22.
(3) سورة الضحى آية : 5.

وأن بعض المؤمنين يرد النار ليتطهر من ذنوبه ويخرجه الله منها بفضله ولكن نور الإيمان فى قلبه يحفظه من شدة عذاب الله ، أعاذنا الله تعالى بوجهه الجميل مما يوجب عذاب بالله الشديد.

قوله تعالى :[**"إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ"**](166).
بين الله تعالى أحوال أهل الكفر به يوم القيامة فافتتح الجملة باذ الدالة على المعنى وحالهم هذا يكون فى المستقبل يوم القيامة. والحكمة فى ذلك والله أعلم أن هذا الحال متحقق للكفار واقع عليهم بعد ، والأمر المتحقق فى حكم الذى وقع.
"إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا"
فالمتبعون هم إبليس والشياطين ودعاة الضلالة من الملوك ومن علماء السوء الذين يخدعون الناس فيفسدون عقائدهم ويوقعونهم فى مذاهب الضلال وآراء السوء ممن أضلهم الله على علم ومن يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا ، وتلك الآية أزعجت قلوب الدعاة إلى الله تعالى وجعلتهم يحرصون على طلب العلم النافع حتى يبلغوا مقدام اليقين.
و **"الَّذِينَ اتُّبِعُوا"** هم جهلة العامة اتباع كل ناعق ممن لم يقع بهم العلم على عين اليقين ، الذين أضلهم أهل النفوس الخبيثة ففارقوا جماعة المسلمين أو فارقوا الإسلام بإتباع الكفر وخالفوا العلماء المرشدين ، وهذه الآية بدل من قوله تعالى : "إذ يرون العذاب" يعنى أن الرؤساء والزعماء يتبرءون ممن اتبعهم على ما كانوا فيه من البطل من غير بصيرة ولا روية ، يتبرءون أن ينكرون نسبة العامة لهم وتعلقهم بهم ، ولك أن نقول : "وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ" فتكون من متعلقات شديد العذاب.
"وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ"
الواو هنا للحال والجملة حالية . ورؤيتهم العذاب معاينتهم له عند قربهم منه ، الأمر الذي ينبئ بوقوعهم فيه و **"الْأَسْبَابُ"** جمع سبب وهو الوصلة التى تنال بها بغيتك . والسبب لغة الحبل ، والأسباب هنا هى الروابط التى كانت تربطهم كأنواع العبادات التى كانوا يعبدون بها أندادهم كالأصنام والزعماء والرؤساء والكبراء ، وما كانوا يعتمدون عليه من الآراء المضلة والمذاهب المفسدة للعقائد.

ومن هؤلاء أهل الشعوذة الذين يخدعون العامة من الجهلاء ليخرجوا على الحق أو على أهل الحق ، أو ليفرقوا المجتمع الإسلامي أو بعضه لعلة نيل الرياسة والشهرة والسيادة والطمع فى جمع حطام الدنيا ، فيحتالون على نيل تلك المفاسد مرة بدعوى أنهم علماء أو أنهم أولياء ، أو أنهم يؤيدون ذا سلطان ولو كافرا بالله أو دولة كافرة كما يفعل قادة الأمة التى احتلها دول المطامع المستعمرون.

ولا يرون ذلك إلا عند ضعفاء الإيمان من الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وهم عن الآخرة هم غافلون ، فيزين لهم الشيطان أعمالهم وتقوى الوسوسة فى قلوبهم فيعتقدون إنهم على الحق ويزون أهل الحق على الباطل كما قال على عليه السلام : "ما أشجعهم على باطلهم" مخبرا عن الخوارج ، وكما قال عليه السلام : "الناس ثلاثة : عالم ربانى – ومتعلم على سبيل نجاة – وهمج رعاع إتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح" .
وهؤلاء من أهل الدنيا الذين نسوا الآخرة وأحبوا الحياة الدنيا وزينتها ، وكانت صلتهم فيها لنيل ما يلائمهم من الملاذ والشهوات ، وتنقطع عنهم تلك الأسباب يوم القيامة.

قوله تعالى : ["**وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**"](167).

يخبرنا الله تعالى عن قول الهمج الرعاع اتباع كل ناعق أنهم يوم القيامة يتبرأ منهم سادتهم وقادتهم وأول متبرئ هو إبليس أعاذنا الله من شره بقوله : "**إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ**"[1] ثم يليه من كفروا بالله ورسله ومن طلبوا الدنيا لعمل الآخرة . . . يقول أتباعهم يومئذ لو أن لنا كرة . ولو هنا لتمنى بمعنى ليت ، والكرة هى الرجوع إلى الدنيا ، يقال كر فلان على فلان أى رجع عليه أو إليه ولذلك نصب المضارع بفاء السببية لا تكون إلا بعد التمني.

"**فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ**"

أى ننكر عليهم ما يدعونه ونكذبهم ونخذلهم "**وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ**"[2] فقد بين الله تعالى كل البيان وقد بين رسله عليهم السلام بيانا لا يخفى على عقل سليم من الحظ والهوى . وقال عليه السلام : "الهوى أخو العمي" وفى هذه الآية وعيد يذيب قلوب من أمنوا جانب الله تعالى وانغمست نفوسهم فى قاذورات تلك الحياة الدنيا بنصرة أهل الضلال وبتأييد الظلمة والتودد إلى أعداء الله تعالى واتخاذهم أولياء أو بمحبتهم ، ومن يفعل ذلك ممن يدعى أنه مسلم فقد كفر وحرمت عليه نساؤه.

وهل بعد قوله تعالى : "**لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**"[3] حجة لقائل فمن أشرب قلبه حب أعداء الله من الكفار أو من الزنادقة أو من المدعين أنهم من أهل الحقيقة بالجهل والبهتان ممن خالفوا صريح الشريعة وأسقطوا أحكامها فإن هؤلاء جميعا هم الذين يشنع الله عليهم ويهددهم بتلك الآيات.

أما أولياء الله تعالى وأهل عنايته الذين وفقهم للتقوى وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فأنهم الأمناء على الشريعة العاملون بها ، المبينون لأسرارها وغوامضها ، المجددون لما أندرس من معالمها وآثارها بقولهما وعملهم وحالهم ، فإنهم ورثة الأنبياء وإبدال الرسل والصديقين من خيرة عبادة الله تعالى ، وهم المعنيون بقوله : "**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**"[4] وهم الذين أثنى الله عليهم فى أول تلك الآيات بقوله : "الآيات لقوم يعقلون" وبقوله فى أية آل عمران : "**لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**"[5].

"**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ**"

الجار والمجرور عن تأخير . والمعنى كما أراهم الله شديد العذاب وأراهم تبرؤ سادتهم وزعمائهم كذلك يريهم أعمالهم حسرات عليهم الخ. والأعمال التى يريهموها الله تعالى هى ما كانت تجب عليهم أن يعملوها من المسارعة لتأدية فرائض الله وسنن رسوله ε .

فإن رد علينا معترض بقوله ليست هذه أعمالهم ، فأجيبه بأن الأعمال الواجبة على شخص تكون كأنه عملها كما يقول لك شخص : هات غذائى ، فتقول : هذا غذاؤك ، ولم يكن أكله . أو تقول لعامل : هذا عملك ولم يعمل ، وكونه لم يعمله لم يخرجه عن وجوب القيام بعمله فكذلك هذا . وقال بعض العلماء – وعندى أن الحق "يريهم الله الأعمال الواجبة على شخص تكون كأنه عملها كما يقول لك شخص : هات كبرائهم وسادتهم وزعمائهم فى معصية الله ، ومن مخالفة الشريعة الغراء بنصرة زعماء السوء الذين يعملون لأنفسهم مخالفين للحق يريهم الله تلك الأعمال أى سوء الجزاء عليها وشديد العقاب ، حتى ورد أن الله سبحانه يرى الكافر فى النار بيته الذى أعده له فى الجنة لو أطاع الله ورسوله ، ويريه أن أهل التقوى ورثوه ، ويرى من فى الجنة بيوتهم التى أعدها لهم فى النار لو كانوا كفروا بالله ، وقد ورثها أهل الكفر بالله ليذوقوا العذاب مضاعفا.

([1]) سورة ابراهيم آية : 22.

(2) سورة ص آية : 3.

([3]) سورة المائدة آية : 51.

(4) سورة آل عمران آية : 104.

(5) سورة آل عمران آية : 190.

"حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ"
الحسرة هى شدة الندامة . وحسر عن ذراعية يعنى كشفهما ، والحسرة هى كشف الخير والنعمة عنهم فإذا رأوا نتائج أعمالهم فى الحطمة اشتدت ندامتهم فكان العذاب محيطا بهم من الظاهر بالاحتراق ومن الباطن بآلام الضمير التى هى أشد من لهيب النار.
"وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ"
بشرى لأهل الإيمان الذين أدخلهم الله النار للطهارة من المعاصى ، لأن ذلك يدل على أنهم يخرجون من النار . أما أعداء أنفسهم الذين شنع الله عليهم بأعمالهم السيئة فهم مخلدون فيها وقد وردت الآيات الدالة على خلودهم فى النار.

قوله تعالى :[**"يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ"**](168).

وله تعالى **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا"**
يخاطب الله تعالى عباده موسعا لهم فيما أباحه لهم بقوله : **"كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا"** معلوم أن نداء الله تعالى فى تلك الدار الدنيا رحمة منه سبحانه بمن يناديهم ، وتتم تلك الرحمة إذا وفقهم للسمع والطاعة يأمر سبحانه أمرا بالإباحة أن نأكل مما فى الأرض حلالا طيبا والأكل معلوم . وأتى بقوله "مما" للتبعيض ليبين لنا أن المباح لنا مما خلقه الله فى الأرض لا يكون مباحا إلا إذا كان حلالا طيبا.
والحلال هو ما رفع الحظر عنه مما بينته الشريعة ، فعمل الرجل بيده كسب حلال ، ومن ميراث حلال ، ومن غنيمة حلال ، وما دعى إليه ، وما عدا ذلك من المسروق والمغضوب والربا وما أخذ لينصر به الباطل وغيره فحرام . وفى قوله : "طيبا" الطيب ما كان شهيا لذيذا مما يحصله بالوسائل المتقدمة ، وأما الحرام فنجس وبيىء كلحم الميتة والخنزير وكالخمرة وما أشبهها . وقوله تعالى : "كلوا" أمر من حيث وجوب استعمال الحلال عند المقتضيات ، ويكون للإباحة من حيث الأكل ، وقوله تعالى : "مما فى الأرض" لا يخرج ما فى البحار والأنهار ، فإن البحار والأنهار فى الأرض.
وهنا إشارة وهى أن الله سبحانه خلق الأرض لإقامة الأنسان على ظهرها إلى الأجل الذى قدره سبحانه . ولما كان الأنسان لإبقاء لحياته إلا بالضروريات اللازمة له والكماليات ، خلق له فى الأرض جميع مطالبه من معادن تستعمل لنفع الغذاء ولإعادة الصحة بعد فقدها ومن حيوانات ومن نباتات وغيرها ليشهد الإنسان آثار رحمته سبحانه وعطفه وفضله وإحسانه ، وليمنحه تعالى يقينا حقا أن الخلاق الرزاق المحيى المميت هو الله تعالى ، فلا يشغل وقته القليل فى تلك الدار الدنيا بهم ما ضمنه له ، بل يصرف أنفاسه فى تحصيل العلم النافع والعمل الرافع عبادة لله وشكرا له على عميم نعماه.
وما خلق ربنا هذا الكون عبثا ولا لعبا ، ولا سخره لبنى الإنسان ليظهروا ويستروه عن عقولهم وأنفسهم ، بل ليظهر هو ربا قادرا فاعلا مختارا ، وإذا ظهروا هم ظهروا عبيدا مضطرين محتاجين إلى فضلة.
وأبغض عباد الله عند الله تعالى من استغنى عن الله تعالى بنعمه المحيطة به ، وكل قلب غافل عن الله تعالى بما أنعم الله به عليه فهو مقطوع عن الله تعالى أعوذ بالله من نسيان المنعم بنعمته.
"وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ"
"خطوات الشيطان" جمع خطوة ، والخطوة ما بين رجلى الماشى ، ومراد الله تعالى من "خطوات الشيطان" وهو أعلم أى سبيله وطريقه . وقد بين الله ذلك فى قوله تعالى : **"إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ"**[1].

([1]) سورة النساء آية : 117 – 119.

وقال تعالى مخبرا عن هذا العدو الرجيم : **"قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ"**[1].
وقال تعالى : **"إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا"**[2] كشف الله لنا الستار عن نوايا إبليس بنا وعن تمكين الله له فى قلوب من اتبعوه ، ليعلمنا مقدار عداوته لنا فتدوم مجاهدتنا لأنفسنا خوفا من أن نقع فى مصايده ومكائده ولا حول ولا قوة إلا بالله.
وما بينه الله فى تلك الآية هو بعض خطوات الشيطان . وقد أكد علينا أن نستعيذ بالله منه ومن شر شياطين الأنس والجن . "أنه لكم عدو مُبين أكد الخبر عنه أعاذنا الله منه لنتحفظ منه باتباع السنة والكتاب.

قوله تعالى: ["**إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**"](169).

"إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ"
أما السوء فكل معصية بالجسم أو بالقلب ، وأما الفحشاء فهى الكبائر المتفاحشة جدا – وقد تأولها بعض العلماء بأنها الزنا واللواط أعاذنا الله منها – والفواحش كل كبيرة فوق أعمال السوء – وشر تلك الفواحش أعمال القلوب كعقدها على الكفر أو على النفاق أو على الفواحش أعمال القلوب كعقدها على الكفر أو على النفاق أو على العقائد الضالة والآراء والمذاهب المفسدة –وشرها فى الجوارح قتل الأولاد فالزنا فقتل النفس لأن الله تعالى يقول : **"وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ"**[3].
فجعل الزنا أكبر من قتل النفس لأن الزانى قتل أنفسا كثيرة وآذى أخوته المسلمين أذية شنيعة ، فإن المرأة إذا حملت من الزنا قتلت ولدها أو أهلكته بأن ترميه ، وبذلك يكون الزاني ارتكب القتل وشرا منه.
"وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"
هنا النار المسعرة والخشية التى تذيب القلوب ، لأن كثيرا من الناس يدعون الصلاح والتقوى والعلم والإرشاد ونواصيهم فى قبضة إبليس يوسوس إليهم بالأكاذيب والأباطيل فيقولون على الله ما لا يعلمون ، وقد يبلغ الغرور بالرجل منهم حتى يعتقد أنه نافع وضار ومقدم ومؤخر ومتكلم عن الله وعن رسوله وهو يهدم الشريعة من أعلاها إلى عليها ، ويمحو الآثار الشرعية والأحكام والآداب معتقدا أنه يتكلم عن الله وترى كثيرا من الناس يصدقونه ويزيدونه غرورا بنفسه وهو منغمس فى لعنة الله وغضبه ، يتأول القرآن والسنة على حسب ملا يلائم هواه من غير الآداب مع الله ورسوله . قال رسول ε "من كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار" وقال تعالى : **" لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ"**[4] ومسلم ذاق طعم الإيمان لا يسلم إلا لله ولرسوله ولأولياء الله العاملين بكتاب الله وسنة رسوله الله صلى الله عليه وسلم .
وقولي هذا لا يجعلني أذكر أن الله تعالى جذب إليه من أحبهم من خلقه فأفناهم عن وجودهم شهودهم ، فيراهم الناس يمشون على الأرض وقلوبهم معلقة بالرفيق الأعلى ، لأن الله أقامهم مقام من اصطنعهم لنفسه وهم أهل الذكر الأكبر.
الذين ينالون الرضوان الأكبر صغرت الدنيا فى أعينهم فزهدوا فيها وهم أحوج ما يكونون إليها. جاهدوا أنفسهم فى ذات الله حتى استلانوا ما استوعره المترفون ، علموا سر الحكمة فى الإيجاد والإمداد حتى بلغ بهم العلم عين اليقين أو حق اليقين ، لا يغضبون إلا الله ولا يرضون إلا الله ولا يفرحون إلا بفضل الله وبرحمته ، ولا يأنسون إلا بالله تعالى أولئك هم أولياء الله.

---

(1) سورة الأعراف آية : 16 – 17.
(2) سورة فاطر آية : 6.
(3) سورة الإسراء آية : 31 – 33.
(4) سورة آل عمران آية : 61.

أما من توعدهم الله الخلود فى النار بأتباعهم خطوات الشيطان التى من شرها أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، وهو أهل البهتان الذين يفترون على الله الكذب ليتنعموا فى تلك الدار الدنيا بما يوقعهم يوم القيامة فى نار جهنم ، أعاذنا الله تعالى بوجهه الكريم من أتباع الحظ والهوى ومن البدع المضلة.
وأن الذين يقولون على الله ما لا يعملون لا يخفون علينا ، فمنهم الشاطحون التائهون الذين يظهروا للناس أنهم فى فناء عن الدنيا وحضور مع الله تعالى ، وكذبوا لأن أهل هذا المقام جائعة بطونهم ، عارية أبدانهم ، ظمآنة أكبادهم ، سكنت نفوسهم إلى ربهم وصبرت مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، رضوا عن الله بعد أن رضى سبحانه عنهم ، لا فرق عندهم بين الدرة بضم الدال وبين الدرة بكسرها ، آثروا الناس بحطام الدنيا ، وقهروا أنفسهم جهادا ومنافسة فى نيل رضوان الله الأكبر ومن هم ؟ وأين هم ؟ فليتق الله الضالون المضلون فإن عذاب الله شديد.
وقد بينت لك أيها القارئ فى كتاب : "الطهور المدار" سر تلك العداوة البينة من الشيطان لنا ، وأشرت لك إلى معنى الشيطان وما فيك منه مما يتصل بقبلك ، وأعلمتك أن أبوابه التى يدخل منها عليك هى جوارحك المجرحة وشرها بطنك فإنها المعقل الذى يمد تلك الجوارح بالخير أو الشر، فأحذر أن تكون عبدا لبطنك ، وضيق الخناق على النفس الشهوانية فلا تدخل فى بطنك إلا الحلال الطيب على قدر الضرورة ، وأحذر أن تتوسع فى المباح فيصرعك الكفاح.
وقد بين الله لك قدر الدنيا ، وشرح لك رسول الله ε ما خفى عليك من القرآن ، وما وصل الواصلون إلى الله إلا بالجوع والسهر وقلة الكلام المباح ، وملازمة الخلوة محاسبة للنفس ومراقبة لجلال الله ومشاهدة لجماله العلى حيث الأنس به سبحانه ولا تصحب إلا من ثقل ميزانه بما وضع فيه من العلم بالله والأدب مع الله ورسوله ومن العض بالتواجد على ما كان عليه رسول الله ε وأصحابه ، وأضرب بما خالف ذلك وجه الحائط ، وأطلب العلم من العارفين ولو بالصين ، وأحذر من صحبة الذين يقولون على الله ما لا يعلمون ، فإن صحبتهم ذل لغير الله فى الدنيا ، وعذاب شديد يوم القيامة.
أعاذنا الله من الفتنة خصوصا فتن هذا الزمان العمياء الصماء ، التى جذبت قلوب أهل الهوى مما أبتدعه الضالون المضلون الذين تلقوا علم الدنيا فى بلاد أوروبا ، الذين أذهب غيرتهم لله ورسوله أطماعهم فيما فى إيدى أعداء الله من زينة الحياة الدنيا.
وقد كثر فى زماننا هذا إتباع الشياطين بما نراه من آثارهم من التظاهر بعمل الفحشاء والمنكر ، وبتعصبهم لأهل المذاهب المضلة والآراء الفاسدة والعقائد المفسدة . ولولا الإطالة على القارىء لبينت أنواع الذين يقولون على الله مالا يعلمون فى زماننا هذا ولكن ندعهم بعد قوله تعالى : "**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**"[1] فنسأل الله أن يهدينا صراطا مستقيما.

وهنا أعرفك اتباع من يقولون على الله مالا يعلمون ، أنهم شر الخلق لعدم بصيرتهم التى ينظرون بها إلى الحقائق التى تجعلهم من أهل اليقين أو عين أو حق اليقين ، وتلك المراتب هى الحجة على أن الإنسان إنسان بمعناه، فإذا حرم تلك البصيرة كان أضل من البهائم السائمة ، وغاية ما فى الأمر أنه على صورة الإنسان ولكنه كالقرد الذى يسمى : "إنسان الغابة" أو كالسمك الذى: يسمى "إنسان البحر" ففى الغابة قرد يمشى على رجليه ويعمل أعمال الإنسان من الغضب والرضا والضحك وتحصيل قوته إلا أنه لا ينطق ، وفقده النطق حجة قاهرة على أهل الجهالة بالحقائق القائلين أن الإنسان أصله قرد.

وأن رأيت رجلا يسلم لغير الحقائق التى يقبلها العقل فأحذره ولا تبح له علما فيفسده ، قال عيسى بن مريم عليه السلام : "لا تلقوا الجواهر تحت أقدام العنازير" وكان ε إذا أراد أن يتكلم فى علوم اليقين قال لأصحابه : "أجيفوا بابكم" أى أغلقوه ، ثم يقول "أفيكم غريب" والغريب هنا والله أعلم هو فاقد القابل ولو كان عابدا زاهدا.

([1]) سورة القلم آية : 44.

قوله تعالى :[**"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ"**](170)

قوله تعالى**"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"**
يبن الله حرمان من اتبعوا خطوات الشيطان من القبل الذى يقبل عن الله آياته لنعلم أن تلك الآيات الجلية فى الكائنات ، وأن ما جاء به الرسل عليهم السلام من البينات إنما هو حجة على من لم يجعل الله له عقلا يعقل عنه سبحانه وتعالى ونورا تستبين به سبيل الله تعالى.
وأما من منحه الله القابل فإنه يقبل أسرار الله ويفقه آياته ، قال ε : "المؤمن يكفيه قليل الحكمة" وقال تعالى : **"إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ"**[1] وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ε لما دعا اليهود إلى العمل بما أنزل الله تعالى أخذتهم العزة بالإثم فقال عنهم رافع بن جارحة وخالد بن عوف : "بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا" وخصوص السبب لا يقتضي خصوص الحكم فالسبب خاص والحكم عام.
وهذه الآية الشريفة خبر عمن خاطبهم الله تعالى بقوله : **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا"** والخروج من الخطاب إلى الغيبة فى فصيح الكلام من المعجز . وقوله تعالى : **" اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ"** أى أعلموا بما أنزل الله على حبيبه محمد ε . فخالفوا أمر الله تعالى وقولوا : **"بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"** أى نعمل بها وجدنا عليه آباءنا بالله كفرا وعنادا لرسوله ε وتكبروا عن الحق . فشنع الله عليهم وأخزاهم بقوله : **"أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ"**.
والمراد بآبائهم هنا هم آباؤهم الذين ضلوا فى زمان موسى وعيسى عليهما السلام وبعده الذين شنع الله عليهم فى أوائل البقرة ، ولم يقع منهم هذا الخلاف إلا وهم على بصيرة بما أثبته الله من بعثة حبيبه ومصطفاه من ولد اسماعيل فى سفر الخليل وموسى عليهما السلام.
شنع الله عليهم بتلك الآية لأنه جل جلاله خلق الإنسان وسطا بين العالمين بين عالم الملائكة وعالم البهائم ، ومنحه عقلا يستعمله فى تدبير شئونه وتدبير أعماله والمسارعة إلى نيل الخيرات اللازمة له والتحفظ من الشرور أن يقع فيها . وجعل استعماله له ضروريا ليدرك أن الخيرات الكونية لا تنال إلا باستعمال هذا العقل ، وقد فطره على الدين لأن الإنسان حيوان ديني.
فكما استعمل عقله فى أموره الدنيوية كان ينبغى عليه أن يستعمله فى أموره الدينية فينظر فيما حوله من الكائنات نظر متعقل ، ليعلم أن ما على الأرض ومن عليها عبيد مربوبون وعباد مقهورون ليس على وجه الأرض من يملك لنفسه منهم ضرا ولا نفعا ، بل ولا فى السماء من أجرامها العظام وطبقاتها المتناهية فى السعة ما يضر أو ينفع بذاته ، فيحكم أنه ليس فوقه فى هذا العالم أجمع إلا الله ، وما عداه آثار رحمته وأسباب وضعها سبحانه ليظهر لمن أحبه فمن أهمل هذا العقل وقلد غيره تقليدا أعمى من غير حجة ولا برهان كان أضل من الأنعام.
وهنا يبين الله تعالى لمن قدوا آباءهم من غير بصيرة ولا حجة أنهم استوجبوا غضب الله وانتقامه ، لأن العقول التى تبحث فى هذا حتى تخترع الآلات التى تغير بها وجه الأرض وتستعبد بها عباد الله ولم تبحث فيما أودعه الله فى تلك الكائنات من الدلائل على وحدانية من الآيات الدالة على قدرته وحكمته وعلى تفريده سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية والكمالات الذاتية الأسمائية الصفاتية كانت تلك العقول أدنى من عقول أخس الحيوانات.
لأن كل حى من الأنواع السافلة له عقل يدرك به جلب المنافع ودفع المضار بقدره ، فمنها ما يصنع له الحجرات فى بطن الأرض وفى المغارات وفى كهوف الجبال ، ومنها ما يصنع له القصور العاليات فوق الأشجار ، ومنها ما يقود الجيوش لحرب أخصامه كالقردة فى جزيرة مدغشقر ، ومنها ما يصنع النفق بين البر والبحر ، ومنها ما يتعاون على جلب ضرورياته ويصنع له بيوتا هندسية بحجرات مسدسه يعجز عن إتقانها أمهر المهندسين وغير ذلك من أنواع تربية الإناث منها لأولادها.
فمن الحيوانات ما يخرج أولاده من بطنه ويضعه فى كيس تحت بطنه ليتمم حمله ، وبعضها تلد فيفر المولود من أمه بسرعة يكون فيها أسرع من الريح المرسلة وأمه تجرى وراءه حبا منها لتنظفه بلسانها ولسانها كالشوك لو

([1]) سورة أل عمران آية : 73.

لحسته لقتلته فينجو منها بعدوه ، ومنها ما يلد خارج البحر على الرمل ثم يرجع إلى البحر فيربى أولاده بالنظر إليها وسبحان القادر الحكيم.

هذا ما فطرت عليه الأنواع الحية السافلة ، فيكون ما فطر عليه الإنسان أرقى من هذا بحسب ضروریاته ، ولا يحكم على الإنسان بأنه عاقل حتى يدرك عقله ما هو ظاهر فى الكائنات من الآيات القائمة على وحدانية الله تعالى ، فإذا لم يدرك هذا حكم على نفسه بأنه أخس من البهائم الراتعة – ومن حكم على أن أهل الكفر بالله أناسى فى معناهم جهل الحقائق – ولكنهم أناسى فى مبناهم لأنهم لا يعقلون إلا بالعقل المكتسب الذى دعت الضرورة كما دعت الضرورة البهائم أن تعمل ما يعجز الإنسان.

وهنا أشير إلى أن عالم النباتات أكمل عقلا فى نيل ضروریاته من الإنسان ، فإنك ترى الأزهار فى النباتات الصغيرة تتحول إلى الشمس عند شروقها وتدور معها إلى غروبها ، وترى الأشجار الضخمة أول فرع منها يتجه حيث شروق الشمس والفرع الثانى إلى غروبها حتى لا يضر أخاه بظله ، والفرع الثالث يرتفع إلى الأعلى وكل ذلك لتمتع الشجرة بحرارة الشمس ونورها ، وكل نبات يكون فى ظل يمتد رأسه ناحية الشمس ، ولذلك فإنك ترى بعض النخيل إذا كان بجانب نخلة تحجب الشمس عنه يميل شرقا أو غربا ، وترى فى الشجرة والواحدة أزهارا ذكورا وإزهارا إناثا فيلقح بعضه بعضا.

ظهر لك أن ما بلغ إليه الإنسان مما يقولون عليه مدنية واختراعا وتفوقا، كل ذلك مفطور عليه الإنسان كما فطرت عليه الحيوانات والنباتات ، ولذلك يقول الله تعالى : **"أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ"** نفى سبحانه وتعالى عنهم العقل الذى يعقل عن الله ، مع أن الإنسان من لدن آدم وهو آخذ فى الرقى حتى أخذت الأرض زخرفها أو زينت ، وظن أهلها لجهلهم بأنفسهم وبربهم أنهم قادرون عليها.
والحقيقة أنهم ما عقلوا شيئا ، لأن الذى عقلوه من الصناعات والفنون والزخرف والعلوم المتعلقة بظاهر الحياة الدنيا ، لا تخرج محصلها عن أنه نوع من أنواع البهائم الراقية كالقردة والنسانيس والنمل والنحل والخيل والطيور الرحالة.
ومن طن أن الفراعنة والأكاسرة والبابليين والأشوريين ممن أخفى عليهم الدهر أو بنى الأصفر سكان أوروبا وسكان أمريكا ، أو الأنواع الحمر والسود من سكان الصين واليابان ، والسودان ممن لم يستضيئوا بنور الإسلام يعقلون فقد أخطأ الحقيقة ، لأنهم لو كانوا يعقلون لعقلوا عن الله تعالى ما أنزل إليهم مؤيدا بالحجة الدامغة والدلائل القيمة ، فهم كما قال الله تعالى: "أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون" – والهمزة هنا للاستفهام توبيخا ، فإثبات الله أنهم لا يعقلون شيئا حقيقة لأن العاقل حقا من عقل عن الله تعالى – أما من أخترع أو تفنن أو قهر خصومه بالقوة والحيلة فهذا جاهل لا يعقل ، ما لم يكن ذلك بعد إيمان بالله تعالى وعلم بأمره ووحيه.

"ولا يهتدون" الهداية هى بيان سبيل الله للعبد حتى ينهج عليها سالكا إلى الله تعالى ، فقوله سبحانه : "ولا يهتدون" – أى أن سبيل الله تعالى تبين لهم بآيات الكتاب وبيان السنة ، والقوم لما سجله الله عليهم لا يقبلون الهداية لفقد القابل لأن الهوى أعمى عيون البصيرة عن أن تفقه آيات الله تعالى:

وهنا إشارة خفية تبين لأهل التوحيد فى هذه الآية ، وهى أن الله إذا قدر لعبد هداية جعل له نورا فى قلبه وجعله ينجذب إلى الحق بأقل حكمة ، وإذا لم يقدر الهداية لعبد أبعده الحظ والهوى والتقليد الأعمى عن فهم الحجج والدلائل ، وظن أنه يحسن صنعا.

قوله تعالى : ["**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**"] (171)

"وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ"

أن من الحكمة العالية التى تنكشف بها الحقائق تلك الأمثال التى تقصم ظهر الخصم بما تليحه من الحجج الناصعة ، وقد وردت فى القرآن أمثال كثيرة 0 يقول تعالى فى تمثيل حال الرسل مع أهل الكفر بالله أو حال أهل الكفر بالله مع أندادهم الذين اتخذوا من دون الله :" **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا**"بعد البيان لهم وإقامة الحجج والأدلة مع إنكارهم الحق الذى جاءت به الرسل إليهم ، كمثل راعى غنم ينعق عليها فتسمع نعيقه ولا تفهم معناه ، وهو مثل محسوس ملموس بل معجز لأنه ورد فى أكمل صورة للبلاغة.

ولك أن تقول : "ومثل الذين كفروا" مع اندادهم الذين أتخذوهم أربابا يعبدونهم أو يتضرعون إليهم كمثل الراعى ينعق على الغنم – والتأويلان يطابقان المعنى وفى اللغة النعيق للراعى والنغيق للغراب، يقال نغق الغراب ونعق الراعى.

"بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً"

أى بالنوع الذى لا يسمع من الناعق إلا دعاءه ونداءه من غير فهم ولا تعقل ، فـ "ما" التى دخلت عليها الباء نكرة موصوفة بمعنى شىء ، وفى هذا المثال من التشنيع والتقبيح ما فيه على من حكم الله عليهم ووصمهم بالخزى والذل فقال سبحانه : "**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**".

"صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"

فالأصم الذى لا يسمع ، والأبكم الذى لا يتكلم ، والأعمى الذى لا يبصر ، وفاقد تلك القوى الرئيسية أضل من البهائم السائمة ، ومعنى هذه الآية أن أعداء الله ورسوله وأعداء أنفسهم فقدوا القابل عن الله الذى تقتضيه رتبة الإنسان فانحطوا إلى مستوى أحقر البهائم ، ثم سقطوا الى رتبة الجمادات ، والعجب أنهم فى تلك الدار الدنيا أنحطوا عن النوع الانسانى إلى رتبة البهائم وأقل ، وقى يوم القيامة يحاسبون حساب الإنسان وتكون البهائم أسعد منهم وهذا نهاية الشقاء ، لأن البهائم يقال لها كونى ترابا وهؤلاء يتمنون أن يكونوا ترابا. ويومئذ يتمنى الواحد منهم أن يكون تجمل بأكمل المعانى الإنسانية علما بالله وإخلاصا فى عبادته وحسن اتباع لرسوله ε "**وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ**"[1].

قوله تعالى : ["**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**"](172)

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"

بين الله تعالى فى الآيات السابقة حجج التوحيد ودلائله وأسرار النبوة بما جعل تلك الحقائق تتجلى لمن جعل الله نورا فى قلوبهم ، وقهر أهل الكفر بما أخبر به عنهم ، ثم أخذ سبحانه وتعالى يبين لنا إحكامه فى جميع شئوننا وضروریاتنا الجسمانية والروحانية بما تخص الفرد والمجتمع بحسب أنواعه ، فقال سبحانه وتعالى يخاطب أهل الإيمان به : "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**" أى صدقوا بالله ورسوله ،لأن نداء الذين آمنوا يقتضى ان تكون الآيات بعده بيانا لأمور خاصة بهم ،فيما يحل ويحرم عليهم أو يجب أو يندب أو يباح ، بخلاف نداء الناس أو نداء أهل الكفر بالله فإنه يقتضى إنذارهم ودعوتهم إلى الحق لذلك قال سبحانه لأهل الإيمان : "كلوا من طيبات ما رزقناكم" كما قال فى الآية السابقة للناس : "كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا".

([1]) سورة ص آية : 3.

وبين الآيتين تناسب ، ولكن أهل الإيمان يرون في هذه الآية سرا تسكن به نفوسهم إلى منفسها ، فإنه فى الآية السابقة أعقبها بقوله : **"وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ"** وفى هذه الآية أعقب الأمر بما أباحه لنا وما حرمه علينا ، لنعمل بما أمرنا به من الأكل من طيبات ما رزقنا.

فإن الطيب هو اللذيذ الشهى الذى تترفع عن التوسعة فيه نفوس أهل التقوى الورعين ، فوسع سبحانه وتعالى فى هذه الآية وأباح لنا التمتع باللذيذ الشهى ما دام من رزق الله لنا ، فإن الرزق لا يكون إلا حلالا ، ومنه ما هو غير لذيذ وغير شهى ، ومن قال أنه الله يرزق الحلال والمحرم تأول هذه الآية بالأمر من الله أن نأكل الحلال من الرزق ونترك ما فيه شبهة أو تحريم.

فقوله سبحانه : "كلوا" يجوز أن يكون للوجوب وللإباحة ، فيكون للوجوب عند الضرورة ، ويكون مندوبا للضيف إذا رغبه صاحب البيت ، ويكون مباحا إذا لم يكن داع – وبهذا التأويل يكون ما يستعمله الإنسان مما يشتهيه إذا كان حلالا وكان القلب مشاهدا أنه نعمة من الله تعالى يقبله الله منه عبادة.

ومن زهد فأكل القديد وحرم على نفسه الطيب – مع غفلة قلبه يحكم عليه بأنه غافل ، لأن الله تعالى ينظر إلى القلوب لا إلى الأشباح.

"وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"

بيان لما أولنا به هذه الآية : والشكر لله علم وعمل ، فشكر القلب علمه بإنفراد الله تعالى باسباغ النعم قليلها وكثيرها ، وكون القلب يصرف الجوارح فى طاعة لله ، وشكر الجوارح المسارعة الى عبادة الله تعالى وحسن معاملة الخلق ومخالفة النفس الأمارة بالسوء فى كل أعمالها ، وشكر اللسان لثناء الجميل على الله بما وهبه من النعم التى لا تحصى . "أن كنتم إياه تعبدون" جملة متأخرة عن تقديم : أى أن كنتم إياه تعبدون فكلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ، والضمير فى "أياه" عائد على متقدم لفظا ، والعبادة فى المعرفة كما تأوله بعض العلماء فإن من عبد من لا يعرف يهرف أى يهزأ ، ولا عبادة إلا بعد المعرفة لأن عبادة الجاهل لا تخلو من الشرك ولو بالعبادة للجنة.

قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" يعنى لو أن الله تعالى لم يخلق نارا ولا جنة لعبده –من عرفه- لاستحقاقه للعبادة لكماله الذاتى ، ولما منح من الخيرات التى عجزت العقول عن حصرها ، والعبادة على تأويل الآية بحسب اللفظ معلومة مبينة فى كتب الفقه.

قوله تعالى :[**"إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**](173)

"إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ"

أنزل الله تلك الآية بيانا لما حرمه علينا بعد أن بين لنا ما أحله ، و "إنما" هنا أما ان تكون حرفا واحدا أو كلمتين ، فان كانت حرفا وحدا فهى للحصر التحريم فى الميتة وما بعدها ، وتكون الميتة وما بعدها ، منصوبة بحرم ، وإن كانت كلمتين تكون "إن" للتوكيد و "ما" اسم موصول اسم أن وحرم عليكم صلتها والميتة خبرها مرفوع بها وما بعدها مرفوع أيضا ، وعلى التأويلين فالمعنى تحريم تلك الأنواع تحريما مشددا.

و **"الْمَيْتَةَ"**

كل حيوان ذى نفس سائلة مات من غير سبب خارج ، ولك أن تقول الكلمة مجملة ، وتفصيل هذا الإجمالي ما ورد فى غير هذه الآية وهو قوله تعالى : **"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ"**[1] .

([1]) سورة المائدة آية : 3.

فيكون قوله تعالى "الميتة" يعنى التى لم تذك[1] سواء ماتت الميتة المعتادة أو غيرها ، واختلف العلماء فى تحريم الميتة ، هل تحريم الميتة بترك أكل لحمها والانتفاع بشعرها وصوفها وجلدها أو التحريم عام ؟ فقال بعضهم تحريم أكل لحمها وإباحة الانتفاع بما بقى ، وقال بعضهم بإباحة الانتفاع بصوفها وشعرها ووبرها وجلدها أن دبغ ، وتجوز الصلاة عليه ، وبعضهم يرى التحريم منصبا على أكل لحومها وعلى نجاسة عظمها وجلدها ولكنه يستعمل فى غير العبادات.

"وَالدَّمَ"

الدم معلوم وهو الذى يسفك عند الذبح ، وأما الدم الذى بين طبقات اللحم فهو طاهر ، وكانت قريش تأكل الدم مطبوخا – كما يفعل الآن سكان أوروبا من المتنصرة – والدم هو النفس الحيوانية . . ورد فى التوراة . "يا موسى لا تأكل الدم فإن الدم هو النفس" وقال الفقهاء : كل ذى نفس سائلة فيمتته نجسة.وإنما يجاهد السالك نفسه ليقهر سلطان الدم فى الجسم بالجوع فى الصيام والسهر ، وإنما حرمه الله تعالى لفادح ضرره للإنسان فى صحته وأخلاقه، فإنه يجعل الإنسان كالوحش الكاسر وتحصل منه أمراض كالجذام وما أشبهه.

"وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ"

الخنزير حيوان معروف ، ولما أنزل الله تحريمه بحث أهل الهلم فى حكمة تحريمه ، فظهر لهم أنه حيوان يعيش فى وسط البرك والمستنقعات والأوساخ والقاذورات ، ففهموا أن لحمه ودمه نجسان لأنهما متولدان من النجاسة.

وما من حكم شرعى إلا وله حكم كثيرة لا تنكشف إلا لمن شاء الله أن يعلمه ، وحكمة تحريمه أن كل قطعة من لحمه موجود بها ديدان صغيرة لو وضعت فى النار لا تموت ، فلا يقتلها الطبخ كما يقتل ما فى لحوم غيره من الديدان ، فإذا أكله الإنسان نمت تلك الديدان فى بطنه فقرحت المعى والمعدة ، وقد تتسرب من مسام المعى التى يمتص منها صفوة الغذاء بعد هضمها إلى الأوردة التى توصلها إلى الكبد ، وتمر فى دورة الدم فلا تبقى عضوا من الأعضاء الرئيسية الباطنة إلا ألهبته وقرحته ، فيفسد الدم وتضعف الأعضاء.

ولما كان أكلوه يشربون الخمر ، والخمر تخدر الديدان وتدبغ الالتهابات فى الأعضاء ، فتكون البلية أنكى وأشد لتسميم جسم الإنسان ، وما حرم الله على المؤمنين شيئا خلقه إلا وفى تحريمه مصلحة عامة لأهل الإيمان به وخير عظيم لهم.

وما وقع الإنسان فيما حرمه الله تعالى إلا ألقى بنفسه فى هاوية الأمراض فى الدنيا وفى سحيق العذاب يوم القيامة ، ومن حكمة تحريمه أيضاً أن آكله يكون أولاده خبثاء يجرءون على عمل الكبائر وإساءة الأرحام والأقارب ، بل وتكون قلوبهم قاسية لا رحمة فيها لأحد ، ومن الحكمة أيضا أن لحمه وبئ يوقع فى أمراض التشنج والصرع والجنون فرحمه الله بنا بتحريم تلك الخبائث علينا كرحمته بالأمطار والهواء والشمس . فسبحانه أرحم الراحمين.

ولذلك فأن ترى الأمم التى تكثر من آكله خبثت نفوسهم وقست قلوبهم ، وصار الانتقام وحب الأثرة وسفك الدماء وسلب مرافق الحياة من الأمم معبودا لهم من دون الله ، كما نراه اليوم فى أمم أوروبا وأمريكا وغيرها أعوذ بالله من مخالفة أوامره.

"وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ"

الاهلال هو رفع الصوت – ويقال للمحرم أهل لرفعه صوته بالتلبية والناحر أو الذابح يرفع صوته بذكر الله تعالى أن كان مؤمنا – وبذكر الأنداد أن كان كافرا – والإهلال هنا بمعنى النحر والذبح ، فما ذبح من الذبائح لله ورسوله فحلال طيب ، وما أهل به من الذبائح لغير الله فهو محرم على كل مؤمن لحكمة يتذوقها السالكون إلى الله ، وهى أن الذابح سقط عن رتبة الإنسانية لأنه عبد عبدا مثله أو حيوانا دونه أو وثنا صنعه بيديه ، وبهذا يكون ذبحه ونحره كالبهيمة المتردية أو الموقوذة أو النطيحة أو كأكيلة السبع ، وكل هذه الأنواع محرمة.

وإنما الذى يجوز له أن يذبح أو ينحر فيد تحركت عن قلب مؤمن بالله، تجرى الرحمة من قلبه إلى يده ، ومن يده إلى الذبيحة فتجعلها حلالا طيبا، وأما يد تحركت عن قلب كافر بالله عابد لغيره تجرى القسوة من القلب الى اليد ، فتكون الذبيحة كأكيلة السبع أو المتردية ، ويكون لحمها ساما لكل مسلم يأكل منه ، لأن الأجسام المطهرة بالإسلام المستنيرة بنور الإيمان لا يناسبها هذا اللحم ، ولكن يناسب الأجسام النجسة بالشرك المظلمة باعتقاد

---

(1) تذك : بمعنى تذبح.

الكفر ، ولكل نوع من أنواع الحيوانات طعام مخصوص لا يتعداه ، وكذلك لكل نوع من بنى الإنسان طعام يكون هنيئا مريئا.
هذا وهناك حكمة أخرى فوق كل تلك الحكم ، وهى أن الله نهى عن أكل ما ذبح على النصب لحكمة يعلمها هو ، فمخالفة أمر الله والأكل منها موجب لغضب الله ولعذاب الله يوم القيامة ، ونقول بعد هذا البيان كما قال الفقهاء : الحكمة تعبدية.

"فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"
الاضطرار هو قهر الضرورة الفادحة التى تبيح المحظورات "غير" هنا حال من اضطر و "باغ" اى متجاوز الحال الوسط ، بأن يتأول حل الشىء أو إباحته بالضرورة التى قد لا تبلغ هذا المقدار ، والعاد هو المتعدى الحق الى الباطل ، أى أن المضطر يجب أن يلاحظ المقدار الذى بينه الله لإباحة المحظورات فلا يتجاوزه ولا يتعدى حدود الله . "فلا إثم عليه" أى لا حرج عليه.

وهل ثم من أثم على المضطر إذا أكل الميتة ولحم الخنزير أو الدم ، أو ما حرمه الله عليه بمقدار حفظ حياته غير باغ ولا عاد ؟ الظاهر أنه لا أثم عليه ، والله تعالى يقولن : "فلا إثم عليه" فهل ثم من أثم يرفعه الله عنه ؟ أقول نعم – لأن حكم التحريم باق – وإباحة أكله لا تخرجه عن كونه حراما ونجسا ، فإن الله قد يرزق العبد رزقا حراما ويؤاخذه عليه يوم القيامة.

ولكن استعمال هذا النجس المحرم للضرورة يعفو الله عنه ولا يؤاخذه عليه ، ويكون تأويل هذه الآية فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عاد يعنى فى الأكل، حيث أنه لا يتعدى ما يسد رمقه على قول من تأول هذا التأويل ، ويكون الإضطرا على إطلاقه ، ولو كان الاضطرار نتيجة معصية كالمسافر لمعصية أو لخروج على الإمام أو فرار من الجهاد من غير سبب شرعى – وتأولها غيره بقوله : فمن اضطر غير باغ ولا عاد فأكل فلا أثم عليه ، فيكون البغى فى الاضطرار بمعنى أنه خرج عاصيا فلا يباح له أكل الميتة ولا الدم ولا لحم الخنزير لأن الأكل معين على المعصية.

وقد قيد بعض العلماء الإباحة بقدر ما يسد الرمق ووسع مالك بان يأكل حتى يكتفى ، ويتزود منها ما لم يجد جلالا طيبا ، والقولان الأولان لأبى حنفية والشافعى ، وشدد أبن حنبل فى الأكل وفى الضرورة ولكل وجهة – والأولى التخفيف لما ورد فى السنة ، ولأن تلك الأنواع تعافها النفوس الإسلامية فلا يلجئ إليها ، إلا من قهرته الضرورة.

قوله تعالى : "أن الله غفور رحيم" الغفور هو الستر ، ومعنى الغفور الذى يستر الذنوب والعيوب عن المخطئ ولا يعاقبه عليها ن وقد يبدل تلك الخطايا حسنات بفضله ، وتقدم معنى الرحيم ، والمعنى هنا فى هذا الموضوع أن الغفور الذى ستر ذنوب العبد ، التى أوقعته فى الضرورة وابتلاه بالضرورة ليتذكر فيرجع عن ذنوبه ، والرحيم الذى رحمه فأباح له فى الدنيا ما يحفظه من الهلاك ، ومنحه يوم القيامة نعيما ينسيه كل ألم فى الدنيا.
وتقدم فى قوله : "فلا إثم عليه" بيان لمعنى هذين الاسمين الشريفين فى هذا الموضوع ، وذكرهما هنا ليذكر قلب من أحاطت به البلايا من وقوع فى الكبائر بتسليط النفس الأمارة وطبع السوء ، أن يلتجئ إلى الغفور الرحيم ليدفع عنه سلطان الهوى والحظ ، وليرحمه بتبديل تلك الخطايا هداية وتوفيقا.

قوله تعالى :[**"إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"**](174)

تمهيـــــد:

سبب نزول هذه الآية إنكار زعماء اليهود ككعب بن الأشرف وكعب بن أسد ، وحيى بن أخطب ، معنى ما أنزل الله فى كتابة من صفات رسول الله ε ومن إثبات نبوته ، وأنه خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، وخصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم فسببها خاص وحمها عام ، وفى قوله : "يكتمون" بيان أنهم أخفوا عن العامة الذين لا يفهمون ، ما أنزله الله على كليمة من أنباء رسول الله ε .

وجائز أن يكون ما أنزله الله شائعا بينهم ولكنهم تأولوه – عنادا – للعامة ويكون التأويل معنى ما أنزل الله ، وسواء أكان المكتوم لفظ ما أنزل الله أو معناه ، فإن كل واقع فى هذا الظلم الفادح لنفسه ، وقع فى هذا الوعيد سواء أكان من أحبار اليهود أو رهبان النصارى أو علماء السوء من المسلمين ، فإن الله تعالى ما شنع على قوم وتوعدهم بالعذاب على عمل ، ووقع فيه غيرهم إلا حل بهم هذا الوعيد.

"مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا"

الكتاب هو التوراة أى أنهم يبيعون الحق الصريح الجلى برشوة قليلة كما قال الله تعالى : **"وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ"**[1] أى باعوه برشوة قليلة مهما كانت قيمتها ، وإنكارهم صفات رسول الله ε خوفا من ضياع ما كانوا يبتزونه من اتباعهم ، الذين كانوا يتلقون عنهم الكتاب مبينا ، فكتموا الحق عنهم الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم تعظيما للدنيا ونسيانا لله وللدار الآخرة.

ولا تزال تلك النفوس الخبيثة تقع فى هذا الشر ، فترى كثيرا من علماء السوء ينتقم بعضهم من بعض ، بتأويل ما حكم به بعضهم فى اللغة أو فى الفقه أو فى التأويل ، إنكار للحق وتحقيرا للخصم ، وكذلك ترى جهلاء أهل طريق يقبح بعضهم بعضا ، بحرب وخصومة يوقعان فى الهرج والمرج حرصا على ما يأخذونه من أتباعهم ، قال تعالى : **"وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ"**[2] وهم يعلمون الحق ويميلون عنه طمعا كما أخبرنا الله تعالى فى هذه الآية عن أحبار اليهود.

"أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ"

أى لا يأكلون بالرشا التى أخذوها من أتباعهم وكتموا لأجلها الحق "فى بطونهم إلا النار" قوله تعالى "فى بطونهم" أى إلا طعاما وبقهم إذا فى النار ، لأن هذا الأكل سبب للوقوع فى غضب الله واستحقاق عذاب الله لهم، وما كان سببا فى العذاب صح أن يكون هو العذاب.

ولك أن تقول أنهم يأكلون فى بطونهم النار لأن هذا الطعام الحرام ، ألم الروح الملكية لوقوعها به فى الحجاب عن شهود جمال آيات الله فى الكائنات ، وعن الفقه فيما أنزله الله تعالى ، وعن رعاية أحكام الله ، وعن مسرة النفس التى تنالها بالعمل بكتاب الله تعالى ، وعن طمأنينة القلب بذكر الله بسبب الغفلة عنه سبحانه بمخالفة أمره ، وهذا عند العارفين أشد ألما من عذاب النار فى الدنيا والآخرة.

"وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"

تشنيع من الله تعالى على هؤلاء القوم الذين أخبرنا الله عنهم فى الآية السابقة ، لأن كلام الله تعالى لعباده تشريف لهم وتعظيم لقدرهم وبهجة لأرواحهم ، إنما يكلمهم مسلما عليهم وهو السلام ومنه السلام قال تعالى : **"تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ"**[3].

وتلك الآية حجة على أن الله تعالى يكلم أحبابه ممن آمنوا برسوله ε ولقائل أن يقول : قول تعالى "ولا يكلمهم" ينافى ما ورد فى قوله سبحانه : **"وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ"**[1] وما أشبه ذلك مما ورد فى غير هذه

([1]) سورة يوسف آية : 20.

(2) سورة النور آية : 40.

([3]) سورة الأحزاب آية : 44.

الآية مما يفيد الكلام مع أهل الكفر بالله وهذه الآية محكمة ، والجواب أن الذين يكلمهم هم الملائكة قوله تعالى : **"وَلَا يُزَكِّيهِمْ"** التزكية هى الطهارة ، وعدم الطهارة هنا هى أن لا يغفر الله ذنوبهم ويعاملهم بعدله الذى يقتضى أن يكون لهم عذاب أليم فقوله تعالى : **"وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"** أى مؤلم جدا ، وقد بينا أنواع العذاب فيما سبق.

قوله تعالى :[**"أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ"**](175)

"أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى"
حكم من الله على من ذكر حبرهم فى الآيات السابقة ، والإشارة عائدة على من ذكرهم الله فى قوله سبحانه : **"إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ"**الخ وقوله : **"اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى"** أى ابتاعوا الضلالة بالهدى ، وابتاع واشترى بمعنى واحد ولكن الشىء الذى أخذه البائع هو ما يذكر بعد الفعل مباشرة أى أخذوا الضلالة بثمن غال جدا وهو الهدى ، والضال هو الذى خفيت معالم الطريق ، والمهتدى هو الذى جعل الله له نورا يستبين به صراط الله المستقيم.

"وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ"
يوبخهم سبحانه بتلك الآية ، والمعنى أنهم اشتروا معاصى الله التى توبقهم فى العذاب الأليم ، وأبوا قبول أوامر الله تعالى التى ينالون بها النعيم المقيم فى جوار الصديقين والشهداء ، وهنا يجب على المؤمن أن يكون شديد الحذر من الوقوع فيما يخالف الله تعالى بصحبه الضلال ، الذين يفسدون على الناس عقائدهم ومذاهبهم ، وكل مؤمن لا ينظر بعين البصيرة فى الأمور الدينية ويطلب العلم من أهله ولو بالصين ، وقع فى شباك أهل الأهواء المضلة ، ومرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فإذا جاء يوم القيامة تبرا دعاة الجهالة من المتبعين لهم ، وكان عذابهم بالخصومة فى النار أشد عليهم من عذابها.

"فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ"
تأول بعض العلماء هذه الآية بأن "ما" تعجبية ، "أصبرهم" فعل تعجب ، والمعنى شىء عظيم أجراهم على العمل الذى يوبقهم فى عذاب النار – وهذا التأويل يلزم أن نفهمه – أن الله تعالى يخبر بهذه الآية عنا لأننا نعجب من عمل الكفار بالله ، هذا العمل الذى يخلدهم فى عذاب جنهم لجهلنا بسببه ، والتعجب لا يكون من الله لأن الله سبحانه لا يجهل أسباب الأحداث التى قدرها أزلا وأظهرها فى الكون.

ولك أن تقول "ما" استفهامية للتشنيع والتوبيخ وإثبات الجهالة العمياء لمن كتموا ما أنزل الله من الكتاب – الخ ويكون المعنى أى شىء أجراهم على العمل الذى يخلد عامله فى نار جهنم.

وهنا إشارة خفية . وهى أن الله يبين لدعاة الضلالة وعلماء السوء الدين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أنهم لمخالفتهم الله ورسوله وكتمان الحق عن طالبه وتأويله حسب أهوائهم وحظوظهم وأطماعهم ، وقعوا فى نار جهنم حالا وان لم يحسوا بآلامها الفادحة ، بل وإن تلذذوا بما نالوه من حطام الدنيا فإنهم أوقعوا أنفسهم الطاهرة فى هاوية البعد والقطيعة عن الله ، وسجن الحرمان من مزيد الإيمان وحرموا من جمال السياحة الروحانية فى عالم الملك والملكوت بما تالوه من ملاذ كون الفساد مما يلائم أجسامهم وحسهم ونفوسهم الأمارة بالسوء وطباعهم الخبيثة ، وقاله تعالى : "على النار" بحذف مضاف ملحوظ أى على عذاب النار.

---

(1) سورة الزمر آية : 24.

قوله تعالى :[**"ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"**](176)

"ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ"
اسم الإشارة هنا عائد إلى : "أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار" والمعنى – والله أعلم – ذلك العذاب الأليم ، لأن الله تعالى نزل الكتاب مبينا أسرار الحق جلا جلاله بالدلائل الواضحة والحجج القاطعة والبراهين المحسوسة الملموسة ، وأنزل فيه صفات نبيه محمد ε ومحل مولدة وهجرته، وأنه أرسله صلى الله عليه وسلم ليكمل به الدين ، ويتم به النعمة على العالم أجمع ، ومع هذا البيان الجلى فى التوراة والإنجيل والقرآن كتموا تلك الحقائق وأخفوها عن معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود وجادلوا المسلمين كما تقدم.

وقوله تعالى : "نزل الكتاب" أسند إنزال الكتاب إلى حضتره العلية تشريفا لقدره ، وشرفه بقوله : "الكتاب" لأن الله أنزل كتبا كثيرة ، ولكن الكتاب الذى أسند إنزاله فى نفسه وذكره بلفظ الكتاب لعلو قدره وشهرته بالقرآن المجيد.
قوله : "بالحق" أى بالصدق ففى قوله : "نزل" وفى قوله"الكتاب" وقوله : "بالحق" تعظيم لقدر الكتاب وقدر من أنزل عليه ε كما قال سبحانه وتعالى : **"إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ"**[1] فعظمة بنسبته إلى ذاته العلية وإسناد الفعل إلى أنا التى تفيد العظمة الكبرى وبالكتابة عنه بالهاء التى تدل على أنه معلوم للقلوب ، فكذلك فى هذه الآية.

"وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"
يخبرنا سبحانه أن اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى القرآن أهل فرية وضلال ، و"اختلفوا" من الخلاف ، لأنهم قبحهم الله فى شقاق بينهم ، فترى اليهود يكذبون النصارى ويرمون المسيح بأنه أبن زنا وترى كل طائفة منهم منشقة ، فترى اليهود انشق بعضهم على بعض فمنهم من يسب الأنبياء ويرميهم بما لا يليق لمقامهم العلى ، ومنهم من قتل الأنبياء ، ومنهم من قدس الأنبياء واتخذوا غزيرا ابنا لله ، ونرى النصارى أكثر شقاقا على بعض لأن البعض يقدس المسيح ويجعله إلها وغيرهم يقدسه ويجعله أبن الله ، وآخرون منهم يقولون الله حل فى المسيح ، وبعضهم يقدس مريم ، وقد أنشق بعضهم على بعض فى هذه الأيام حتى جرت الدماء أنهار بين أهل كل مذهب ، وقوم هذا حالهم فيما بينهم ، كيف يصدقون فى الحكم على غيرهم؟

ففى قوله : "لفى شقاق بعيد" حجة قاطعة على افترائهم وكذبهم . وبعدهم عن الحق ، وفساد عقيدتهم وآرائهم ومذاهبهم ، وحكم على من يأخذ منهم أو عنهم أنه أضل من البهائم الراتعة . وكأن قوله تعالى "ذلك بأن الله" الخ الآية جواب لسؤال مقدر تقديره : لم ذلك الانتقام الشديد الذى هو: "ما يأكلون فى بطونهم إلا النار" ألخ الآية ؟ الجواب : "ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق".

وفى قوله : "لفى شقاق بعيد" أيضا على تأويل أن الكتاب هو القرآن ، فقال بعضهم : أنه سحر ، وقال غيرهم : أنه أساطير الأولين ، وقالوا : أنما يعلمه بشر ، وكل هذا الشقاق بعيد عن الحقيقة.

وجائز تأويل من أول : "اختلفوا فى الكتاب" أن يكون معنى اختلفوا أنهم أتوا خلفا بعد سلف منشقين على بعضهم بدليل قوله سبحانه : " **وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**"[2] ويكون المراد بالكتاب التوراة والإنجيل بالنسبة لليهود والنصارى من بنى إسرائيل الذى كانوا من قبل رسول الله ε ، والقرآن بالنسبة لمعاصرى رسول الله ε .

([1]) سورة القدر آية : 1.
([2]) سورة آل عمران آية : 190.

قولـه تعـالى : ["**لَـيْسَ الْبِـرَّ أَنْ تُوَلُّـوا وُجُـوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَكِـنَّ الْبِـرَّ مَـنْ آمَـنَ بِـاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**"](177)

"لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ"

بعد أن بين الله تعالى التوحيد والنبوة بالحجج الدامغة ، بين أحكام الحلال والحرام المتعلقة بما يستعمله الإنسان لطعامه ، ثم أورد الآيات القاطعة لقهر أهل البهتان من اليهود والنصارى زيادة بيان بعد أن بين ذلك فى أو السورة ، ثم بين سبحانه وتعالى ما يجب على الإنسان القيام به لخالقه ومبدعه.

وسبب نزول هذه الآية أن المسلمين لما حول الله سبحانه القبلة إلى الكعبة فرحوا جدا واهتموا بأمر الصلاة اهتماما حصر همتهم فيها ، فبين الله لنا أنواع العبادات التى يحبها بعد أن نفى ما كانوا يعتقدون من حصر البر فى الصلاة لعنايتهم بها وبين بقية أنواع البر الحقيقى الأخرى.

وجائز أن يكون سبب نزول هذه الآية ، الفتنة التى قام بها اليهود بعد أمر الله تعالى بتحويل وجوهنا إلى الكعبة فى الصلاة ونسخ الحكم الأول من التوجه إلى بيت المقدس ، وقد بينا ذلك فيما سبق فأكبْتهم الله تعالى بما قصم به ظهورهم بقوله تعالى : **"لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ"** فقط حتى فتحتم أبواب الفتن على المسلمين . . وتأويل : "ليس البر" أى نفى البر عمن جعل تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب فى الصلاة هو البر فقط دون غيره ، وقد قرئت لفظة البر بالنصب والرفع بجعلها اسما لليس أو خبر مقدما ، وقرئت بفتح الباء بمعنى الإنسان البار حتى يطابق الخبر الاسم.

"وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"

أثبت الله البر بجميع أنواعه ليبين لنا سبحانه أن من ترك نوعا منها حكم عليه أنه لم يقم بما أمره الله به ، فإن ترك ما ترك مبيحا فذلك كفر ، ومن تركه عاجزا فلا أثم عليه ، ومن تركه مقصرا فأمره إلى الله تعالى أن شاء عذب وأن شاء غفر ، والذى يجب أن يعقد المؤمن عليه قلبه أن ترك فريضة من فرائض الله مبيحا يعتبر خروجا من الإسلام بدليل قوله ε : "تارك الصلاة ملعون ومن رضي به ملعون" وقوله تعالى : " **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ**"[1] وقوله تعالى : **"قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**"[2]

.

وقد جرت هذه الآية بذيلها كل من ترك فريضة من فرائض الله تعالى متأولا أو متساهلا ، فإن التأول لا يبلغ مبلغ تحريم ما أحله الله أو إحلال ما حرمه الله ولا ترك فريضة فرضها الله ، إنما التأويل يكون فيما خفى أمره على العلماء.

والاستدراك هنا "لكن" من الحكم الأول الذى نفاه الله تعالى وهو أن البر تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب "ولكن البر من آمن" خبر لكن محذوف ، وهو ، ولكن البر بر من آمن كما يقول العرب : الكرم حاتم ، والشجاعة عنترة ، والقراءة أبى ، والحكمة على ، والعدل عمر بمعنى أن القراءة قراءة أبى . والحكمة حكمة على ، والعدل عدل عمر ، وكذلك ولكن البر بر من أمن.

وذكر أركان الإيمان وهى أن يؤمن بالله أى يصدقه سبحانه كما أخبر عن نفسه بقوله : **"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ"** وبما وصف به نفسه . "واليوم الآخر " هو يوم القيامة ، وقد أخبرنا الله تعالى عنه فى القرآن وبينه لنا ε ، كما قال تعالى : **"وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ"**[3] وقال تعالى : **"فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ**

([1]) سورة آل عمران آية : 97.

(2) سورة التوبة آية : 29.

([3]) سورة البقرة : 281.

خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ"[1] ويوم القيامة يفتتح بقيام الناس من قبورهم فحشرهم إلى الحسر ، فوقوفهم إلى الحساب ، ثم انصراف كل فرق إلى ما سبق له فى علم الله أما إلى جنة ونعيم دائم وأما إلى نار وعذاب دائم.

والذى يميز الكافر من المؤمن هو الإيمان بيوم القيامة فمن أمن بها رغب فى نعيمها فأقبل على طاعة الله ، ومن لم يؤمن بها أو نسيها أقبل على هواه وحظه فمال الى ما يلائم نفسه الأمارة بالسوء فخسر الدنيا والآخرة قال تعالى : **" الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا"**[2] وقد شرحت فى كتاب : "النشأة الثانية" حقيقة هذا اليوم الآخر وما أعده الله فيه لأهل الإيمان به من النعيم المقيم ، ولأهل الكفر به من العذاب الأليم ، فليراجعه طالب المزيد.

"وَالْمَلَائِكَةِ"

الملائكة كما بينتم الشريعة هو أرواح نورانية وهم أنواع : منها عمار السماوات ، ومنها من وكلهم الله بحساب العبد فى القبر أو بكتابة سيئاته وحسناته عليه ، ومنها الذين يقبضون أرواح الناس ، ولفظ ملك فى اللغة مدلولها رسالة والفعل منها ألك أولاك ، والاسم منها ملك أو ملاك . وفى قولهم ملك بحذف الهمزة منه بمعنى رسالة.

وهناك أرواح عالية فوق الملائكة وهم عمار عالين وعليين وأعلى عليين ، وفيهم الآلهون فى جلال الله تعالى والكروبيون من عظمة جلاله سبحانه ، ومنهم أنواع لم تعلم بتصريح الشريعة ، قال تعالى فى ذكر الرسل : **"مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ"**[3] إنما يصل إلينا العلم بهم عن طريق الكشف والإلهام.

وأنما الشريعة صراط الله المضروب بين الله تعالى وبين خلقه ، يحفظ الله من هداه إلى صراطه المستقيم من سوء الأدب معه سبحانه ، فإن كثيرا من السالكين إذا أضعفوا قواهم البشرية بفادح المجاهدة والرياضة ولم يكونوا محصنين بإتباع المرشد الكامل ، تشرق عليهم أنوار من عالم الملكوت الأعلى تضيق عنها مواعينهم وتطيش منها عقولهم ، فيعروهم شىء من الجنون يجعل إبليس اللعين يتسرب إلى قلوبهم من حيث لا يعلمون فيفسد عليهم أحوالهم العلية ، لأن الأحوال العلية لا تكون إلا بآداب سنية ، فيشطح من وقع فى قبضة إبليس شطحا يفسد به عقائد إتباعه وآدابهم.

وقد يعينهم على ذلك وجود علماء بالأحكام جهلاء بالحاكم جل جلاله ، لا يعلمون الأدب مع الله تعالى ولا علم أمراض النفوس وعلاجها ، فيحصل الجدل الذى حرمه الله تعالى على السالكين ، قال سبحانه : **" مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ"**[4] فإن الجدل ينتج عنادا وكفرا.

والحقيقة أننا جماعة المسلمين : الله ربنا ، ومحمد ε رسول ربنا إلينا ، والقرآن كتابنا ، والكعبة قبلتنا وطلب العلم فريضة علينا ، فالإسلام دين التوحيد فى كل شىء ، فمن أين حل الجدل والعناد إلا من أمرين عظيمين؟ الأول : الجهل ؟ والثانى : الطمع.

وكل من خالف الكتاب والسنة وادعى أنه عالم فهو كاذب لأن علمه الذى حصله ولو كان أمثال الجبال يكون حجة عليه يوم القيامة ، وكل عالم لم يعمل بعلمه فهو من رعايا إبليس وإنما العلم الحقيقى ما أكسب القلوب الخشية ، وهو ما يعلمه الله لمن اجتباهم من خلقه بأن يشرح صدورهم لصحبة أهل العلم به فيعلمهم الله ما لم يكونون يعلمون ، قال تعالى : **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ"**[5] وقال سبحانه : **"إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"**[6] وعلم لا يكسب صاحبه الخشية سلسلة تجر المدعى على الله الكذب إلى نار جهنم . وقد شنع الله على من كتموا ما أنزل من الكتاب ممن حصلوا على الكتاب ولم يعملوا به.

---

(1) سورة المعارج : 4.
(2) سورة الجاثية : 34.
(3) سورة غافر : 78.
(4) سورة الزخرف : 58.
(5) سورة البقرة : 282.
(6) سورة فاطر : 28.

"وَالْكِتَابِ"

المراد بالكتاب هنا والله أعلم هو القرآن ، لأن اليهود والنصارى إنما حكم عليهم بالكفر لأنهم لم يؤمنوا بالكتاب الذى أنزله الله على محمد ε مهيمنا على ما أنزله الله من الكتب على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو الكتاب الذى جمع الله تعالى فيه الخير كله لخلقه من بنى الإنسان ، وهو كلام الله القديم الأزلى النضر الذى لا يمل ، والكنز الذى جمع الله فيه غذاء الأرواح والعقول والأشباح. بين لنا فيه الغيب المصون الذى يجب أن نؤمن به ، وفصل ما يتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع المدنى والمجتمع العام من أول وضع النطفة فى الرحم إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . "لا تحصى آياته ، ولا تستقصى أسراره ، ولا تدرك حكم أحكامه".

ا يحدث حدث فى أى زمان ولا فى أى مكان ولا فى أى شأن إلا وفيه بيان ذلك مفصلا ، والحكم فيه مؤيدا ، يعلم ذلك من استحفظوا من كتاب الله وأقامهم الله أمناء عليه ، ويستنبط الحكم على كل الأحداث الزمنية أهل لاستنباط من المجتهدين الذين علمهم الله بعد أن وفقهم التقوى.

وما خالفت أمة أحكام هذا الكتاب إلا جللت بالذل والخزى فى الدنيا كما تراه الآن فى الأمم التى خالفت كتاب الله وسنة رسول الله، فأذلهم الله على يد أهل الكفر به فأستعبدوهم فوق أرض بلادهم وتحت سمائهم ، قال ε : قال الله تعالى : "إذا عصانى من عرفنى سلطت عليه من لم يعرفنى" وقال أبو هريرة : " إنما يسعد آخر هذه الأمة بما سعد بها أولها" وقال تعالى : **"وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ"**[1] أسأل الله أن يمنحنا ذكرى ما كان عليه سلفنا الصالح من التمكين فى الأرض بالحق ، مع ما كانوا عيه من القلة والفاقه ونحن الآن أكثر من أربعمائة ([2]) مليون مسلم ولا تساوى همتنا همة بلال بن حمامة رضى الله عنه.

"وَالنَّبِيِّينَ"

النبى مأخوذ من النبوة أو من النبأ لغة ، فالنبوة تفيد الارتفاع والنبأ هنا الخبر الصادق ، والنبى شرعا هو إنسان ذكر حر بالغ ، أوحى الله إليه بشرع يعمل به فى خاصة نفسه ، فإن أمره الله أن يبلغه لغيره فهو الرسول.

والأنبياء هم صفوة الله من خلقه الذين زكى الله نفوسهم فطهرت من ملابسة المادة ومن شوب الحظ والهوى ، حتى رسمت على جواهرها صور المعلومات الحقة ، من بدائع أبداع آيات الله ومن غرائب حكمته وعجائب قدرته . والرسل هم الذين عصمهم الله من الكبائر والصغائر المشينة ، فلا يتنزهون عما تقتضيه البشرية من أكل وشرب وقضاء حاجات الإنسان من نكاح ونوم وصحة وسقم وفرح وحزن وفقر وغنى مما لا ينقص المكانة البشرية ، ولكنهم عصموا من أن ينسب إليهم أو يقع منهم ما يغضب الله تعالى عليهم من كذب عليه سبحانه ، أو كتم ما أمرهم بتبليغه ، أو ما أشبه ذلك.

"وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى"

فى هذه الآية ميزان الفضائل ومعرفة مقدار جواهر النفوس ، فإن المال قد يكون أعز من النفس عند بعض الناس ، لن الهرج والمرج والمنازعة والفتن العمياء التى تزهق فيها النفس سببها المال والحرص عليه ، ولا تجد فتنة فى الأرض بين أفراد أسرة واحدة أو بين مجتمع فى مدينة أو بين الدول وبعضها إلا وسببها المال.

ولذلك فإن الله سبحانه بين فيه البيان كل البيان فيما كان من ميراث أو غنيمة أو تجارة أو زراعة أو صناعة ، ولم يذكر فى كتب الشريعة ذنب للهوى والطمع إلا والمال سببه ، ذلك لأن وجود المال يطغى الإنسان ، قال تعالى : **"كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى"**([3]) .

ولما كان للمال هذا المقدار فى قلوب المجتمع الإسلامى ، ولم يحفظ الله تعالى من شر المال إلا من حفظهم من فتنه وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام وورثتهم ، لذلك بين الله تعالى فى المال الحقوق الواجبة على من أغناهم

([1]) سورة الذاريات : 55.

(2) كان عدد المسلمين أربعمائة مليون عندما أملي السيد / الأمام هذا التفسير.

([3]) سورة العلق : 6 – 7.

الله فقال سبحانه : "وأتى المال" أى أنفقه بشرط أن يكون المال محبوبا له لشبابه وطمعه فى الحياة مع الضرورة إليه كما قال سبحانه : "على حبه" أى على حب المال ، وحبه مبين بما بينت لك . .
ثم ذكر سبحانه الوجوه التى ينفق فيها المال . بقوله تعالى : **"وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى"** .
وابتدأ بذوى القربى لأن منحهم المال يقربك من الله تعالى لأنك تصدقت ووصلت رحمك بعمل واحد ، و "ذوى القربى" من كانت قرابته ينسب والديك أو جديك ، وأول ما يقرب به العبد من المال بذله لذوى القربى ليقيم الحجة أن قلبه مجمل بالرحمة لصلته لرحمه ، و "اليتامى" ذكر الله اليتامى بعد ذوى القربى لأن اليتيم جمله الله بذل ومهانة لا ينظر إليه ناظر إلا رحمه ، فكان فى المنزلة الثانية بعد ذوى القربى.
والذى يعطف على اليتيم يكرمه الله فى حياته ويكرمه يوم القيامة ويكرمه فى أولاده بعد موته ، واليتيم من بنى الإنسان من مات أبوه ، وفى الحيوانات من ماتت أمه ، لاحتياجه للعناية ، وقد يحتاج من ماتت أمه من بنى الإنسان إلى العناية أكثر ممن ماتت أمه من الحيوانات ، إذا كان أبوه فقيرا أو قاسى القلب ، واليتيم عند السالكين هو من لا مرشد له يزكى نفسه بالعلوم والرياضيات المشروعة ، ويبين له فى سيره سبل الله تعالى حتى ينجو من عذاب الله ويفوز برضوانه وهو أحق وأولى بالرحمة.

"وَالْمَسَاكِينَ"
المسكين من أسكنه الفقر إلى الأرض ، كما أن الفقير من كسرت الحاجة فقارة ظهره – ولك أن تقول : المسكين من لا مال له يسد به ضروراته، والمساكين جمع مسكين ، وإعطاء المال للمسكين برهان على أن المعطى جمله الله بالعطف والرأفة والرحمة وخلقه بأخلاقه الكريمة.

"وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ"
"وابن السبيل" هو المهاجر أو المسافر فى طاعة ، كطالب العلم المجاهد فى سبيل الله والحاج والماشى فى مناكب الأرض لتحصيل ضرورياته "والسائلين" السائل هو من أحوجته الضرورة لفقد عضو أو لضياع مال أو لدين فادح ، فلم يجد بدا من استجداء ما فى أيدى الناس ، ومثل هذا أن كان صادقا فى دعوه فأغاثته تلبية لله تعالى – "وفى الرقاب" اى وفى فك الرقاب ، وظاهر اللفظ يعين المكاتبين أى أن المال يعطى فى فك رقبة المكاتب من الأرقاء ، وقد تأول بعضهم هذه الآية بفك الأسير والغريم ، لأن الرقبة مأخوذة من الرقابة وهى مؤخر العنق ، والمكاتب أو الأسير والغريم والمقيم فى أرض الحرب محتاجون إلى فك رقبتهم وأن كانت فى المكاتب أظهر.
بين الله لنا الأنواع التى طلب الله منا ايتاء المال فيها بعد إيتاء الزكاة ، فأعلمنا سبحانه وتعالى أن فى المال حقا غير الزكاة على المؤمنين لإخوانهم المذكورين فى هذه الآية ، وفهم بعضهم أن المال ليس فيه حق إلا الزكاة فقط ولكن لكل ما بينه الله فى تلك الآية حق فى المال غير الزكاة.
وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على هذا بسند الإمام بن جرير ، قال : "قالت فاطمة بنت فيس : يا رسول الله أن لى سبعين مثقالا من ذهب ، فقال صلى الله عليه وسلم : اجعليها فى قرابتك" وبه إليه قال : عن فاطمة بنت قيس أنها سمعته يقول : -تعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم - " أن فى المال لحقا سوى الزكاة" وبه إليه قال مزاحم بن زفر : كنت جالسا عند عطاء فأتاه أعرابى فقال له : أن لى أبلا فهل على قيها حق بعد الصدقة ؟ قال نعم ، قال : ماذا ؟ قال : "عارية الدلو وطروق الفحل والحلب" سئل رسول الله ε : "اى الصدقة أفضل ؟ قال : جهد المقل على ذى القرابة الكاشح" وفى المال حق للضيف وأن دخل فى ابن السبيل . وهنا يجب علينا أن نبين لأهل الثراء ما يجب عليهم فى أموالهم.
معلوم أن لله تعالى أبتلى عباده ببلايا مختلفة امتحانا لقلوبهم ولإيمانهم ، ومن أشد الابتلاء وفرة المال والعافية والأولاد ونفوذ الكلمة والجاه ، فمن حفظ الله فيما أنعم به عليه فأعان بماله من ذكرهم الله فى تلك الآية ونفع بجاهه الضعفاء والمظلومين وبعلمه أهل الجهل الطالبين للعلم وأدخل السرور على قلوب عباد الله بتيسير حوائجهم كتبه الله أمينا عنده ، وجعله كنز غنى وعلم فى الدنيا ، وقبله عنده يوم القيامة ومن بخل بشىء من تلك الخيرات على مستحقيها سلب الله منه النعمة وعذبه يوم القيامة ، بل وكل من عصى الله بنعمة من نعمه عليه سلبها الله عنه وعذبه بها يوم القيامة .

وقد ورد بأن فى المال حقا سوى الزكاة بدليل **"وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ"**.

"وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ"

وقد بينا فيما سبق معنى إقامة الصلاة ، ولا نخلى كتابنا هذا من مزيد ببيان – قالوا : قامت السوق أى راجت ونال أهلها ما يسرهم ، فإقامة الصلاة رعاية المصلى الأدب مع الله تعالى ف حال قيامه بعبادته ، ولا يكمل الأدب إلا إذا صلى بقلبه وروحه وجوارحه المجترحة حتى يكون العبد فى صلاته حاضرا مع الله تعالى حضور خشوع ورهبة ورغبة وخوف ورجاء ، متبرئا من حوله وقوته ، قائما بقيوم ، ملاحظا جماله العبدى أمام ربه القوى ، خاشع القلب والجسم ، يتلقى بقبله عن ربه ما يورده عليه سبحانه حال مواجهته ، متشبها برسول الله ε فى كل الأعمال القلبية والجسمانية مع نية وقول وعمل ، مع المحافظة على أوقاتها ووسائلها وأركانها ومع المداومة والاستمرار عليها.

"وَآتَى الزَّكَاةَ" هو اخراج القدر المعلوم شرعا من مال توفرت فيه شروط النصاب ومضى الحول ، وفى صاحبه البلوغ والعقل والإسلام فإن صاحب المال لا يكلف بالزكاة ولكن يكلف بها وصيه فى حال صغره أو جنونه، وقد بين القرآن المجيد الأنواع التى يجب ويحق أخذ الزكاة منها ، وتارك الزكاة كتارك الحج والصلاة ،وتفصيل ذلك يأتى بعد تأويل الآى المتضمنة ذلك.

"وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا"

الجملة معطوفة بواو المدح على قوله تعالى : **"وَآتَى المال"** وإن فصل بينهما : "أقام الصلاة وآتى الزكاة" فإن ذلك من فصيح اللغة ، وجائز أن تقول والموفين بالنصب على المدح – والعهد أنواع ، وعهد الله ما عاهدنا عليه فى يوم **"أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى"**[1] وفيما إنزله الله على رسوله ε فقبلناه بالسمع والطاعة من أوامره تعالى ونواهيه جلت ذاته ، وعهد رسول الله ε ما عاهدنا عليه من العمل بسنته ونصرته ε ، ومن تجديد ما أندرس من معالم السنة المطهرة ، وعهد الوالدين أن نبرهما ونصل الأرحام الماسة بهما، والعهود التى علينا فى معاملاتنا بعضنا لبعض فمبادلاتنا ومعاوضاتنا.

فالموفون بعهدهم هنا هم الذين اجتباهم الله لأن يكونوا عباده المخلصين . ولا وفاء بالعهد إلا بعد العلم . والعلم أولا بالذات أى بالنفس لنه ينتج العلم بالرب جلا جلاله ، قال ε : "من عرف نفسه فقد عرف ربه" والعلم بالله بعد ذلك يكون بالأدب مع الله ورسوله ε ، ومجاهدة النفس فى ذاته تعالى ليقوم بالوفاء بالعهود التى ذكرنا أنواعها ، ومن وفى الله بما عاهد وفى الله له ما وعد ، والوفاء بالعهد ميزان جوهر النفس فإن الله خلق نفوسا من نور جماله ، وهى النفوس التى زكاها فأفلحت قال تعالى : **"فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى"**[2].

وقوله تعالى : "إذا عاهدوا" أما لفظة "إذا" فهى ظرف للزمان المستقبل ، والمعاهدة هى المفاعلة بين أثنين ، يعنى إذا حصل بينهم وبين الله عهد أو بينهم وبين رسول الله ε ، أو بينهم وبين لهم ملابسة بهم فى معاملة أو مصاهرة أو غير ذلك.

"وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ"

قد بينا معنى الصبر فيما سبق . أما البأساء فالفقر المدقع وما أشبهه ، والضراء المرض المفجع وما أشبهه ، وهما على وزن فعلاء من اسم لا يصاغ منه اسم التفضيل.

"وحين البأس" يعنى حين الهرج والمرج وإرهاق الدماء بالحروب . هنا يثنى الله تعالى على من جملهم بالصبر ، والصبر هو سرور النفس بما يؤلم فى طاعة الله تعالى ، ولذلك فإن الصبر لا يكون إلا فى البأساء والضراء،وحين البأس ،وما عدا تلك المراتب فليس بصبر.

([1]) سورة الأعراف : 172.

(2) سورة النجم : 32.

وفى الحديث بسند البخارى فىكتابه : "الأدب المفرد" قال ε : "من شكا لمؤمن فقد شكا لله ورسوله ، ومن شكا لكافر فقد شكا لله ورسوله" وكفى بالصبر شرفا أن الله تعالى يقول : **"إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"**[1] ورجل بتحمله تعبا فى طاعة الله يكون الله تعالى معه ، من الذي يساويه فى العالم ؟ إلا من كان عند ربه لانكسار قلبه أو عند الله.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا"

حكم من الله تعالى لمن أثنى عليهم بالصفات التى تقدمت فى هذه الآية بقوله سبحانه : "أولئك الذين صدقوا" اى هؤلاء الذين جملتهم بما أحبه من الصفات هم الذين صدقوا – ى سارعوا إلى القيام بما أمرت ، والبعد عما نهيت بصدق أى بقلب ، لأن الصدق من أعمال القلوب التى متى تجمل بها القلب كان العبد صادقا فى قوله صادقا فى أعماله صادقا فى أحواله – ومتى أخبرنا الله عنه أنه صادق كتب عنده صديقا ، ومن كتبه الله تعالى صديقا رفعه إلى منازل الأنبياء ، قال تعالى مثنيا عليهم : **"وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ"**[2].

"وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"

أى أن هؤلاء هم المتقون ، والتقوى شدة الخوف من الله لأنها تنتج دوام المراقبة له سبحانه ، وتجعل التقى يتوقى الوقوع فيما يكرهه الله تعالى وقاية تجعله حاضرا مع الله . مشاهدا جلاله العلى وعظمته وكبريائه طامعا فى جماله حتى يكون وسطا وبذلك تتحقق التقوى ، فلا خوفه يوقعه فى اليأس والقنوط من رحمة الله ، ولا طمعه يجعله يتعدى جانب الخوف . وهذه البشرى من الله تعالى فى الحياة الدنيا هى ما أخبرنا الله بها بقوله تعالى : **"لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ"**[3] وللخبر من الله تعالى قدره فى قلوب أهل الإيمان به سبحانه.

قوله تعالى :[**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (178) **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"**(179)]

قوله تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى"**

بعد أن بين الله تعالى أنواع البر فى المال وفى العبادات والأخلاق بيانا كشف الحجاب عن تلك الحقائق التى بعلمها والعمل بها يكون العالم العامل صادقا تقيا عند الله تعالى ، أخذ سبحانه يبين لنا الأحكام فى الجنايات الكبرى بيانا يكون بعلمه والعمل به النجاة من سوء الجزاء يوم القيامة ، لأن الحدود جوابر على المعتمد.

وسبب نزول هذه الآية نسخ ما كان عليه الأمم قبلنا من التشديد والتضييق بحكم تعم به الرحمة والإصلاح العام ، ولمحو ما كان عليه الجاهلية من الظلم والتظالم فى القتل ، وكان الحكم فى القتلى عند اليهود أن يقاد القاتل فيقتل كما قال تعالى : **"وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ"**[4] وكان الحكم عند النصارى العفو كما قال فى الإنجيل : "من لطمك على خدك اليمن فحول له الأيسر".

أما أعمال الجاهلية فكان الحكم فيها مراعاة قوم المقتول قوة وضعفا ، فان كان المقتول من قوم أقوياء ، قتلوا به عدد كثيرا ، ولو كان عبدا منهم قتلوا به حرا ، ويقتلون بالمرأة الرجل ، وقصة كليب الذى قتله بنو بكر بن وائل مشهورة ، فإن قومه أهلكوا القبيلة به تقريبا.

([1]) سورة البقرة : 153.
([2]) سورة الحديد : 19.
(3) سورة يونس : 64.
([4]) سورة المائدة : 45.

فمحا الله هذا الظلم ، ونسخ ما كان عليه اليهود والنصارى ، وحكم لنا سبحانه أن يكون لقصاص فى القتلى ، كما بين سبحانه الحر بالحر من غير زيادة ، والعبد بالعبد من غير تجاوز إلى غيره ، والأنثى بالأنثى ، فكان الفرض الذى كتبه الله علينا أن لا تتعدى فى القصاص القتل فقط ، ثم وسع لنا بعد ذلك رحمة بنا وصفاء لقلوبنا وهو أرحم الراحمين.

"فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ"

أى من ولى المقتول بأن عفا عنه أن يقتله وقبل منه الدية "من أخيه" شفاء لكوم القلوب فجعل ولى المقتول أخا للقاتل ، وفى هذا الأسلوب الحكيم كمال اللطف بنا ، كما قال هارون لموسى فى وقت شدة غضب موسى لله : "يبنؤم" (1) فحلت الكلمة من قلب موسى محل العطف والرحمة.

والمعنى أن الله يأمرنا أن ولى المقتول : له الحق فى أن يقود بقتل القاتل ، وفى أن يعافيه من القتل ويأخذ الدية ، "والدية مائة ناقة" ، ثم أمرنا بحسن المعاملة فى المطالبة والقضاء بأسلوب الحكيم أيضا تأليفا للقلوب وشفاء لها من مرض حب الانتقام ، ومرض الطمع والحرص على المال من جانب القاتل خصوصا إذا كان قويا فقال تعالى : **"فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ"**.

"فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ"

أى فليطب ولى المقتول المال بالمعروف الذى بسببه يسارع القاتل إلى أرضائه ، ويدوم بعد ذلك صفاء الإخاء الإسلامى ، ثم أمر القاتل بمثل هذا الأسلوب الحكيم فقال تعالى : "وأداء إليه بإحسان" وفى تلك الآية من على البلاغة ما يعجز فطاحل الفصحاء فإن قوله "بالمعروف" أى بحالة يعرفها اى يألفها الناس ويأنسون بها وتلين بها قلوبهم – وفى قوله "فأتباع بالمعروف" أى مطالبة لا بإلحاح ولا بملازمة كملازمة الغريب ، وقوله "بالمعروف" أى بلطف فى العبارة من غير أن يثير الضغائن ويجدد الأحقاد.

"وأداء إليه بإحسان" برد وسلام على القلوب الملتهبة بنار الحزن على ما فقدت ، بل شفاء يعيد لها صحتها الأخلاقية ، فإن قوله تعالى : "بإحسان" أى بحالة بالغة فى اللطف وحسن العبارة تنتج الفائدة المنشودة من تلك الرحمة التى تفضل الله بها علينا لتدوم مسرة الإخاء الإسلامى بين جماعة المسلمين.

"ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ"

أى ذلك الحكم الذى بينه الله تعالى فى هذه الآية من قوله سبحانه "كتب عليكم القصاص" الى قوله تعالى : "وأداء إليه بإحسان" أنزله الله تعالى ناسخا لما تقدمه من الأحكام.

قوله تعالى : "ذلك تخفيف" اى هو تخفيف من ربكم أى أنه تفضل علينا جماعة المسلمين فوضع عنا ما شدد به على غيرنا من الأمم السابقة تخفيفا علينا ، وفراغا لقلوبنا من عناء الهموم التى تضيق بها القلوب أما بالقتل قودا أو بقاء نار الحقد فى القلوب ، أو بالعفو قهرا وبقاء الغل فى القلوب ، فوسع الله لنا فجعل لولى القتيل الحق فى القود قتلا ، وفى العفو عن القتل وأخذ الدية وفى العفو مطلقا من غير ديه لبقاء المودة ، ودوام صفاء الحياة . وفى قوله تعالى : "ورحمة" أى أن الله تعالى جعل تلك الأحكام رحمة بنا ليفرغ أبداننا وقلوبنا من التربص والعناد وخوف بعضنا من بعض ، فنديم طاعة الله والعمل بمحابه ومراضيه والمسارعة إلى القيام بالخير العام لجميع إخواننا المؤمنين.

"فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ"

يقول الله أن كل ولى للمقتول قتل قاتل وليه أو أخذ منه الدية أو عفا عنه مطلقا ، ثم وقع فى القتل فالحكم عليه القتل قودا من غير أن تقبل منه دية ولا أن يمنح عفوا وهذا معنى قوله تعالى : "فله عذاب أليم" يعنى عذاب مؤلم. ولو قال قاتل : أن هذا المعتدى اختفى وقتل خصمه فهل هذا العذاب يكون فى الآخرة فقط ؟ أم يكون فى الدنيا والآخرة؟ والجواب أن هذا القاتل اختفى عن الخلق ولكن لم يختف عن الحق ، فإنه خالف أمره سبحانه ووقع فى أكبر كبيرة بعد الكفر ، والله سبحانه وتعالى يكره الظلم من نفسه وهو رب العالمين فكيف يرضاه من غيره ؟ وهو وأن أمهل لا يهمل.

وهذه الآية يقظة لقلوب الغافلين الذين يظنون أنهم يجدون خلوة فى نفس من الأنفاس ، ولا يقول بوجود الخلوة إلا غافل فإن الله يقول: **"وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ"**[1] ومن فرح بمعصية الله أحزنه الله ومتى يتحقق الإنسان أنه فى خلوة حتى يفعل ما يشاء.

"وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"

يبين الله تعالى حكمة حكم القصاص بأقصر أية عجز فطاحل البلغاء من أصحاب المعلقات على الكعبة أن يأتوا بمثلها . وأفصح كلمة قالوها فى هذا المعنى : "القتل أنفى للقتل" وفي كلمتهم تكرار لفظ القتل ، وفيها نقص بيانى وهو أن القتل لا يكون أنفى للقتل . وكلمة الله هى العليا ، وقوله تعالى: "ولكم فى القصاص حياة" كأنه يبين الحكمة فيقول : أنكم أن تركتم القصاص وهو قتل القاتل أحرق الغل القلوب فثأرت ، فجرت الدماء أنهارا بتعطيل حكم القصاص.

ولو قال القائل : القصاص قتل ، وكيف تكون فيه الحياة ؟ والجواب أن مراد الله سبحانه وتعالى الرحمة بالمجتمع الإنساني ، فإنك إذا حكمت بحكم الله فقتلت القاتل أن لم يعف أولياء المقتول أثلجت صدور من أحرقت قلوبهم نار الغل على من قتل قتيلهم ، وربما كان بسبب ذلك هرج ومرج يفسد القلوب ويفرق المجتمع ، وهذا معناه والله أعلم – يعنى أن القصاص بقتل القاتل حياة لفئة كثيرة ، بل وراحة لقلوب المجتمع المصاب بهذا البلاء، بل وصفاء لهم من الهرج والمرج والفتن.

"يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"

يعنى يا أهل العقول التى تعقل عن الله أمره ونهيه وتعلم أن أحكام الله تعالى أنزلها لمصالح العباد ، والله تعالى يخاطب أولياء الأمور وأولياء المقتول وعصبة القاتل.

"لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"

تقدم الكلام على معنى "لعل" فى القرآن فإنها أتت على غير بابها اللغوي ، وذلك لن "لعل" للترجي والمترجي يجهل الأمر وقوعا وعدما . وتنزه الله عن أن يجهل الغيب وأخفى من الغيب فلعل هنا بمعنى اللام وتقدم الكلام على التقوى.

قوله تعالى :[**"كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** (180) **فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (181) **فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**(182).]

قوله تعالى **"كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ"**

كتب هنا بمعنى فرض . وقوله "حضر أحدكم الموت" أى قارب الموت قربا لا يظن بعد سلامة بأن يكون سقمه يدل على الموت وأن عاش بعده سنة، كما تقول لمن قارب البلد وصلت ، لأن الموت إذا حضر فى أنفاسه أرتفعت التكاليف.

قوله تعالى **"الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ"**

"أن ترك خيرا" أى مالا ، ولا يكون المال خيرا إلا إذا بلغ ألف دينار وقال بعضهم ثلثمائة إلى ما فوق ، فإن لم يصل المال إلى هذا الحد لم تجب الوصية لأن الله تعالى قال : "أن ترك خيرا" وقال بعض العلماء الوصية واجبة قل المال أو كثر.

"الوصية للوالدين والأقربين" بيان من الله تعالى لعباده ليعلمهم مقدار الوالدين والأقربين وأن الوصية واجبة لهم ، ورأى بعض العلماء أن هذه الآية محكمة مع أن الوارث لا وصية له وقد نسختها فى الوالدين آية النساء فى الميراث ، وأذن فالوصية واجبة للأقربين.

([1]) سورة الحديد : 4.

ولو أن الإنسان يوصى بالثلث للأجانب لوجب على أوليائه أن يخرجوا ثلثى الثلث للأقارب والثلث الثالث للأجانب ، وأن كانت الوصية شرعا تنفذ بنص حكم الموصى ، والأقربون أنواع منهم ما قرابتهم للوالدين أو للجدين ومن فوقهما كل بحسب قرابته وفى تلك الآية بيان ما يحبه الله من البر والصلة.
وهنا سؤال : هل العلماء لو أوصى الرجل للأجانب عليهم أن يردوا ثلثى الوصية لأولى القربى ؟ قال بعض العلماء أحب إلى أن يوصي للوالدين والأقربين. ولكنى أنفذ ما أوصى به الميت.
قوله تعالى **"بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ"**
بالمعروف أى بتعارف الناس شرعا وعقلا بحيث لو خالف المعقول بأن زاد عن الثلث أو أوصى لوارث أو حرم الوارث وأوصى لغيره فسيأتى بيانه – (حقا على المتقين) أى متعينا على أهل التقوى الذين يحكمون بما حكم الله به ولا يحتاجون إلى من يقهرهم على العمل بحكم الوصية ، وهؤلاء ينالهم خير الجزاء فى الدنيا والآخرة – أما من منع الوصية حتى قهر على تنفيذها فهذا لا أجر له.
قوله تعالى **"فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ"**
يبين الله تعالى عقوبة من يغير ما أوصى به الميت لوالديه وأقاربه الذين لا يرثون بعد موافقة الوصية للشريعة المطهرة بيانا يزعج قلوب الذين يغيرون وصية المورث : "فمن بدله بعد ما سمعه" أى غير ما أوصى به المورث وسمعه منه.
قوله تعالى **"فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ"**
أى عقوبته الشديدة فى الدنيا والآخرة على الذين يبدلونه ، أى أثمة واقع على الدين يغيرونه من ولى الموصى ومن أعانه من الورثة ، ولا عقوبة على من لم يتدخل بمساعدة أو نصرة لمن غير من الورثة وغيرهم ، وأن كان العالم بالمعصية الراضى بوقوعها شريك لعالمها إلا أن العالم الذى لا يقدر أن يرد الظلم وينكر هذا العمل بقلبه يغفر الله له ، لأن هذا أضعف الإيمان – قوله: "على الذين يبدلونه" والسياق سياق الإضمار أى عليهم بتعظيم العقوبة ولوقعها تأثير على القلوب.
قوله تعالى **"إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"**
ختم الآية بالخبر عن نفسه أنه سميع عليم مؤكدا ذلك بحرف التوكيد ، ليتذكر الناس أو الغافل بفقه هذه الآية الشريفة فتحصل لهما المراقبة ، التى يحفظهما الله بها من الوقوع فى تغيير الوصايا التى تتعلق بالأيتام وبذى القرابة ، وفى تغييرها معصية كبرى لله تعالى لأنها أحكامه سبحانه وفيها حقوق العباد.
قوله تعالى **"فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا"**
يبين الله لنا فى تلك الأحكام الاجتماعية البيان كل البيان حتى تقوم له الحجة سبحانه على خلقه ، وفى رعاية تلك الأحكام سعادة المجتمع الإسلامى فى الدنيا وفوزه بالنعيم المقيم فى الآخرة . وإنما أنزل الله على نبيه ε الكتاب لمصالح عباده فى الدنيا والآخرة.
وتأويل قوله تعالى : "فمن خاف من موصى جنفا أو إثما" محصور فى معنيين.
المعنى الأول : أن يكون الموصى فى حالة الموت وهو يوصى ومعه حال الوصية الولي بعده أو أهل الرأي الموثوق بذمتهم ، وأراد الموصى لمن بعد أن يجنف أى يميل فيوصى بأكثر من الثلث ، أو يوصى لوارث أو يوصى لغير ذى القربى ، أو بإثم فتعدى حدود الله فى الوصية ، فأصلح بين الموصى والموصى له فى هذه الحالة لا أثم عليه أى لا مؤاخذة.
والمعنى الثاني : أن يرى الوالى فى الوصية ميلا أو يعين بوصيته الخوارج أو أماكن إباحة المحرمات ، أو أثما بأن يوصى حرام أو يوصى لغير مسلم أو لبيعه أو لأهل الزندقة والمذاهب فأصلح الوصية بعد موت الموصى "فلا أثم عليه" أى فلا مؤاخذة عليه . وفى هذا الحكم وجوب رد التصرفات المخالفة للشريعة بالضرب على أيدي المبذرين أموالهم فى غير الشريعة.

قوله تعالى **"فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ"**
الإصلاح بين الموصى والموصى له بعد موت الموصى ورد الوصية إلى ما أمر الله به ، مع بيان الحكمة فى الحكم حتى يقبل الموصى له والورثة حكم الله تعالى برضاء ليفوزوا بثواب الله تعالى ، وإنما يصلح بينهما القبول لحكم الشخص الذى يمكنه تنفيذ الحكم مع صفاء القلوب. "فلا إثم عليه" أى فان عمله الإصلاح فى حياة الموصى أو بعد موته ، مما يدل على مخالفته لحكم الوصية من الموصى ، فإن نيته وإخلاصه فى عمله تجعل هذا العمل الذى يظهر أنه مخالف للوصية غير مؤاخذ عليه ، قال ε : "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى".
قوله تعالى **"إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**
معلوم أن الجنف هو الميل خطأ ، والإثم هو الميل عمدا . ولما كان الموصى قد يخطئ فى الوصية للحالة النفسية عند الموت أو يتعمد الخطأ أيضا ، ويقوم المصلح فيصلح الجنف ، والإثم قبل موته فإن الله يغفر للموصى ويرحم المصلح الذى سعى فى الإصلاح.
وكذلك إذا أصلح الولى أو الموصى له الوصية بعد موت الموصى فإن الله يغفر للميت ويرحم الموصى له بسبب ما أبقاه الميت لنفسه من الخير بوصيته بعد الإصلاح ، والغفر هو ستر الذنوب وهو أن ينسى الله تعالى الحفظة وينسى جوارح العبد ذنوبه حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب كما ورد فى الحديث – والرحيم هو الذى ينعم بجلائل النعم على عبده فضلا منه أو جزاء له على عمل البر الذى وفقه سبحانه له.

قوله تعالى :[**"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (183) **أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (184) **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"**(185).]

تمهيـــــد:
يبين الله فى أول هذه الآيات أصل الدين الذى من أجله خلق الله السماوات والأرض ، من أول قوله تعالى : "وألهكم أله واحد" – وأيد هذا الأصل بالبراهين والأدلة اليقينية والعقلية والمنطقية ، بعد تأييدها الأكمل بكلامه سبحانه ، وهو الحق الذى يقبله العقل المجرد من الهوى ، وأقوى دليل قاطع لكل من جعل الله له نورا فى قلبه وتأييده بالأدلة المحسوسة بعد الخبر عن وحدانية الله تعالى ، وذلك بيان لأهل العقول السليمة والحس الصحيح.
وأما من ردهم إلى أسفل سافلين المادة ولوازمها فإنهم لا يقام لهم وزن فى هذا المقام العالى لأنهم أضل من البهائم السائمة ، وقد بين الله خبث نفوس من لم يقبلوا بيان الله تعالى بقوله تعالى : **"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا"** الخ الآية إلى أن أخبرنا سبحانه عما نالهم يوم القيامة ، ثم أخذ جل جلاله يبين الناس ما تفضل به عليهم فى الأرض من الطيبات ، وأنه سبحانه أحله لهم ليقوم الإنسان إلى ربه سبحانه فيعبده ولا يجحده ، ويطيعه فلا يعصاه ، ويذكره فلا ينساه ويشكره فلا يكفره.
ثم بين سبحانه نفوس أهل الكفر بالله تعالى العنادية بقوله سبحانه : **"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ"** الخ الآية . فقصم ظهورهم بالحجة البالغة ، ثم ضرب مثلا بين لنا فيه حقائق أعداء الله تعالى أنها أضل من البهائم ، ثم بين سبحانه أنواع البر فيما يتعلق بالعبادة البدنية والمالية والروحانية والأخلاقية مفصلا ، فبين الصلاة وتفضل فأخذ يبين الصيام فقال سبحانه وتعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"**

قوله تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ"**
أى : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله . "كتب عليكم الصيام" أى فرض ، والصيام لغة مصدر صام وهو الترك ، والصيام شرعا هو الإمساك – ومن تدبر الصوم فعلم أن الله تعالى حرم علينا فى الصوم ما أباحه لنا فى الفطر ، الأمر الذى يقتضى البعد بالكلية عما حرمه علينا فى الفطر من صغيرة وكبيرة.
فقول الفقهاء الإمساك عن شهوتى البطن والفرج يقتضى حبس جميع الجوارح عن الإستطالة فيما أباحه الله تعالى من الضروريات ، فلا يسمع ما يكره سماعة شرعا ولا يتكلم ولا يشم ولا يمس إلا بقدر الضرورة مع مراقبة أنفاس الصوم واستحضار أنه صائم.
ومن أمسك عن شهوتى البطن والفرج وتوسع بالجوارح فيما أباحه الله أو تعدى حدود الله تعالى فقد انتهك حرمة الصوم ، وفاته من أجر الصيام بقدر ما أفرط به جوارحه – وهذا هو الصيام شرعا -.

قوله تعالى **"كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"**
ووجه الشبه جائز أن يكون فى حكم الفريضة فقط ، وجائز أن يكون فيها وفى تعيين الزمان والعمل ، فإن كان الأول فيكون تعيين زمان صيامنا وبيان مقداره فى كل يوم خاصا بنا وهذا ما يظهر بدليل قوله : "أياما معدودات" وبما ورد أن الصيام كان أول فرضه ثلاثة أيام من كل شهر ثم نسخ بقوله تعالى : "شهر رمضان" وبدليل الفدية التى جعلها الله رحمة بنا فى أول عهدنا بالصيام بعد أن أباح للمريض والمسافر القضاء فى هذه الآية ، وذكر المريض والمسافر أيضا بيانا للناسخ والمنسوخ.
وإن كان الحكم الثانى وهو أن وجه الشبة المطابقة فى كل معانى الصيام ، فيكون الذى فرض علينا هو ما فرض على الذين من قبلنا وهو شهر رمضان ، وكان الصائم يترك الأكل والنكاح من صلاة العشاء إلى صلاة العشاء حتى خفف الله عنا بقوله تعالى : **"وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ"** وبقوله سبحانه : **"أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ"** الخ الآية . وقد ورد هذان التأويلان عن الأفراد من الصحابة "لعلكم تتقون" أى تتقون من الوقوع فى المفطرات فتنالوا بتقولكم رضوان الله تعالى.

قوله تعالى **"أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ"**
منصوبة على الظرفية بنزع الخافض أو أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره أن تصوموا أياما معدودات ، وتأولها عطاء أنها صيام ثلاثة أيام من كل شهر بحجة أن الشهر لا يقال له أياما معدودات وقال بعضهم : أن الأيام المعدودات هش شهر رمضان ، وأن الثلاثة أيام التى كان يصومها ε قبل نزول الآية كانت تطوعا ، وهذا هو الأولى لسياق الآية ، لأنه لم يرد نص صريح ولا برهان على أن الله فرض علينا أولا صيام ثلاثة أيام ، وعليه عمل الأمة سلفا وخلفا.

قوله تعالى **"فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ"**
يبين الله لنا أن المريض الذى لا يقوى على الصيام خوفا من تأخير برء أو زيادة مرض ، فالحكم أنه يفطر ويقضى عدة الأيام التى أفطرها بعد شفائه ، وأن المسافر الذى لا يقوى على مشقة السفر يفطر ويقضى عدة الأيام التى أفطرها ، ملاحظا حرمة الشهر فى بقية الجوارح حتى يكون من أهل التقوى الصائمين بكل الجوارح إلا البطن.

قوله تعالى **"وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ"**
رفع الله تعالى عن المريض وعن المسافر مشقة الصوم رحمة بهما ، وخفف عمن افتتحهم بفرض الصيام فرخص لهم فى الفدية حتى نسخ هذا الحكم الآية التالية.وجائز أن يكون طاق يطيق قام به بسهولة ، وأطاق يطيق كعسر عليه أى صعب كالشيخ الهرم وكالمرأة الحالم والمرضع أن طال حملها ورضاعها وظهر ضعفها ، أو كمن لا يجد محلة يأوى إليها عند فطره وسحوره حتى يجد ، فإن وجد صام بقية الشهر وقضى عدد الأيام التى أفطرها . ويكون حكم هذه الآية لم ينسخ لمن ذكرناهم.

قوله تعالى **"فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ"** الفدية هى ما يفديه المفطر بدلا عن صومه للمسكين طاعة لحكم الله تعالى ، والفدية هى صاع من بر أو شعير أو طعام . ولفظة فدية مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ ملحوظ أى فحكمه فدية ، أو مبتدأ لخبر محذوف تقديره فعليه فدية.

قوله تعالى **"فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ"**
والتطوع هو نوافل البر ، والمعنى أن الله يرغبنا فى عمل الخير فى رمضان بأن من أطعم مسكينين عن اليوم أو أكثر ذلك تطوعا منه مقبولا ، وقد بشر المتطوعين بأن التطوع خير لهم عند الله ، ووعد الله العبد بالخير لا تعلم نفس قدره
قوله تعالى **"وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"**
يبين الله تعالى لنا العمل الأفضل لديه بعد أن رخص للمريض والمسافر فى الفطر وكلفهما بالقضاء لأن القضاء يسقط العقوبة ، ثم رغبنا فى الأفضل فقال وصيام المريض والمسافر خير له لينال فضل صيام رمضان فى رمضان . **"إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"** أى تعلمون خير الخيرين فتسارعوا إليه وهو الصيام.

قوله تعالى **"شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ"**
عين الله لنا زمان فريضة الصوم بعد أن قال سبحانه : **"أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ"** ولك أن تقول أنه لمبتدأ محذوف أو مبتدأ لخبر محذوف ، ومعنى شهر : الشهرة . لأن الشهر مواقيت لمصالح الناس وقضاء حوائجهم.
ومعنى رمضان مأخوذ من الرمضاء التى ترمض فيه الفصال من حرارة الصيف وسمى بهذا الاسم لأنه فى رمن الصيف حال التسمية –وجائز أن تقول أنه أسم من أسماء الله تعالى . وجائز أن تقول ترمض فيه معاصى العباد أى تزول بالصيام.

قوله تعالى **"الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ"** أى الموصوف بإنزال القرآن ، ومعلوم أن القرآن أنزل نجوما متفرقة فكيف يصح أن يكون أنزل فى رمضان؟ – والجواب- : أن القرآن نسخه السفرة الكرام من أم الكتاب ليلة النصف من شعبان إلى ليلة الرابع والعشرين من شهر رمضان ، وأنزل إلى سماء الدنيا فى الليلة الخامسة والعشرين منه – وجائز أن يفتح الله إنزال بعضه فى رمضان فيكون كإنزال الكل.

قوله تعالى **"هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ"**
"هُدًى لِلنَّاسِ" أى بيانا لما فيه سعادة العالم فى دنياهم وأخراهم وفى مصالحهم الاجتماعية.
"وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ" أى مبينة للحقائق التى بها تزكية النفوس وتثقيف العقول ، وعمارة القلوب بالغيب المصون الذى ترتسم أسراره على جواهر النفوس . وهذا معنى : "من الهدى" وقوله : "والفرقان" أى الآيات الفارقة بين الحق والباطل فيما يتعلق بالأخلاق والآداب الاجتماعية والمنزلية وبالمجتمعات فى المدن وبالمجتمع العام الإسلامى ، وما يتعلق بذلك من أحكام حتى المعاملات التى تقتضي المعاوضات والمفاوضات، وقد ينتج منها المعارضات ، فبهذا الفرقان يظهر العدل والميزان.
فهذا الكتاب الذى أنزله الله على نبيه عليه الصلاة والسلام جامع لما يلزم الفرد والمجتمع من عقائد التوحيد ومن عبادة الله تعالى ، ومن أخلاق ومعاملات من أول وضع النطفة فى رحم الأم إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.
قال على عليه السلام : "لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله" وإنما سعد سلف الأمة بالخير بالعمل بما أنزل الله على نبيه ε ، وما ذل من ذل من الخلف حتى تمكن منهم من كانوا بالأمس عبيدا يباعون فى أسواقهم من بنى الأصفر إلا بمخالفة هذا الكتاب المجيد . قال أبو هريرة رضى الله عنه : "إنما يسعد آخر هذه الأمة بما سعد به أولها.

قوله تعالى **"فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ"**
أى من أدركه الشهر وهو بين أهله فالحكم صيامه . وقد تعينت فريضة صوم رمضان بقوله تعالى : **"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ"**وبقوله سبحانه هنا : **"فَلْيَصُمْهُ"**.
وفى تلك الآية إشارة روحانية ، وهى أن تلقى هذا الكتاب المجيد لا يكون إلا بالروح المجردة من ملابسة متقضيات الهيكل الإنسانى ، وإنما تحجب الروح بميل هذا الهيكل إلى لوازمه الضرورية والكمالية وحرصه على تحصيلها ، وبذلك تحجب الروح عن مكاشفة الغيوب بشغل الجوارح فيما يدعو إليه الجسم ، وأمرنا الله بصوم الشهر الذى أنزل فيه الكتاب لأن الصيام رياضة تصفو بها النفس فتتلقى أسرار القدس ، لأن تلك الأسرار العلية لا تجانس المادة ولوازمها ، ففرض الله علينا تزكية النفس بالصيام لتتأهل لقبول تلك الأسرار.
ومن هذا نعلم أن السالك إلى الله تعالى يجب أن يجعل له رياضة خاصة بجهاد قاهر يكبح به جماح النفس من الطمع فى غير مطمع مما أباحه الله تعالى لنا ، مما يقوى به الدم وتنتفخ به العروق ويجعل الإنسان كالسبع الضارى لا يتسلى عن مألوفاته ، وقد عين الله تعالى زمن الصيام محدودا بعد أن أخبر عنه فى الآية السابقة بأيام معدودات ، ولم يرد حكم صريح يعين عددها وزمنها إلا هذه الآية.

قوله تعالى **"وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ"**
تقدم تأويلها ، ولم تأت هذه الآية هنا تكرارا لأنها بيان وتفسير للآية السابقة فى التأويل الذى أولناه أن الآية السابقة المراد بها رمضان ولم يذكر هنا سبحانه : **"وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ"** على هذا التأويل ببقائها على حكمها . وقد بينت ذلك محصورا فى الرجل الكهل والمرأة والعجوز وفى المرضع والحبلى كما قررنا.

قوله تعالى **"يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ"**
وقبل أن نكتب تأويل هذه الآية نبين سرا تجب رعايته . يقول الله تعالى : "يريد الله" لفظة: "يريد" هنا ليست من الإرادة الواجبة الوقوع بل هى من الإرادة المحبوبة لله التى هى الأمر ، فإن الإرادة قسمان : قسم واجب الوقوع وهى بمعنى قدر وقضى.
والقسم الآخر فى صورة إرادة محبوبة وهى ممكنة الوقوع وهى بمعنى أمر ورغب كما قال تعالى : **"يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ"**[1] وقال سبحانه : **"لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ"**[2] أى لا يأمر الله بالجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، وهنا يأمركم الله بالإفطار فى حالة المرض والسفر تخفيفا عنكم بدليل قوله تعالى : **"وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ"** لأنها لو كانت من الإرادة الواجبة الوقوع لم يقل تعالى : "وأن تصوموا خير لكم".
وبهذه الآية يظهر لنا جليا أن الله تعالى لم يكلفنا بهذه الأحكام ليشق علينا أو يكلفنا مالا نطيق ، أنما ذلك لتظهر محبتنا له وإيثارنا لأوامره العلية ، وإخلاصنا لذاته سبحانه فى معاملاتنا وعباداتنا وأقوالنا وأحوالنا – قال سبحانه: **"لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"**[3].

ولما سبق فى علمه أنه سبحانه وتعالى يظهر الكافرين على المؤمنين امتحانا لقلوبهم وتأديبا لهم ليرجعوا عن المعاصى والمخالفات ، أمر المؤمنين أن لا يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلا أن يتقوا منهم تقاه وهو الخوف من إزهاق النفوس أو هتك الأعراض أو سلب الأموال ، وأن نداريهم متحيزين إلى فئة من المؤمنين أو متحرفين لقتلهم ، بشرط أن تكون قلوبنا منعقدة على بغضهم ومناوأتهم ، وعلى انتظار الفرج من الله تعالى ، ولذلك يقول سبحانه : **"وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ"**[4] لأنه يعلم السر وأخفى.

([1]) سورة النساء آية 28.
(2) سورة النساء آية 148.
([3]) سورة آل عمران آية 28.
(4) سورة آل عمران آية 30.

ولسائل أن يسال .. نحن الآن فى الأمر الواقع وهو أن أعداء الله الكفار جاسوا خلال ديارنا وطعنوا جهرا فى ديننا ، وقبل وقوع هذا الواقع فرقوا جمعنا وجعلونا شيعا كل فريق يعادى الآخر ، حتى أصبحنا حربا على أنفسنا فى كل مجتمع إسلامى ، وقد خسرنا دنيانا بما عمله فينا من اخترناهم قادة لنا ، فإنهم تركوا العدو يسلب مرافق حياتنا ويطعن فى ديننا ، وصار همهم الرياسة والزعامة كما نراه ظاهرا فى جزيرة العرب فى سوريا وفلسطين ومصر، وفى بلاد البربر والسودان والهند والصين ، وفى اليمن والكرد وغيرها من البلاد الإسلامية خارجا بعضه على بعض ، بل أصبحت الأسر الإسلامية متفرقة ، وصار العلماء مشغولين بنيل الزلفى عند المتسلطين ، ولا أدل على ذلك من أن كبار علماء كل أمة يقفون على أبواب من بيدهم السلطة من غير المسلمين ويفتخرون بذلك ، فما الحكم الشرعي أذن الذى به نجاة المسلمين يوم القيامة من عذاب الله تعالى؟

الجواب : أن الله تعالى أنزل كتابه المجيد تبيانا لكل شئ ، وأوجب على سيد رسله العمل به وبيانه بيانا لا يحتمل التأويل ، وأوجب على كل مسلم طلب العلم حتى يكون على بينة من أمره فى جميع شئونه ، وذم الجهل وأهله بقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : **"أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"**[1] وقوله لنوح عليه السلام : **"إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"**[2] وقال ε : أستفت قلبك ولو أفتاك المفتون وأفتوك" وقال تعالى: **"وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"**[3] والتهلكة هنا أن يخسر الإنسان دينة بولاية أعداء الله تعالى بقلبه وجسمه ، والتهلكة أيضا أن لا يمكنه أن يحفظ قلبه فيتحيز لهم أو يتحرف إلى مجاراتهم ، فيلقى بنفسه فى القتل.

وهنا إذا عجزنا عن قتل أعداء الله تعالى وطردهم من بلاد إسلامية ، نداريهم للسلامة من ضياع النفس والمال حتى نتمكن منهم بالتحيز أو التحرف إلى فئة مؤمنة ، وأما من رضى بولايتهم قلبا وقالبا فليمت على أى دين شاء ، وقد أخبرنا الله عنهم بقوله : **"وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"**[4] .

قوله تعالى **"وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"**

أمر الله تعالى بأن نتم الشهر ، وإتمامه بين رسول الله ε فى قوله عليه الصلاة والسلام : "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما" وفى رواية "فاقدروا له". فإكمال العدة رؤية هلال شوال بعد رؤية هلال رمضان وهذا هو كمال العدة.

قوله تعالى **"وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"** بينت تلك الآية الشريفة ، وجوب الحمد والشكر للمنعم بقدر تفضله قدر طاقة العبد ، ولما كان المر بالصيام والصيام أكمل فضل يتفضل الله به على عباده ، لأن العبد بصيامه تزكو نفسه فينال الفوز مع الذين بشرهم الله تعالى بقوله : **"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ"**[5] الخ الآيات ، خصوصا وأن الأمر بالصيام أنزله الله تعالى بعد أن أخبرنا بأنه أنزل الكتاب فى شهره لتستعد النفس بصفائها لتلقى تلك الأنوار التى بها نيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، بل ومواجهة وجه الله تعالى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهى السعادة العظمى التى يسعد بها الجسم والحس والعقل والروح والنفس ، فكان الواجب أذن على كل قوة من القوى الإنسانية أن تقوم لله تعالى بالشكر ، فيقوم العقل والروح لله بالحمد والثناء الحسن ، ويقوم الحس والجسم لله بالشكر ، فإن الحمد خاص باللسان واللسان ترجمان الجنان ، والشكر عمل الجوارح.

([1]) سورة البقرة آية : 67.

(2) سورة هود آية : 46.

(3) سورة البقرة آية :195.

(4) سورة يونس آية : 7 – 8.

([5]) سورة المؤمنون آية : 1.

قال تعالى : **"وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ"** أى تحمدونه وتعظمونه وتمجدونه بألسنتكم على تلك النعم العظمى ، وهذا معنى قوله تعالى : "على ما هداكم" أى ما خصكم به دون غيركم من صيام شهر رمضان الذى فرضه على كل الأمم على التأويل الذى تقدم ، فضلوا عنه وهدانا الله تعالى إليه ، وهى الحجة القائمة منه سبحانه علينا بمحبته لنا وجعلنا خير أمة أخرجت للناس.

قوله تعالى **"وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"** أى تشكروا الله على ما جمل به كل قواكم بصيام شهر رمضان قياما بالواجب له سبحانه وتعالى علينا ، والشكر عمل والحمد قول –قال الله تعالى : **"اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا"**[1] ولكل جارحة من الجواح شكر ، فشكر اللسان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشكر الأذن الإصغاء إلى النصائح والعلم ، وشكر العين النظرة بعين العبرة فى تلك الكائنات ، وشكر اليدين دفع المنكر وبذلك الفضل ومساعدة أهل الحاجة وكف الأذى ، وشكر القلب التحقيق بالاعتراف لله بالفضل والمنة وأشعار القلب بالرحمة للعالم ، وتصريف النوايا فى مرضاة الله ، وعقده على عقيدة التوحيد التى يتلقاها من القرآن ، وشكر البطن الرضا بالقليل من الزاد وحفظ البطن من المحرم والمكروه ، وشكر الفرج التوسط فى المباح وعدم النظر بالعينين إلى محرم ، وشكر الرجلين الإقدام فى الجهاد على العدو ، واستعمالها فى طاعة الله تعالى . وهذا هو الشكر لأنه عمل كما قدمنا.

قوله تعالى :[" **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"** (186) **"أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"**(187).]

تمهيـــد:
مناسبة ذكر هذه الآية لما قبلها أن أنزل الكتاب والأمر بصيام الشهر الذى أنزل فيه الكتاب لتزكية النفوس كما سبق ، موجبان للتضرع إلى الله تعالى والابتهال ولملازمة العبودية بالقنوت والدعاء ، وكانت هذه الكمالات تقتضى استشراف الأرواح إلى معرفة أوقات الدعاء وبيان قبوله وكيفيته ، ليقوم العبد المنعم عليه بتلك النعم العظمى شاكرا ذاكرا ضارعا ، فتفضل الله تعالى وأنزل تلك الآية ليجذب قلوب عباده المؤمنين إلى المسارعة إلى الله تعالى والابتهال استنانا بالرسل عليهم السلام.

وسبب نزول هذه الآية أن موسى عليه السلام قال : رب هل أنت قريب فأناجيك أم بعيد فأناديك ؟ فقال الله تعالى : أنا جليس الذاكرين فاذكرني عند كل حال . قال : يا ألهى أن لنا أوقات نقضى فيها حاجاتنا مملا لا ينبغي أن تذكر فيها ، قال سبحانه وتعالى : اذكرني فى كل وقت.

وسأل أعرابي رسول الله ε فقال : كيف ندعو ربنا ؟ وقال آخر : يا رسول الله هل ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ كما سأل موسى عليه السلام ربه . فأنزل الله تعالى : **"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ"**.

([1]) سورة سبأ آية 13.

ولسائل أن يسأل فيقول : أنا ذرى العباد يسألونك الله كثيرا ولم نر الاستجابة إلا للقليل . والجواب على ذلك من وجوه ثلاث:

الوجه الأول : - وهو ما يتذوقه أهل المعرفة وهو أن لفظة : "عباد" خاصة للمخصوصين فإنها ما وردت فى القرآن إلا لأهل الخصوصية العالية ، وعلى هذا فما من عبد من هؤلاء سأل الله تعالى إلا استجاب له ، قال تعالى : "لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ"[1] وبهذا لا يرد السؤال.

الوجه الثانى:

أن الدعاء هو العبادة والتضرع إلى الله تعالى والتملق شكرا وخشوعا بين يديه ، فما قام عبد فى هذا المقام إلا واجهه الله تعالى بوجهه ويكون الدعاء من العبد دعوة الله تعالى أن يقبل عليه ويقبل منه.

الوجه الثالث:

أن الدعاء مستجاب من الله تعالى يعجل ما شاء أن يعاجله فى الدنيا ويؤجل ما شاء منه ، وقد ورد فى السنة أن المؤمن تعطى له خيرات جزاء قربات ، يقول أنى لم أعمل شيئا من هذا ، فيقول الله تعالى : هذا دعاؤك الذي كنت تدعوني به فى الدنيا أجلته لك ، فيقول : ليته أجل جميعه.

ولسائل أن يسال ، الدعاء لا فائدة فيه فإن الأمر أن كان قدر فهو واصل إليك من غير دعاء ، وأن لم يكن قدر فلا يصل ولو ملأ العبد الأرض دعاء.

والجواب على هذا : أن الله تعالى قدر قضاء الحوائج بما قدره من الدعاء ، فيكون الدعاء مقدرا أزلا لنيل المقاصد . وهنا سأل سائل . هل الكافر يقبل منه الدعاء ؟ .

الجواب : أن الله تعالى يخاطب نبيه محمدا ε ، ولا يسأل سائل النبى عليه الصلاة والسلام إلا وهو مؤمن ، كذلك فإن لفظة عبادي بالإضافة إلى ياء المتكلم تبين أن المخصوص بهذا الحكم هم عباده المخصوصون من أهل الإيمان.

قوله تعالى " **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**"

ومعنى الآية أن الله سبحانه يخاطب حبيبه ε بقوله : "" **وَإِذَا سَأَلَكَ**" يا محمد عبادى من أمتك عنى بقولهم : كيف نسأل ربنا ؟ أو فى أى جهة نسأله ؟ أو هل هو قريب أم بعيد ؟ فبشرهم عنى بأني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، والإجابة من الله قبول الطاعات والتوبة ومنح الرضا وإعطاء مقاصدهم وقد أثبت بعض القراء الياء في دعان وحذفها بعضهم للوصل وهما قراءتان.

قوله تعالى "**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**"

أجاب واستجاب بمعنى واحد ، يكشف الله عنا الحجاب بهذه الآية لنعلم أنه سبحانه وتعالى هو الذى يفتتحنا بالخير ، فإنه أثبت هنا أنه قريب ممن يدعوه ويجيب دعوته فضلا منه ، ثم أمرنا سبحانه بالإستجابة له بقوله تعالى: "**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي**" والاستجابة هنا هى الأمر بدعائه سبحانه والمسارعة إلى طاعته وشكره سبحانه ، لأنه جلت ذاته وهو الغنى عنا المتفضل علينا بالإيجاد والإمداد يجيبنا ويقرب منا برحمته وعطفه وإعانته ولطفه ، فنحن الفقراء المضطرون أولى بسرعة الاستجابة له ودوام الخشوع والتبتل ، وإنما تكون الاستجابة له فيما دعانا إليه من محابه ومراضية سبحانه.

قوله تعالى "**وَلْيُؤْمِنُوا بِي**" إذا كان العطف هنا فيه معنى الترتيب ، يقتضي أن تكون الاستجابة مؤيدة بيقين قلبي ، حتى تكون بجميع الجوارح الظاهرة والقوة الباطنة بدليل قوله "وليؤمنوا بى" . فإن الإيمان هو التصديق بالقلب ، وأن لم تفد الترتيب فذكرها هنا زيادة بيان لما يحبه تعالى من العبد الذى تفضل عليه بإجابته فى دعائه "لعلهم يرشدون" أى ليرشدوا ، والرشاد هو صلاح الأمر وإصلاح الحال ، أى ليصلح عملهم ويكون مقبولا ويصلح الله أحوالهم فيكونون سعداء فى الدنيا والآخرة.

([1]) سورة الزمر آية : 34.

قوله تعالى **"أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ"** الآية إلى قوله تعالى: **"لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"**

تمهـــــيد:

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن الله كتب علينا الصيام كما كتب على الذين من قبلنا ، وكان الصيام أن يترك المسلم الأكل والشرب والجماع بعد أن يأكل أو يجامع قبل النوم من الليل ، فإذا نام فى الليل حرم عليه الأكل والشرب والجماع إلى الليلة الثانية ، وكان بعضهم يصلى المغرب ثم ينصرف من المسجد إلى بيته فيطلب الطعام فتقول له زوجته انظرنى حتى أعد لك الطعام ، وتذهب وتعود له فتجده نائما فيحرم عليه كل ذلك فيصبر طول نهاره متألما من الجوع والعطش.

دخل عمر ليلة على أهله فطلب مباشرتها فقالت أنى نمت فظن أنها مازحة فباشرها ، وبعد ذلك بات مغموما طول ليلة حتى توجه صباحا إلى رسول الله واعتذر الى الله ورسوله ε قائلا : أنى باشرت أهلى . وفعل ذلك غيره فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى **"أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ"**

والرفث وأن كان فى اللغة الوقاع والفاحش من القول إلا أن سياق الآية يعين اختصاصه بالجماع ، فأحل الله لنا ما كان محرما علينا رحمة منه سبحانه بنا ، وليلة الصيام ظرف يعنى أن الصائم يباح له أن يباشر زوجته ليلا.

قوله تعالى **"هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ"**

يعنى أنكم تسترونهن وقت الغشيان وهن يسترنكم ، وأنتم تلمسون جلودهن وهن يلمس جلودكم كما قال تعالى : **"وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا"**[1] لأنه يغشى النهار ويستره . وفى هذا السياق غاية بلاغة التعبير الذى – مع دلالته على المعنى بالمطابقة – يدل على احتياج كل واحد إلى الآخر ، وأنه خير له ووقاية من مضار كثيرة ، كاللباس الذى فضلا عن أنه يستر لابسه فإنه يحفظه من البرد والحر ويجعله فى عين غيره مهابا . كذلك الزوجة للزوج والزوج للزوجة من حيث الحفظ من العنت والفحش وغيرهما.

قوله تعالى **"عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ"**

يخبرنا الله سبحانه أن لطفه ورحمته بنا لعلمه بما تكنه قلوبنا من خيانة أنفسنا ، والخيانة هى النقص تؤول هنا بقهر النفس على تحمل مشاق الصيام أو بالتسامح ، نتأول تأويلا يلائم طباعنا فتقع فيما حرم الله تعالى.

والله سبحانه لم يكلفنا بالصوم ليعجزنا تنزه وتعالى ، ولكنه كلفنا لتدوم مراقبتنا له سبحانه وذكرنا واستحضارنا لمعانى صفاته فى أنفسنا وفى الآفاق وفى أعمالنا وأقوالنا وأحوالنا قال تعالى : " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ".

قوله تعالى **"فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ"**

أى أرجعكم الى ما قدره عليكم فى الأزل مما يحبه منكم وتحبونه منه سبحانه ، والعفو هنا قد يكون بمعنى الوسعة . وجائز أن يكون بمعنى المغفرة أى يفغر لكم ما أختتم فيه أنفسكم مما أولتموه ووقعتم به فيما حرم الله تعالى كما فعل ابن الخطاب وكعب الأنصارى وغيرهما.

وجائز أن يكون للأكل والشرب أيضا بالتأويل – وجائز أن تكون تلك البشرى من الله ، لما يراه فى نفسه كل كامل اليقين من التقصير عن القيام بحقوق الله تعالى ، بمناسبة مقام كل واحد منهم من العلم بالله سبحانه ، والحيطة بمعانى تأويل القرآن مستحيلة لأنه كلام الله ، وكلامه صفته ، وليس كمثله شئ فى كل شئ.

([1]) سورة النبأ آية : 10.

قوله تعالى **"فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ"** يفصل الله لنا إجمال الآية السابقة من حيث الإحلال ، فيقول سبحانه إذا علمتم أنتى أحللت لكم ما حرمت عليكم "فالآن" أى بعد هذا الحكم باشروا نساءكم فى الأوقات التى عينتها لكم . "وابتغوا" أى ابتغوا "ما كتب الله لكم" أى ما بينه لكم.
وجائز ان يكون "ابتغوا" اى اطلبوا ما كتب الله لكم فى أم الكتاب من الأحكام التى فضلنا بها على الأمم من قبلنا كما قال سبحانه : **"يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا"**[1] وقال : **"وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ"** إلى قوله تعالى : **"وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"**[2].
وإنما أخبر الله بتلك الأحكام لحكمة.
هى أولا: أن نعمل بما عمل به من قبلنا إجابة لله تعالى فى قوله : **"كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ"**.
وثانيا : أن نعتقد عجزنا بأنفسنا عن القيام بما كان يقوم به من قبلنا.
وثالثا: نفرح بفضل الله علينا لاختصاصنا بما يدل على محبته لنا سبحانه ولطفه بنا ، فيلذ لنا شكره ، ويحلو لنا ذكره ، ويطيب ستحضاره فرحا بما من به علينا.

قوله تعالى **"وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ"**
الأمر فى الأصل للوجوب إلا أذا أخرجته قرينة إلى الندب أو إلى الإباحة ، وهنا يدل بحسب سياق الآية على الإباحة ، وقد فهمه بعض أهل المعرفة للوجوب فكان يتناول عند السحر جرعة ماء وقضمة طعام ، وبعضهم رآه سنة مؤكدة بحسب فقه الآية.
أما بيان الخيط الأبيض من الأسود : فالخيط الأبيض هو الفجر الصادق الذى يبدأ فى ظلام الليل كالخيط الأبيض الممتد من المشرق إلى المغرب ، والخيط الأسود هو ظلمة الليل . وكان بعض الصحابة يربط على رجله خيطا أبيض وخيطا أسود عملا بظاهر اللفظ من غير أن يتأول ، فإذا تميز الأبيض من الأسود ترك الأكل والشرب "من الفجر" من بيانه والفجر انفجار النور قبل الإسفار كأنه عين تضيء من المشرق.

قوله تعالى **"ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ"**
أى حافظوا على حرمة الصيام فى النهار من أن تنتهك بمفطر من المفطرات السبع التى هى خروج الجوارح عن الوسط شرعا ، والأكل والشرب والنكاح ، وليس بصائم من توسع فى المباح فى نهار رمضان ، فإن الله تعالى حرم علينا فيه ما أباحه لنا من أكل وشرب ، فيتعين علينا أن لا نتعدى الضرورى في بقية الجوارح.
وقوله: **"أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ"** الليل عند العرب يفتتح من غروب الشمس والمساء من زوال الشمس إلى غروبها أي بعد غروب الشمس بقدر ما يحصل اليقين . وقد بينت السنة أن مجرد غروب الشمس افطار للصائم ولو لم يتناول ما يفطر . قال لى الله عليه وسلم : "إذا غابت الشمس من هاهنا – وأشار إلى المغرب- وأقبل الليل من هاهنا. وأشار إلى المشرق . فقد أفطر الصائم".

قوله تعالى **"وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ"** بين الله لنا أن الإعتكاف هو عكوف القلب والسر والخفا والأخفى والجوارح المجترحة فى بيت من بيوت الله يصقل قوى النفس حتى يتفرغ القلب من تدبير الجوارح توجها إلى الله تعالى ، فينتقش على جوهر النفس الغيب المصون من آيات الله ومعانى صفاته ، وأنوار تلك الصفات وأسرار الأسماء فقد يكرم العبد بصولة التجلى فتلوح له حقائق صادقة ، وتقتبس روحه التى حجبت عنها شواغل الجوارح وحجب عنها الوهم والخيال فواجهت الملكوت أو اللاهوت أو الجبروت أو ما فوق ذلك مما لا يعلمه إلا الله . تعالى والراسخون فى العلم.
ونمسك العبارة هنا عن الحكمة فى الأمر بالاعتكاف ونتكلم على الحكم: نهانا الله تعالى عن مباشرة النساء فى الاعتكاف والمباشرة هنا الجماع نصا بدليل أن الشريعة رخصت للمعتكف أن قضى حوائج أهله وأن يراهن ويكلمهن ، وقد ورد أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت ترجل شعر رسول الله ε وهو فى المعتكف .

([1]) سورة النساء آية : 28.
([2]) سورة الأعراف آية : 156 – 157.

وبهذا يكون معنى المباشرة الجماع . حظر علينا سبحانه أن نباشر النساء ونحن عاكفون فى المساجد ، مبينا أن مباشرتهن فى هذا الموقف مفسدة ، وقد بينت لك رذاذا من حكمة هذا الحكم.

قوله تعالى **"تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"**
الإشارة هنا إلى الأحكام التى أنزلها الله فى تلك الآيات من أول قوله تعالى : "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ" ولك أن تقول من قبلها ، وحدود الله يعنى الفواصل بين الحق والباطل . فمن تعداها وقع فيما حرم الله أو أفسد عمله . وفى ذلك من الجهالة ما فيه.

قوله تعالى : **"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"** أى كما بين أحكامه فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة وبالمعاملة فى أموالنا وبالصلاة والزكاة والصيام ، كذلك يبين جميع أحكامه التى بها سعادة المجتمع الإسلامى فى الدنيا والآخرة : "يبين" أى يوضح "آياته" أحكامه المتعلقة بكل الشئون "للناس" للخلق جميعا لأن دعوة النبى صلى الله عليه وسم عامة "لعلهم يتقون" أى لتحصل لهم التقوى مما يغضب الله تعالى ، وقد تقدم معنى التقوى.

قوله تعالى :[**"وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"**](188).

بعد أن أوضح الله ما وضحه فى أحكام العبادة ، أخذ سبحانه يبين ما يجب على المسلم لأخيه المسلم فى المعاملة المالية بقوله تعالى : **""وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ"**

أى لا يأكل بعضكم أموال بعض ، فجعل المال كما قال تعالى : **"وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ"**[1] وفى هذا السياق جوانب عطف من الله تعالى على عبادة ليجمعهم على التحابب والتوادد ، فجعل مال الآخر هو مالى وحذرنى أن أكل مالى بالباطل فكيف إذا كان المال مال أخي؟ وصورة أكل مال الأخ بالباطل أن تأخذ مال أخيك بدون شهود ، فإذا طالبك به أنكرت وأكلته وأمثال ذلك ، فإذا أنكرته أدلى بها إلى القاضي ، ومعنى أدلى بها مأخوذة من وضع الدلاء فى الآبار لتكون سببا لرفع الماء ، فكذلك أدلى بها جعل الإدلاء سبب فى أخذها من خصمه.

ومعنى : "الحكام" ولاة المر من القضاة وغيرهم . وفى ذلك ما فيه لأن القاضى قد يحكم ببراءة المتهم فيفرح بحكمه وينسي عذاب الله يوم القيامة، وليس على القاضي أثم لأنه حكم بأدلة الشريعة التى توجب عليه أن يقضي بما علم وثبت لديه.

قوله تعالى **"لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"**
أى لتحلوا لأنفسكم بعض أموال الناس – وقوله : "بالأثم" أى بالباطل وبغير حق شرعى ، والحال أنكم تعلمون يقينا أنه باطل وفى ذلك ما فيه من الجرأة على الله تعالى ونقص الإيمان لقوله سبحانه : **"يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى"**[2] وتلك هى الأحكام التى تمتزج بالروح امتزاج النسيم العليل البليل بالنفس فتحى القلب.

([1]) سورة النساء آية : 29.
(2) سورة طه آية : 7.

قوله تعالى : **"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"**(189).

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ"

تمهـــــيد :

أعجز سياق القرآن فطاحل البلغاء ، بل أسجد عقولهم بجمال لفظه وطلاوة تعبيره ، فضلا عما تضمنته آياته الشريف من أسرار الغيوب وآيات الحق الجلية فى الأكوان ، بل وما بينه من العقائد الحقة بالحجج البالغة والعبادات الدالة على أن الأمر بها هو الذي أوجد الخلق وأمدهم وتفضل عليهم فأمرهم بمحابه ومراضيه ، ونهاهم عما يغضبه عليهم ، وبين لهم ذلك بلسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منهم.

يقول الله تعالى : "يسئلونك" وكان السائلون يسألون عما يجعلها تكمل شهرا وتنقص آخر ، وتخرج صغيرة ثم تعظم وتتغير مواضعها ووجهها مما لا يفيدهم فى دين ولا خلق ولا دنيا ، فتلطف الله تعالى وأخبرهم بأجمل تفسير، أن الأولى لكم أن تسألوا عن حكمة إيجادها لكم ، وسر تجديها فى كل شهر فى نظركم لأجيبكم.

قوله تعالى **"قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ"** فى معاملاتهم وقضاء مصالحهم بينهم وتناول ما هو لهم وتوفينا للحج والصوم ، ولغير ذلك مما أخفاه الله تعالى عن العقول ، وأشهده أرواحا نورانية من حكم عليه هى الطهور المدار على قلوب الأخيار ، ومن الله عليهم بتلك الأسرار.

وأقل الأمم أسئلة لرسولها هى الأمة الإسلامة ، فإن أسئلتهم فى القرآن محصورة فى ثمانية عشر سؤالا وهذا اولها فى السورة التي تذكر فيها ثمانية أسئلة ، وبقية الأسئلة كيسألونك عن الجبال وعن الروح وعن الساعة . . .

أما قوله تعالى : **"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي"** المتقدم هو إشارة إلى السؤال عن الذات.

وفى هذا السؤال عن حقيقة الأهلة ، أجاب الله السائلين بما ينبغى أن يسألوا عنه ، حتى يعلموا بتقوى الله تعالى فيعلمهم الله ما لم يكونوا يعلمون.

قوله تعالى **"وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى"**

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن أهل الجاهلية الأولى كانت لهم أوابد ، منها أن الرجل كان إذا خرج لقضاء حاجة فلم تيسر تطير من باب بيته فكان يثقب له ثقبا يدخل منه ، أو يضع سلما يصعد عليه ولا يدخل من الباب ، وكانوا إذا أحرموا لا يدخلون من أبواب البيوت ولكن يدخلون من ظهروها مدة الإحرام ، بل كان "الحمس" من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا بيوتهم أبدا.

و "الحمس" هم المتعصبون للدين كبنى هاشم وقريش وكندة وكنانه ، إلى أن دخل رسول الله ε من باب بستان حرب فدخل وراءه رجل فقال له ε "ارجع فإنك محرم" فقال : إنى أدين بدينك وأقتدى بك فدخل فأنزل الله : **"وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى"** ثم بين البر بقوله تعالى : **"وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ**

قوله تعالى **أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"**

"وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا"

أى اعملوا بتقواه فيما بينه سبحانه لكم ، واتركوا ما خالف ذلك من عوائد الجاهلية التى من أقواها لديهم الطيرة ، لأن الذى يتطير مشرك كما قال تعالى مشنعا على أمة صالح بقوله : **"قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ"**[1] والمطيرون ضعفاء الإيمان ، والظاهر أنهم مرضوا مرضا أفسد عليهم عقولهم التى تعقل ما أنزل الله.

([1]) سورة النمل آية : 47.

وتأويل هذه الآية أن الله تعالى بعد أن أجابهم على سؤالهم عن الأهلة بما تقتضيه الحكمة على قدر عقولهم ، بين لهم سبحانه ما يناسب حالتهم التى كانوا عليها من التطير ومن عوائدهم فى الإحرام ، وأمرهم بما يحب فى الحالتين.

قوله تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"**

هذا لأهل الإيمان بالله تعالى الذين كانوا يعملون بعمل الجاهلية قبل أن يبين الله بيانه هذا ، وتقوى الله هى مراقبته سبحانه فى كل قول وعمل ، وفى قوله تعالى **"لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"** ما يقتضي فوزهم بكل مقاصدهم ، لأن "لعل" هنا بمعنى اللام وهى خير بشرى لأهل الإيمان.

قوله تعالى :[**"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"**](190).

قوله تعالى **"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"**(190)

هذه الآية أمر من الله تعالى بالجهاد تخفيفا علينا ، فإنه شرط سبحانه أن لا نقاتل إلا من قاتلنا ونهانا عن الاعتداء في القتال وبعده ثم شدد علينا أن لا نعتدى . وهذه الآية تدل على أنها نسخت بقوله تعالى : **"وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً"**[1].وفى قوله سبحانه : **"فِي سَبِيلِ اللَّهِ"** دليل على أن القتال لا يصح إلا فى سبيل الله حتى ولو كان للإصلاح بين طائفتين من المؤمنين ، لأن القتال لم يشرع إلا فى سبيل الله.

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ε لما توجه إلى مكة فى غزوة الحديبية بالعمرة ، ومنعه المشركون وتعاهد معهم على أن يعود تلك المرة ويرجع فى السنة المقبلة إلى مكة ، وهم يخلونها له ε ويعتمر ، فأستعد رسول الله ε في سنة سبع من الهجرة ، وعزم رسول الله ε على أن القوم إذا منعوه قاتلهم فأنزل الله تعالى : **"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ"** ولو كان ذلك فى الحرم كما سيأتي في الآية التي تليها . والقتال هنا هو قتال من قاتل الصحابة رضوان الله عنهم.

قوله تعالى **"وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"**

الاعتداء ان يبتدئ رسول الله ε وأصحابه رضى الله عنهم قتالهم : **"إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"** والحقيقة أن الله تعالى قد يقدر الاعتداء فيقع ولكنه لا يأمر به ، ومعنى لا يحب أى لا يأمر ، وبذلك لا يرد هذا الاعتراض وهنا يتحقق أن الفاعل المختار هو الله تعالى ، فما كان هدى ونورا فهو إرادته وأمره ، وما كان ضلالا وظلما فهو أرادته ونهيه.

ومعنى قوله تعالى : **"لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"** أى لا يحب الاعتداء وأن قدره ، ومن وقع فيما يكرهه الله تعالى بما نهى عنه ، فإن الله يكرهه ، والأشخاص لا يحبون ولا يكرهون وإنما المحبوب صفاتهم وأعمالهم التى قدرها الله تعالى عليهم ، فإن الله إذا أحب عبدا أجرى الخير على يديه وأقامه فيما يحبه ويرضاه ، وإذا كره عبدا أجرى الشر على يديه وأقامه فيما يكرهه ، ووضع له البغضاء فى السماء والأرض ، بدليل حديث البخارى . قال صلى الله عليه وسلم "إذ أحب الله عبدا نادى جبريل أنى أحب فلانا فأحبه فينادى جبريل فى ملائكة السماء أن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم توضع له المحبة فى الأرض فلا يراه أحد إلا أحبه . وإذا كره الله عبدا نادى جبريل.."الخ الحديث . ففى هذه الآية دليل على أن الله لا يحب أعمال المعتدين فيبغضهم لعملهم.

---

(1) سورة التوبة : 36.

قوله تعالى :["**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**"](191).

هذه الآية متصلة بما قبلها ، ويقال : ثقفه : اى وجده مؤهلا لأخذه والتغلب عليه . والمعنى أن الله تعلى يأمرنا أن نقتل أهل الكفر به سبحانه أن قاتلونا مع رعاية التمكين منهم والتغلب عليهم . وفى هذه الآية بيان من الله أن نأخذ الحذر منهم بإعداد العدة والعدد واثقين بتأييد الله ونصره.

قوله تعالى "**وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**"

يذكرنا ربنا بعلم قريش برسول الله ε والمهاجرين من أصحابه فى مكة حيث أخرجوهم للهجرة بتضييقهم عليهم ومناوأتهم لهم حتى خرجوا من ديارهم ، ويريد الله تعالى أن ينتقم من قريش للمهاجرين الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم فيثأر من أهل مكة ، وهذا ما توعدهم الله به فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأنكى ، والخطاب لرسول الله ε هو وأصحابه والضمير فى : "**وَأَخْرِجُوهُمْ** " يعود إلى كفار قريش.

قوله تعالى "**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**"

"**وَالْفِتْنَةُ**" فى اللغة : وضع الذهب فى النار ليتمحص . وهى الابتلاء فى الدين أو النفس أو فى المال والعرض . والمراد هنا من الفتنة رجوع المسلمين إلى الكفر بعد الإيمان . ومعنى "**أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**" يعنى أن قتل المسلم أخف بكثير من رجوعه إلى الكفر وخلوده فى النار . فالله تعالى يعلمنا أن الفتنة التى هى الكفر أشد بكثير من القتل.

" قوله تعالى **وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ**"

هذه الآية تخصيص لإطلاق الحكم فى الآية التى قبلها وهى قوله : "**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**" والمعنى أن الله تعالى ينهانا عن قتلهم عند المسجد الحرام ما داموا لم يقاتلونا وبالأولى يكون تحريم القتل فى نفس المسجد ، وبين سبحانه متى يحل لنا أن نقتلهم عند المسجد الحرام أو فيه فقال سبحانه : "**حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ**" فإن قاتلونا وجب علينا أن نقتلهم مع رعاية ما كلفنا الله به من التمكين منهم بقوله : "**حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**" وذلك واضح فى قوله سبحانه : "**فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**".

قوله تعالى "**فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**"

ينهانا ربنا جل جلاله عن أن نفتتحهم بالقتال حتى يفتتحونا هم ، وفى الآية تخفيف من الله ورحمة ، وحجة على الكافرين أنه سبحانه أمهلهم . "**كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**" أى أن قتلهم فى الدنيا عاجل العقوبة لهم والعذاب الأليم أجلها يوم القيامة . والكافر هو من كذب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى قوله تعالى : ["**فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**"(192) "**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**"(193) "**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**"(194) "**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**"(195).]

قوله تعالى "**فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**"(192)

أى فإن رجعوا عن القتال وآمنوا بالله ورسوله "**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**" أى فإن الله يستر عنهم ما ارتكبوه من الكفر ومن معاداة رسول الله ε وأذية أصحابه حتى لا يعاقبهم عليها . "**رَحِيمٌ**" يعنى يتفضل عليهم برحمته فى الدنيا بحفظهم من القتل ويوم القيامة بأن يمنحهم النعيم المقيم.

قوله تعالى "**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**"(193)

نسخ الله تعالى بتلك الآية ما سبق من الأحكام المخالفة لها فى الآيات السالفة . ومعنى ذلك أن الله تعالى يأمر النبى ε وأصحابه أن يقاتلوا المشركين من غير قيد ولا شرط "**حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**" أى لا يوجد مشرك بالله أو لا توجد

قوة وعصبة – ومعنى : **"لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ"** أى لا يكون كفر بالله . ومعنى : **"وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ"** على المعنى الأول أن يكون كل العالم الذين يمكنهم الله منهم من أهل الشرك مؤمنين وعلى المعنى الثانى حتى يذلوا ويخشعوا ويتظاهروا بالإسلام ولو نفاقا كمن كانوا من المنافقين فى المدينة.

قوله تعالى **"فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ"**(193)

أى فإن رجعوا عن القتال والكفر بالله إلى الإسلام فأنزلوهم منكم منزلة أنفسكم **"فَلَا عُدْوَانَ"** أى فلا تعتدوا إلا على من لم ينتهوا منهم والله تعالى لا يحب العدوان ولا يأمر به – ومعنى العدوان هنا : أى الجزاء بمثل العمل . والظالمون هو المشركون . قال تعالى : **"إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ"**[1].

قوله تعالى **"الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ"**

يعيد الله لنا ذكرى سنة ست من الهجرة ، عندما توجه رسول الله ε معتمرا ومعه عليه الصلاة والسلام أصحابه فرده المشركون عن دخول مكة ، فنحر هدية بالحديبية بعد أن أقام بها زمنا ، ثم صالحهم بعد أن كان ما كان على أن يرجع فى السنة المقبلة معتمرا وعليهم أن يخلوا له مكة ثلاث ليال – فلما كانت سنة سبع من الهجرة فى ذى القعدة خرج رسول الله ε معتمرا ومعه أصحابه رضى الله عنهم مستعدين للقتال أن قاتلهم المشركون ، فأكرمهم الله فدخلوا مكة ومكثوا بها ثلاث ليال بعد أن أخلاها أهلها لهم.

فكانت تلك العمرة مع ما أولاهم الله من النصرة والتمكين ، وما أصاب قريشا فيها من الذل والخزى ، دليلا على نصرة الله لرسوله عليه الصلاة والسلام وجزاء لقريش على ما فرحوا به من رد رسول الله ε ، فأصابهم من الحزن والهم والغم ما أصابهم نكالا بهم على معادتهم لرسول الله ε ، وبذلك كان الشهر الحرام فى سنة سبع خير عوض عن الشهر الحرام فى سنة ست والشهر الحرام كان ذو العقد فيهما.

قوله تعالى **"وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ"** أى أن الله اقتص من قريش بما وقعوا فيه من الحرمة بصد رسول الله ε فمكنه من تأدية العمرة فى ذى القعدة سنة سبع ، وهذا قصاص من الله تعالى واقع بقريش **"وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"**[2].

قوله تعالى **"فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ"**

اختلف العلماء فى معنى هذه الآية ، فقال بعضهم : هى مكية ويكون المعنى فمن اعتدى عليكم بالسب أو القذف فاعتدوا عليه بمثل الذى اعتدى عليكم ، ويكون الأمر من الله الاعتداء عليهم أمرا بمجازاتهم بمثل عملهم أو قولهم ، فلا يكون اعتداء منا مجازاة لهم على سوء عملهم ، وإنما سمى اعتداء مقابلة وإلا فهو عدل ، والله لا يحب العدوان كما قلنا ولو على الظالم ، والعدوان هو ظلم من لا يستحق الظلم – وقال بعضهم : الآية مدنية ويكون المعنى - فمن قاتلكم من المشركين فقاتلوهم مع رعاية العدل الذى يحبه الله تعالى والمحافظة على البيان الذى بينه سبحانه فى قوله : **" النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ"**[3] الخ الآية.

قوله تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ"**

أى اتقوا التساهل مع المشركين والاستسلام لهم ، وتعدى حدود الله معهم بالغلو فى المؤاخذة ، حتى تكونوا أطعتم أمر الله فتفوزوا بمراضية وبنصرته لكم وتأييده – **"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ"** أى تحققوا معية الله بتأييده ونصره وتمكينه لكم فى الأرض بالحق ، وفوزكم يوم القيامة بما أعده الله لكم من الفضل العظيم والرضوان الأكبر.

وما بشر الله تعالى قوما بمعيته إلا منحهم محبته ، وما منح قوما محبته إلا تفضل عليهم فآنسهم بشهود جماله العلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وقد شرحنا مقام أهل معية الله فى كتاب "الفرقة الناجية" وغيره من كتبنا.

([1]) سورة لقمان : 13.

(2) سورة الأنفال : 10.

([3]) سورة المائدة : 45.

قوله تعالى **"وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"**
سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لما أمرنا بالجهاد شكا الفقراء قلة ذات اليد ، فأمر الله ورسوله ε أهل الثراء بالإنفاق وحثهم على ذلك ، لأن أساس الجهاد وجود المال لاحتياج المجاهد إلى الزاد الحروف والأسلحة فأنزل الله تعالى هذه الآية – الحروف هى كل مال يصرف فى المصالح ، وما صرف فى غير المصالح يسمى أسرافا أو تبذيرا والظاهر أن قوله تعالى : **"فِي سَبِيلِ اللَّهِ"**أى فى الجهاد لإعلاء كلمة الله ونشر سنن رسوله ε .
وجائز أن ننظر إلى قوله تعالى : "وأنفقوا" فيكون بلا قيد ، وتكون النفقة التى أمر بها فى سبيله هى كل ما صرف فى المصالح كحج وطلب علم ونفقة على الأولاد والأهل والوالدين وعلى الضيوف والمحتاجين ، لأن ذلك كله فى سبيل الله تعالى.
قوله تعالى **"وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"** ظاهر اللفظ فى سياق هذه الآية يدل على أن الآية خاصة بالجهاد أى لا يبذلوا كل أموالكم وتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ولا تعتدوا فى الجهاد.
وجائز أن يكون قوله تعالى : **"وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ"** تأويل هذه الآية . . اى وأقتلوهم عند القدرة عليهم ، وتدل الكلمة على أننا لا نقدم على القتل إلا إذا أنسنا من أنفسنا المقدرة عليهم فلا نلقى بأنفسنا إلى التهلكة من غير بصيرة.
وقد كان جيش المسلمين يقاتل الروم عند القسطنطينية وجيش الروم قدر جيش المسلمين عشرات المرات ، فهجم على الروم رجل من التابعين فى الجيش ، وقال آخر : لا تلق بنفسك إلى التهلكة . نزلت هذه الآية علينا جماعة الأنصار ، وإنما التهلكة أن يتأخر الإنسان عن الهجوم على العدو ، وقال : أنا قد تركنا أهلنا وأموالنا أن نقيم فيها ونصلحها حتى نصر الله نبيه هل نقيم فى أموالنا ونصلحها ؟ فانزل الله الخير من السماء :
قوله تعالى **"وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"** الآية . أى لا تتركوا الجهاد وتقيموا بين أهليكم فى أعمال التكسب.
وجائز أن يكون المراد فى هذه الآية . الرجل يذنب الذنب فيقول لن يتوب الله على وييأس فيلقى بنفسه إلى التهلكة ، وكلنا نعلم أن الله نهانا عن اليأس من روح الله ومن القنوط من رحمته ، وأكثر من يلقون بأنفسهم إلى الهلكة هم الجهلاء بأنفسهم وبربهم ، فأن الله تعالى إنما قدر المعاصى على العبيد ليندموا ويرجعوا إليه سبحانه متطهرة قلوبهم ، ليمنحهم فضل اسمه التواب العفو الغفور ، ولينالوا بالتوبة بعد الحوبة جمال اسم التواب فيحبهم الله كما قال سبحانه : **"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"**[1].
ولك أن تفهم من هذه الآية أن الله سبحانه يعلمنا أن نحافظ على ديننا وأنفسنا وأموالنا وأعراضنا وأوطاننا ، فنزن أعمالنا وأقوالنا وأحوالنا بموازين الشرع الشريف ، حتى نعيش فى حصون الحفظ الإلهي ، آمنين فرحين مطمئنين.
قوله تعالى **"وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"** الإحسان مقام فوق التقوى وهو المقام الثالث من مقامات الدين الحنيف ، فأول مقام فى الدين الإسلام ، ثم الإيمان ، ثم الإحسان ، فالإيقان – وقد ورد مقام الإحسان مبينا فى قوله ε : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" والمقام الأول منه هو الشهود ، والثانى كمال المراقبة لله تعالى ، والمراقبة تجعل المؤمن متحققا بأن الله معه وهو مع الله تعالى ، قال سبحانه: **" وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ"**[2] وقال تعالى: **"وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"**[3].
فالإحسان فضل الله العظيم يتفضل به على من يحبهم من خاصة أوليائه الذين كاشفهم بمشاهد التوحيد العلية ، حتى أنسوا بالله وفرحوا به سبحانه ، وقد كان بعض الصحابة يقول لصاحبه : اجلس بنا نفرح بالله ساعة . ويقول أحدهم : كنا نتراءى ربنا ليلة عرفة . وهو مقام كمال الإحسان.
إذا تقرر ذلك فقوله سبحانه : "وأحسنوا" أى قوموا لله تعالى بما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه بإخلاص الرعاية لذاته العلية حتى تستغفروا ، فإن ذلك من أكمل القربات التى تطمئن بها قلوب الصديقين ، وتشكروه

([1]) سورة البقرة : 222.
(2) سورة الحديد : 4.
(3) سورة العنكبوت : 69.

سبحانه على ما وفقكم له من أقامتكم فى محابة ومراضيه ، مع اليقين الحق بأن ذلك فضله جل جلاله ، وإنما المحسنون يعرفون بأحوالهم العلية ، التى تجعلهم عاجزين عن شكر نعمة الله عليهم ، وعلى القيام لحضرته جلا جلاله بما يستحق منهم ، فهم دائما فى خشية من الله ورهبة من حقيقة قصورهم وتقصيرهم وهذا معنى قوله تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"** أى يحب الذين جملهم بتلك المعانى لأنها من معانى صفاته العلية لأنه هو الشكور وهو التواب ، وأكد الخبر بحرف التوكيد لأن حب الله للعبد عجز العقل على أن يتصوره.
فهو سبحانه الغنى عن الخلق أجمعين ، فإذا أحب عبدا فإنما يحبه بفضله تعالى لا بعمل ذلك العبد وحوله وقوته ، وهذا فيمن هو أكمل العبيد فى جانب الله تعالى ؟ فيكف بغيره ؟ . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهو سبحانه يقيم من شاء فيما شاء ، لا معقب لحكمة ولا راد لقضائه.
والإحسان قد يكون فى كل شئ . قال ε : "إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة" وعلى ذلك قد يكون الإحسان متعينا عند أهله فى الضرب والقتل وفى التقدير والعطاء والمنع وفى الشدة واللين ، فإن أهل مقام الإحسان ذكروا ففكروا فحضروا ، فكان الحق جل جلاله معالم بين أعينهم ، ومن أحياه الله الحياة الروحانية فى مقام عين اليقين أو حق اليقين لا يكون كمن فقد تلك الحياة وكانت حياته حيوانية صرفة.

قوله تعالى :[**"وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"**](196).

قوله تعالى **"وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ"**
بعد أن بين الله من أحكام التوحيد والنبوة وغيرهما مما يتعلق بالمعاملة والعبادة ، ذكر سبحانه ركنا من أكان الإسلام وهو الحج ، وهذه أول آية نزلت فى الحج فأدت إلى فرضيته على كل مسلم مطيع ، وفى قوله : **"وَأَتِمُّوا الْحَجَّ"** أى وجوب القيام به على الوجه الأكمل ، والشروع فيه ما لم يكن فرضا فإنه يكون واجبا ، فيجب على من شرع فيه أن يتمه ، أما إذا كان الشروع فيه فرضا ، فإن إتمامه فرض آخر إذا لم يمنعه عذر شرعى من مرض أو احصار أو قهر وغلبة ، ويؤاخذ من شرع فيه وترك الإتمام قادرا.
ولك أن تقول : إنما نزلت الآية لفرضية الحج وللإخلاص فيه لله كما قال تعالى : **"وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ"**[1] وقال تعالى : **"ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ"**[2] والحج معلوم وهو فى اللغة القصد . يقال حججت فلانا أى قصدته . وفى الشرع : أعمال وأقوال وهيئات مفتتحة بالإحرام مختتمة بطواف الإفاضة ، وأركانه الإحرام والطواف والسعى والوقوف بعرفة ، وكل ركن منها فيه فرائض وواجبات وسنن . وقد أتحد الفرض والواجب عند مالك والشافعى وابن حنبل إلا فى الحج فإن ترك الفرض عندهم يبطل الحج وترك الواجب يجبر بالدم ، وقد فصلت ذلك فى كتاب : "هداية السالك إلى علم المناسك" فليراجعه مريد العلم.
وظاهر تلك الآية يجعل العمرة فريضة بدليل قوله تعالى : **"وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ"** وبعضهم يراها سنة ويرى إتمامها سنة أخرى ، وأركانها الإحرام والطواف والسعى فى رواية : "وأقيموا الحج والعمرة لله" والمعنى : وأتموا الحج بأركانه وواجباته وسننه والعمرة كذلك.
وإتمام الحج والعمرة أن يهل الحاج بهما من دار أهله . وقد أهللت بها من دار أهلى فعاب على من يجهلون علم أهل العزائم ، وقد قرر الإمام ابن جرير الطبرى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن عباس رضى الله عنهما وعن سفيان الثورى وسعيد بن جبير قال : من تمام العمرة أن تحرم من دويرة أهلك ، ولك أن تقول فى معنى أن تخرج من دويرة أهلك ناويا الحج لا تقصد تجارة ولا غيرها وتهل من الميقات.

([1]) سورة البقرة : 124.
(2) سورة البقرة : 187.

وكما بينا أن الحج يجب على من شرع فيه إتمامه ولو كان تطوعا ، نقول فى العمرة أنها تكون واجبة بالشروع فيها وأن كانت سنة ، وإن قرر كثيرون من الصحابة فرضيتها كما روى ذلك ابن جرير الطبرى فى تفسيره . وسنفصل ما أجملناه هنا فى تأويل الآيات الواردة فى الحج أن شاء الله تعالى . وأن فصلنا ذل فى كتاب : "هداية السالك إلى علم المناسك".

قوله تعالى **"فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ"**

الحصر فى اللغة هو الحبس والمنع مطلقا لا فرق أن يكون بعدو أو بمرض أو بغيرهما – وسبب نزول هذه الآية حصر المشركين رسول الله ε عند الحديبية فى سنتها وخصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم كما سبق ، ومعنى ذلك أن الله تعالى يبين أحكامه لرسوله ε أى احصرتم وأنتم محرمون فلا تحلوا الإحرام إلا بعد أن تقدموا ما استيسر من الهدى من شاة إلى بدنه ، وما استيسر أى ما تيسر للمحرم.

قوله تعالى **"وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ"**

لما كان حلق الرأس فما دونه من المحظورات على المحرم كان الحكم عليه أن لا يحل إحرامه إلا بعد أن يبلغ الهدى محله ، وبلوغ الهدى محله كما بينه العلماء أن يصل إلى البيت أو ينحر فى مكان الحصر ، إذا لم يتيسر وصوله إلى البيت وبعد ذلك يحل تماما ، فإن كان الحصر بعدو متغلب قضى الحج أو العمرة ، وأن كان بمرض أو فقد زاد فهو فى حل قضى أو لم يقض.

معنى هذه الآية أن من كان مريضا مرضا يقتضي أن يترك بعض واجبات الإحرام ، أو به أذى من رأسه كذلك يقتضي أن يحلقها أو يضمدها ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، والصيام ثلاثة أيام والصدقة إطعام ستة مساكين ، والنسك ذبح ما تيسر له من شاة إلى بدنه.

وسبب نزول هذه الآية ما روى عن كعب بن عجرة أنه أصابه أذى من رأسه فملئت قملا ، وسرى القمل إلى لحيته وشاربه وحاجبيه فبلغ رسول الله ε ، فأحضره وقال له : "ما رأيت أن يبلغ بك إلى هذا الحد . وأمر بحلاق فلحق له شعره وسأله : هل عندك شئ تدخره ؟ فقال : لا ، فقال عليه الصلاة والسلام : صم ثلاثة أيام".

وهنا يظهر أن إزالة الأذى مقدمة على الصدقة والفدية والصوم كما أمر رسول الله ε بإزالة الضرر ، وكما فعل فى حصر الحديبية لما أن دخل البيت على أم سلمة يتضجر فقالت أم سلمة : لا أراعك الله يا رسول ما بالك ؟ فقال: عصانى اصحابى ، أمرتهم بالحلاقة فأبو فقالت : يا رسول الله ثم فاحلق وانحر فإن القوم يفعلوا ، فقام ε وأمر الحلاق بحلق شعره وقام فنحر ، فلم يبق رجل من الصحابة إلا حلق شعره ونحر هديه – وكان تأخيرهم عن الحلق والنحر اعتقادا أن رسول الله ε يخفف عنهم ، رحمة بهم وهم يحبون الأخذ بالعزائم فى كل أمورهم ، والعزائم علم رسول الله ε لا قوله ، فقد يقول للتخفيف والرحمة ولكنه لا يعمل إلا العزائم ، فبدأ ε بالحلق قبل النحر وأن قال بعض العلماء بالنحر قبل الحلق فقول مرجوح لا راجح.

قوله تعالى **"فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ"**

أى إذا حصل الأمن من المانع الذي هو الحصر ، وإذا كان المحرم للحج أو العمرة فى أمن من دار أهله وأهل بالعمرة فى أشهر الحج ، فعلية فدية لأنه فى الحرم فى أشهر الحج ، والإكمال لإتمام الحج أن يهل الإنسان بالحج مفردا ثم يأتي بالعمرة في غير أشهر الحج . وأشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة إلى آخرها أو اليوم الرابع عشر منها ، فمن أتى بالعمرة فى الحرم على الأول أو في النصف الثاني من ذى الحجة على القول الثاني فلا فدية عليه.

قوله تعالى **"فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ"**

أى فمن لم يجد الفدية التى يفدى بها من المتعة بالعمرة فى أشهر الحج فعليه أن يصوم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله "تلك عشرة كاملة" بيان كل البيان ، لأن الله تعالى يخاطب بكلامه العزيز كل طبقات عباده حتى بلغ من التنزل مبلغا بين الحكم مجموعا ليفهم كل سامع ، وهكذا بيانه سبحانه حجة على العالم أجمع حتى لا يدع مدع أنه لم يفهم كلام الله أو لم يجد م يعلمه ، والله تعالى فى أحكامه بينها بيانا يدركه كل مسلم مهما كان جاهلا ، فإن الجمع هنا فى قوله تعالى : **"ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ"** بيان شاف كما

قال تعالى : **"وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً"**[1] سبحان من له الحجة البالغة والآيات الباهرة.

قوله تعالى **"ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ"**
أى ذلك الحكم البين لكل حاج من الآفاق ، أما أهل مكة فلا متعة لهم.

قوله تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"**
أى راقبوا الله فى القيام بما أمركم به وفى الإخلاص لذاته سبحانه ، ومحافظة على حدوده تقدس وتعالى ، وأيقنوا يقينا يقتضي رعاية جلاله وعظمته فى حال قيامكم بأوامره أنه سبحانه يؤاخذ ن خالفوا أمره أو نهيه بالعقاب الشديد المؤلم ، حيث لا يكون هناك شفيع ولا نصير ولا ظهير يرد عن العصاة قدر الله تعالى الذي بينه في أمره ونهيه.

وقوله تعالى : [**"الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"** (197) **"لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ"**](198).

قوله تعالى **"الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ"**
تقدم معنى لفظة الحج ، وقوله تعالى : **"أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ" هى شوال وذو القعدة وذو الحجة على قول بعضهم وشوال وذو القعدة وعشرة من ذى الحجة على قول آخرين.**

قوله تعالى **"فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ"**
يعنى أحرم بأن أغتسل وصلى ركعتين وليس ثياب الإحرام ولبى ، وبذلك يكون أوجب على نفسه الحج لله تعالى ، لأن فرض الشئ الدخول فيه.

قوله تعالى **"فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ"**
الرفث هو الجماع فما دونه . **"وَلَا فُسُوقَ"** الفسوق اسم جامع لكل معصية فنهانا الله عن المعاصى كما نهانا عن الرفث.
قوله تعالى **"وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ"**
الجدال كل مماراة تغضب الغير ، لأن الذى فرض على نفسه الحج فى أشهر الحج وجب عليه أن يكون قاصدا ربه ليرضيه بالقيام بتأدية مناسك الحج ، لا يشغله شئ غير الحج إى ما كان ضروريا من حاجات الإنسان ، وكان المحرم تجرد من المحيط والمخيط والطيب ، وحلق الشعر وقلم الأظافر وما يلى ذلك من الشئون الإنسانية الجسمانية ، وتجرد أيضا من استعمال لسانه وجميع جوارحه فيما يناسب نفسه الشهوانية والغضبية.
وإذا كان كذلك فالأحرى أن يكون القلب مستغرقا بكليته فى الحضور مع الله تعالى أو فى استحضار معيته سبحانه ليكون أشبة باللائكة المقربين ، ويكون فى مقام أكبر مجاهدة فى ذات الله ، وبذلك ينال مقصده وهو الفوز بتمام الحج وكماله ، أن يزور ربه فى بيته وكيف يتنجس الإنسان بالنجاسات الحيوانية وهو مقل على رب البرية ؟ لا يقع فى مثل تلك النجاسات إلا من جهل مقصده

([1]) سورة الأعراف آية : 142.

قوله تعالى : **"وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ"**
بشر ى لأهل الإخلاص فى العمل الذين يعاملون الله تعالى معاملة العبد الصادق لسيده القادر – وهذه الآية تجذب القلوب إلى علام الغيوب فيسارع العامل إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السموات والأرض ولما اكان الأمر يإتخاذ الزاد عاما للأشباح والأرواح ، بين سبحانه وتعالى أن الخير العظيم هو أن تحصل له البهجة والأنس بما يؤلم غيره من العمال خصوصا فى مناسك الحج ، التى هى أشبه بالهجرة من الدنيا إلى الآخرة ، بتركه أهله وماله وتجشمه متاعب السفر برا وبحرا ، ومعاشرته لمن لا يعرف ومفارقته لمألوفاته جميعا ، فإن ذلك كالجهاد أمام الأعداء.

وبإحرامه الباطن والظاهر يتجرد من الآخرة ، بنزاهة سره عن خطور نعيمها على قلبه فى جانب ما هو مقبل عليه بسره بعد صقل جوهر نفسه ومواجهة الغيب المصون لها ، ويقينه الحق أن الله يعلم ما يفعله ، وأن علمه سبحانه وتعالى بنا فى مقام قبوله وإقباله علينا ليس كعلمنا بالأشياء ، لأن علمه بنا فى هذا المقام علم تنزل وتجل بما يليق به جل جلاله بالنسبة لعبد جذبته عناية من وجوده الباطل إلى الوجود الحق ، وعبد هذا حاله مع ربه لا تعلم نفس ما أخفى له من قرة أعين.

قوله تعالى **"وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"**
سبب نزول هذه الآية أن الحجاج كانوا إذا خرجوا للحج لم يحلموا معهم زادا ، وكان من يحمل منهم يرميه فى الطريق ويقول : أنا خرجنا لله أفلا يطعمنا ويسقينا ؟ . . وكان بعضهم يقول : أن الله حرم علينا الطيب والنساء وقص الشعر والظفر ولبس المخيط ، أفيحل لنا التجارة ؟ ويتركونها . فأمر الله من تركوا الزاد تعالى : "وتزودوا" ولما كان الأمر بإتخاذ الزاد عاما للأشباح والأرواح بين سبحانه وتعالى خير الخيرين لتكون همتهم متوجهة إلى خيرهما – قال سبحانه : **"فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى"** والمعنى والله اعلم : تزودوا زاد الأشباح حتى يغنيكم الله عن سؤال الخلق فى تلك الدار الدنيا ، لتتفرغوا لتأدية مناسك الحج مع فراغ قلوبكم من هم الرزق ، وتزودوا لأرواحكم بالتقوى لتنالوا مقاصدكم الروحانية فى الدنيا من مزيد العرفان وكمال الشهود وصحة اليقين ونيل القبول من الله تعالى الذى أنتم تحجونه ، وتفوزون يوم القيامة برضوان الله الأكبر فى معقد صدق عند مليك مقتدر.
ولك أن تقول : أن فى هذه الآية حذفا تقديره : وتزودوا زاد الأشباح والأرواح ثم قال سبحانه : **"فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى"** هى زاد الأرواح ، والتقوى كما بينت لك سابقا مراقبة الله تعالى مراقبة حضور أو استحضار فى كل قول وعمل وحال – ولما كان المراد بقوله : "وتزودوا" هنا أى فى الحج ناسب أن يجعل التقوى عامة فى الحج وفى غيره فقال سبحانه : **"وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"** أى أديموا مراقبتي فى كل نوع من أنواع العبادة وأنواع المعاملة والأخلاق – ولما كان الله تعالى لا يخاطب بهذا الخطاب إلا من يعقل عنه أمره ونهيه وخبره خص هذا الخطاب بأولى الألباب وهم أهل العقل الذين يعقلون عن الله تعالى.

قوله تعالى **"لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ"**
ثم خاطب من كانوا يمتنعون عن جلب المنافع المباحة فى الحج من تجارة وخدمة فقال سبحانه : **"لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ"** وتلك الآية مرتبطة بالتى قبلها – ولما كانت أعمال المناسك ابتغاء الفضل من الله ، وكان طلب ما لابد منه لحفظ الأشباح فضلا منه جل جلاله قال سبحانه: **"لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ"** الآية – ومعلوم أن الله وضع الأسباب والأواسط لنعمل ونشهده سبحانه الفاعل المختار المعطى ، فالعمل لضروريات الدنيا بكل وكمالياتها عبادة إذا شهد العامل أنوار الرزاق الوهاب القادر فى عمله.
ولما كان الكون وما فيه مظهر لظهور معانى الأسماء والصفات الربانية ، كان ما يحصله العبد العارف من الكون سببا فى استحضار جمال ربنا جل جلاله بالنسبة لن الأكوان مظاهر لمعانى صفاته – أما حضرة الأسم : "الله" فهو علم على الذات الواجبة الوجود التى تنزهت وتعالت عن أن تحوم الرواح الكاملة حول سمو عزتها وعظمتها – ولذلك قال تعالى فى مقام هذه الحضرة **"وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"** فأن تقوى الله تعالى لا تكون إلا

بالأرواح الكاملة ، وتقوى الربوبية تكون بالجوارح المحصلة فى حصون الشريعة التى خلق الله الكون إمدادا لها ، لتقتبس الروح مما فيها من أنوار آيات الله وأسراره العلية . وهذا سر قوله تعالى : **"لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ"**.
أى تتاجرون وتصنعون الصناعات وتزالون المهن والحرف لتنالوا فضل ربكم من القوت واللباس والمأوى والغنى عن شرار الخلق بالفضل من ربنا جل جلاله ، لننال ما كنزه لنا فى هذا الكون بجوارحنا التى أهلها ذلك . سبحان من خلقنا أرزاقنا وألهمنا العمل بها لنيل ما لابد منه وأكمل.

قوله تعالى **"فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ"**
الإفاضة هى النفرة بعد غروب الشمس اليوم التاسع من ذى الحجة ، فبين لنا ربنا جل جلاله أن نجعل الإفاضة من عرفة ليعيدنا إلى ما كان عليه الخليل عليه السلام ، فإنه لما خرج ومعه جبريل يعلمه مناسك الحج لقيه إبليس فى الطريق فرماه بسبعة أحجار وكبر عند الجمرة الأولى ففر أمامه ، ثم تعرض له فرماه بسبعة أخرى حيث الجمرة الثانية ففر أمامه ، ثم تعرض له فرماه بسبعة أخرى وكبر حيث الجمرة الثالثة ففر منه حتى وصل إلى الجبل فقال له جبريل : عرفت ؟ فقال : عرفت – فسمى عرفات . فقوله تعالى : **"فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ"** المشعر الحرام كل مزدلفة، حيث أزدلفت فيها للخليل عليه السلام ليلته وقام منها فى الغلس ، المبيت فيها من المناسك ، وذكر الله فى المشعر الحرام موسع فيه صلاة ودعاء وشكرا وحمدا وتسبيحا.
.
قوله تعالى **"وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ"**
فرض علينا سبحانه أن نذكره ذكر المستحضرين إحسانه إلينا بهدايتنا إلى ما كان عليه الخليل عليه السلام دينا وعبادة ، وأنه وفقنا لما هدانا إليه للعمل الذي يرضاه منا.

قوله تعالى **"وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ"**
تأويل هذه الآية : أما أن تكون "أن" بمعنى "ما" واللام بمعنى "إلا" ويكون تأويل الآية وما كنتم من قبله إلا من الضالين الذين هم على غر رشاد وهدى ، ولك أن تقول "أن" بمعنى قد وتكون الآية : وقد كنتم م نقبله لمن الضالين.

قوله تعالى :[**"ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"** (199) **"فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ"**(200) **"وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"**(201) **"أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ"**](202).

قوله تعالى **"ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ"**
يعيد الله أمر مناسك الحج إلى ما كانت عليه فى زمان الخليل عليه السلام فإن قريشا قالوا : أنا أبناء الخليل وحماة حرمه ولا ينبغى لنا أن نعظم غير الحرم فلا نقف على عرفة ، بل يجب أن نقف فى الحرم ، وهو قبائل "الحمس" – وكان العرب يتجاوزون الحرم إلى عرفة فيقفون عليه فأمرنا الله تعالى أن نحج حج الخليل ونحفظ مناسك الله تعالى بقوله : **"ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ"** والمراد بالناس هنا الخليل وأولاده . وجائز أن يكون المراد العرب الذين كانوا يفيضون من فوق عرفة.
قوله تعالى **"وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**
فرض علينا ربنا الرجوع فى الإفاضة من عرفة لا من غره لأنه موقف الخليل عليه السلام ومنه أفاض راجعا إلى مزدلفة – ويأمرنا سبحانه أن نطلب منه المغفرة لذنوبنا مبينا لنا أنه غفور لخطايانا رحيم بنا ، خصوصا بعد أن أقامنا فيما يحبه فوفقنا لإقامة مناسك الحج حيث آنات الإجابة وأماكنها.

قوله تعالى **"فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا"**
سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا إذا أتموا الحج أخذوا يتفاخرون بآبائهم ، فمنهم من يقول : كان أبى كريما ينحر البدن ، ومنهم من يقول : كان شجاعا يذود عن قومه ، ومنهم من يقول : كان سيدا مطاعا فى قومه . فأخبرنا الله تعالى أن نستبدل ذكر الآباء بذكره سبحانه الذى له الفضل والنعمة والمنة علينا بما أولانا من سوابغ آلائه وأمدنا به من عنايته وهدايته لنا ، حتى كنا أمة خير الأنبياء وسيدهم الذين مدحنا الله بقوله : **"تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ"**[1].
وذكر الله بعد تمام المناسك دليل على أن الله زكى نفوسنا حتى سبحت فى عالم ملكوت السموات والأرض مواجهة الحقائق التى تستبين بها الأسرار الغيب المصون ، حتى وقعت العين على جلائل آيات الله وعظيم إحسانه إلينا ظاهرا ، لكان الله تعالى أقرب إلينا من أنفسنا التى بين جنوبنا ، فضلا عن والدينا وأبنائنا ، حتى تمثلت الأرواح أنواره ، وتصورت العقول جماله وجلاله ، وسجدت أعظاما لكماله المنزه ، فبذلك يكون الذكر عن كشف وعيان لا عن حجة بعقل وبرهان . . **"أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا"** أى لوقوع الحجة الشهودية التى أضمحل عندها ماللوالدين من الآثار وما للنفس التى هي بان الجنبين من المنافع والمصالح.

قوله تعالى **"فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ"**
معنى هذه الآية أن الناس يذكرون على قدر معرفتهم ، فالجاهلون بأنفسهم جهلوا ربهم فطلبوا ما هو خير عندهم مما يرونه ملائما لطبائعهم ولذة وحظا لحسهم ، فيقولون ربنا آتنا إبلا وغنما وأولادا وغير ذلك . وهم الذين لم تنفذ بصائرهم من أقطار السموات والأرض ، أسرار الغيب المصون ، الذى أمرنا الله تعالى فى القرآن المجيد أن نتفكر فيه ونتدبر ، ونسعى فى تحصيل العلم به ليكمل تقيننا . وهؤلاء لا نصيب لهم يوم القيامة لأنهم رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها.

قوله تعالى **"وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"**
وهم أهل العلم الذين زكى الله بالعلم نفوسهم ، وطهر به من ا لرجس جوارحهم ، فسألوا الله الفوز بالسعادتين : فسعادة الدنيا بالعافية والأمن والقوت ، وسعادة الآخرة بالمغفرة والفوز بالنعيم المقيم . والحسنة فى الدنيا هى كذلك تيسير ما لابد للعبد منه من أمن وعافية وقوت ، وصرف أنفاسه فى طاعة الله تعالى بعد فراغ قلبه من تحصيل ما لابد له منه ليقوم بأوامر الله تعالى مطمئن القلب ، مستريح الجسم من عناء الشغل بغير ذلك. ولذلك كان السعى فى طلب ما لا بد منه من عبادة الله لأنه وسيلة لكمال العبادة.

قوله تعالى **"وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"** يسألون الله تعالى أن يحفظهم من عذاب النار فى الدنيا ، وعذاب النار فى الدنيا هو الوقوع فى معاصي الله تعالى التى توعد الله بها من خالفوا أوامره سبحانه بدخول جهنم ، وليس فى الآخرة أعمال يجازى عليها العبد بخير أو بشر إنما الأعمال فى الدنيا.

قوله تعالى **"أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ"**
الإشارة إلى من أخبر الله عنهم فى الآية السابقة ، أى هؤلاء القوم لكل فريق منهم **"نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا"** أن خيرا فخير وأن شرا فشر **"وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ"** يعنى أن حساب الله وأن ظن الإنسان أنه بعيد فى الدنيا أو نسيه أهل الجهالة به سبحانه فإنه سريع بتحقق وقوعه ، وهو واقع فى الدنيا لأنها سببه ، والواقع قد يتحقق وقوعه فى الدنيا أو فى الآخرة ، فقد يعاقب الله أهل الكفر به وأهل المعاصي بالانتقام منهم فى الدنيا قبل الآخرة ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

([1]) سورة آل عمران آية : 110.

قوله تعالى **"نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا"** هو القسط الذى يناله العامل فى الدنيا بحسب عمله . ويظهر أن قوله : "أولئك" عائد إلى الذين يقولون : **"رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"** فتكون الآية بشرى لهم بحسن جزائهم.

قوله تعالى : [**"وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ"**(203) **"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ"**(204) **"وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ"**(205) **"وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ"**(206)].

قوله تعالى **"وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ"**
أمرنا الله تعالى بذكره فى أيام التشريق التى هى بعد يوم النحر لمعان ثلاث:
المعنى الأول : أنها أيام إجابة وقبول من الله تعالى للأعمال .
والمعنى الثاني : أن الأبدان والنفوس تكون فيها طاهرة وتلك الطهارة متحققة فى الحجاج لما وفقهم الله لعمله ، ومتحققة فيمن أقعدتهم الفاقه فأنهم وأن لم يشهدوا تلك المشاهد فلهم قلوب تحن إليها وتشتاق ، وبهذه النية يكونون على جانب من الطهر الذى يجعلهم مقربين من الله تعالى فيستجيب لهم سبحانه ويسمع منهم سماع إجابة.
والمعنى الثالث: أن تلك الأيام قد تحمل فيها الغفلة لغير أهل المراقبة بسبب بهجة العيد وفرح المسلمين به ، فيشغلهم الفرح بالعيد عن واجب الوقت المبارك ، وبذلك تألف النفس ذكر الله فى كل وقت ، والذكر الذى يأمرنا الله تعالى به هو التكبير والتهليل والتسبيح عقب كل صلاة.

قوله تعالى **"فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى"**
هذه الآية وسع الله بها علينا فبين لنا أن الذى فرض على نفسه الحج وأتمه ، فرمى الجمرات وطاف طواف الإفاضة فى يوم النحر ، ثم أتم الجمرات الثانية والثالثة فى اليومين ورجع إلى مكة لحاجة تقتضي أن يعود لأهله بعد اليومين فلا حرج عليه ولا مؤاخذة ، بل يكون أتم الحج والعمرة لله كما أمر جل جلاله ، بشرط أن يكون مراعيا حقوقهما رعاية أهل التقوى العاملين بها كان عليه رسول الله ε والأئمة الهداة من بعده ، ومن تأخر بأن أتمها ثلاثة أيام مع رعاية التقوى أيضا فلا أثم عليه ، وله من الأجر أجر ما زاد من العمل على من سبقه.

قوله تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ"**
"وَاتَّقُوا اللَّهَ" أى راعوا التقوى فى أعمالكم **"وَاعْلَمُوا"** أى تحققوا **"أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ"** أى تبعثون من قبوركم وتحشرون إليه ليجازى كل عامل بما عمل فيغفر ويتفضل ويحسن ويحاسب ويعاقب.
"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ"
سبب نزول هذه الآية أن الأخنس بن شريق حليف بن زهرة من الطائف قدم على رسول الله ε فأدعى أنه قدم للإسلام لا لغيره ، وأقسم بالله ومدح نفسه بمحبته فى الإسلام ورغبته فيه ، وبعد أن تولى من أمام رسول الله ε ذهب إلى زرع بعض الصحابة فأحرق الزرع وعاقر الخمر وولى ، وفى بعض المنافقين أيضا الذين تكلموا فى سرية القراء المرسلين ليعلموا قبيلة من قريش الإسلام ، وقد منها وفد على رسول الله ε والتمسوا أن يرسل معهم عليه الصلاة والسلام رجالا قراء يعلمونهم أمور دينهم ، فأرسل معهم خيرة قراء المدينة فأخذوهم حتى رفعوهم على جبل هناك ، وجردوهم من السلاح وأرادوا أن يقدموهم إلى قريش ليقتلوهم فدية عمن قتلوا فى بدر فأبى الصحابة أن ينزلوا ، فداهمهم سبعون قرشيا فقتلوهم وأسروا خبيبا رضى الله عنه فحبسوه فى مكة عند امرأة ممن قتل أقاربها فى بدر ، فكانت المرأة تدى من خبيب الأعاجيب التى يكرمه الله بها ، فترى عنده العنب فى غير وقته والطعام الذى لا يكون إلا فى الجنة حتى قتله المشركون صلبا ، وكانوا كلما أرادوا أن يصلبوه محولين وجهه عن القبلة جاهد أن يحول وجهه إليها فقال مرتجلا قوله المشهور:

ولست أبالى حين أقتل مسلما . . على أى جنب كان لله مضجعى

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل عمر بن أمية الضمرى ساعى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بجسمه ، وكانت قريش تتشاءم به لأنه كان من مشاهير الصعاليك كعنترة العبسي والربيعة بن مكدم والحارث بن مرة الحنظلى ، فلما قام أجابه لأمر رسول صلى الله عليه وسلم كان يمشي ليلا ويختفى نهارا حتى دخل مكة ليلا ، فرآه بعض قريش فأوجسوا منه خيفة ، ولكنه قام بالليل فحمل خبيبا وسافر به إلى المدينة غير هياب ولا وجل من القوم ، وكثر فى هذه الحادثة لغط المنافقين المنكرين على إرسال القراء شكا فى الرسالة وجهلا باختيار الله من اختاره من القراء للشهادة.
وأن كان سبب نزول الآية خاصا فالحكم عام فى كل من ارتكب ما ارتكبه هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة – والمعنى – ومن الناس من يتكلف أن يجمل ظاهره بقول المسلمين وعملهم ، ويقسم بالله على صدقه وعمارة قلبه بالإيمان ، والذى في قلبه هو ألد الخصام أى أعوجه وأنكاه وأشده.

قوله تعالى**"وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ"**
أى إذا أثبت لديه أنه قبل إيمانه وعد من المسلمين وحفظ من مراقبته فى أعماله السيئة ، والإفساد ضد الإصلاح ، والحرث هنا : الزرع . والنسل : نتاج الحيوانات ، أو أسعار الفتنة فيهلك الناس بسببها – **"وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ"** أى لا يأمر به وأن قدره ، والذى يحبه الله هو ما أمر به كما قال ε فى الحديث القدسي بسند البخارى: "وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى من أداء ما افترضته عليه" فكأن فرائض الله هى محابه وترك القيام بها هو مباغضه:

قوله تعالى **"وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ"**
يخبرنا ربنا عن هذا المنافق الكذاب أنه إذا وقع فيما يدل على كفره ونفاقه وجحوده ، وذكره مذكر بالله أخذته عزة كبرياء الجاهلية وغرورها ، وعزت عليه نفسه الخبيثة أن يقبل الذكرى ، قال تعالى : **" فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ"**[1] وأبى أن يسمع أو يطيع فحكم الله عليه بالخلود فى جهنم قائلا "فحسبه" أى كفايته الخلود فى جهنم "ولبئس المهاد" أى وساء فراشة ووطاؤه.
وفى ذلك وعيد لمن ينسون يوم الحساب ممن يدعون الإسلام وليسوا منه فى شئ ، كالذين يرتكبون المنكرات علنا ويصرفون أنفاسهم فى الملاهي والمعاصى غافلين عن الدين قلبا وقالبا بل حربا على أحكامه ، أعاذنا الله من سوء القضاء وقضاء السوء.

قوله تعالى :[**"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ"**(207) "يَا **أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ"**(208) **"فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"**(209) **"هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ"**(210) **"سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"**(211).]

قوله تعالى **"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ"** "207".
سبب نزول هذه الآية الشريفة رجال من اصحاب رسول الله ε منهم صهيب بن سنان وأبو ذر الغفارى وعمار ووالده ياسر وأمه سمية وبلال مولى أبى بكر وغيرهم من جلة الصحابة رضى الله عنهم باعوا أنفسهم لله عز وجل – ولك أن تقول أن سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى ذكر أهل الكفر به فى قوله تعالى : **"فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ"**وذكر بعدهم أهل النفاق بقوله : **"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"** الخ لآية ثم ذكر أهل الإيمان بالله ورسوله بقوله : **"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ"** هذا بسبب سياق الآية.

([1]) سورة الذاريات آية : 55.

أما الذى يظهر لأهل العلم بالله منه فإن الله يبن أحوال أحبابه الذين اجتباهم لحضرته فيقول : **"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ"** أى يبيع نفسه . و "ابتغاء" نصبت على حذف الخافض أى لإبتغاء ، وهم الذين باعوا أنفسهم لله تعالى لنيل محابة ومراضيه ، فجاهدوا فى سبيله بين الصفين وف مواجهة العدو ، أو بان أقامهم الله تعالى فيما يحبه ويرضاه فأمورا بالمعروف حيث المخاوف العظمى ، ونهوا عن المنكر غير هيابين ولا وجلين مما يصيبهم فى سبيل ذلك من باغ أو ظالم.

قوله تعالى **"وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ"**
الرأفة هى الرحمة الواسعة جدا ، فإن الرحمن هو المنعم بجلائل النعم الكونية ، والرحيم هو المنعم بجلائل النعم الأخروية ، والرءوف هو المنعم بالعواطف والعوارف والمنازلات والتجلى بأسماء جمالة سبحانه – وهنا قال تعالى : "والله رءوف" إشارة إى أن هؤلاء القوم رفعوا إلى مقام القرب ، حيث تجاوزوا مقام الرحمن الرحيم إلى الرءوف فى مواجهة وجهه العلى العظيم – وقوله : "بالعباد" –ال- هنا للعهد ، أى العباد المخصوصين الذين سبقت لهم منه سبحانه الحسنى ، وهؤلاء أنسهم بالله تعالى فى الدنيا فوق أنس أهل الجنة يوم القيامة.
وناهيك بهذا الأنس الذى كان لأبى بكر رضى الله عنه فى يوم الغار ، حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أدركنا ، ها هم القوم فوق رؤوسنا ، لو نظر واحد منهم إلى قدميه لأبصرنا – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا"**[1].
فكان أنس أبى بكر رضى الله عنه بمعية الله له فى الغار فوق أنس أهل الجنة يوم القيامة بالنعيم المقيم – وأهل هذا المقام فى مقعد صدق عند مليك مقتدر – وشتان بين من يكون عند مشتهياته الدائمة السهلة اللذيذة ، وبين من يكون مواجها لوجهه الجميل جل جلاله – وهذا معنى قوله تعالى : **"وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ"** رأفة يتفضل بها عليم بأن يرفع مقامهم عما يشغل أهل الجنة من بهجة وأنس ولذة مما يلائم هياكلهم الحسية ، وبين بهجة الإنسان بلذات أعضائه ، وبهجته بمشاهدة وجه الله بون شاسع لا يصوره عقل عاقل ، إنما يتصور ذلك الأرواح التى هى من نور الله.

قوله تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ"**
يخاطبنا ربنا جل جلاله بنداء القريب من القريب ليؤنس قلوب أهل الإيمان ، بأنه تنزل بجماله الداله على عناية سبحانه بنا ببيان ما يقربنا إليه ، ويدخلنا فى حصون أمنه سبحانه – وأن كان ينادى الكفار فإنما يناديهم نداء من يعلمهم أنه قادر قوى قهار – أما هنا فنداء رحمة وحنان فوق نداء والوالدة الشفيقا لوالدها إذا شفقت عليه فنادته – لا تقرب من المؤذيات وأفعل كذا من الخيرات – فاله تعالى يأمرنا وهو يعلم أننا موقنون بالدخول فى السلم بكسر السين أو بفتحها بمعنى الإسلام والسلم.
وفى قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"** – إشارة إلى أن القلوب صدقت وبقيت الجوارح لم تعمل ن فيعلمنا الله ان الإيمان بالقلب وهو التصديق لا يكفى فى كمال الإيمان ، بل الواجب على كل واحد يدخل فى السلم أن ينفذ أوامر الله من العبادات والأخلاق والمعاملات الحسنة ، حتى يقيم الحجة بأنه مؤمن بالله ومسلم له سبحانه ، وبذلك يكون داخلا فى السلم حقا.

"كافة" حال من : " ادخلوا" وقد يكون الحال من واو الفاعل فى : "ادخلوا" وقد يكون من قوله : "فى السلم" أى بكل أوامر الإسلام بقدر طاقتكم وانتهوا عن نواهيه كلها ، فإن المسلم واجب عليه أن يقوم بكل ما أمر به قدر الاستطاعة ، وأن ينتهى عما نهاه الله عنه مطلقا ، اللهم إلا ما رخصت فيه الشريعة بان هدد بالقتل أو بترك ماله أو بشرب الخمر أو ما أشبه ذلك ، فإن له مندوحة ورخصة فى العمل ، وليس له أن يلقى بنفسه إلى التهلكة إلا إذا قهره الوجد الصادق فى مشاهدة جذابة للقلب إلى نيل رضوان مواجه به ومشهود له.

([1]) سورة التوبة : 40.

قوله تعالى **"وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ"** الخطوات هنا المناهج والسبل ، وفى هذه أجمال ، ثم فصل هذا الإجمال بقوله : **"إِنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ"** والعداوة البينة هنا لا تتحقق إلا بعد العلم بالنفس وبحقيقة الشيطان وقد بينت لك حقيقة الشيطان فى كتاب : "الطهور المدار" وحقيقة آدم وسبب العدواة التى كانت بين آدم والشيطان وورثها أبناؤه : وخطيئة إبليس الكبرى الحسد – وخطيئة آدم الكبرى التى تمكن إبليس بها منه هى الطمع ، وكلاهما فطرتان فى هاتين الحقيقتين ، فما كان فى آدم من الفطر انتسخ فى بنيه ، ولتلك الفطر أمرنا الله بجهاد الطبع الخبيث والنفس الأمارة بالسوء والنفس الشهوانية بإتباع الشريعة المطهرة ، والمحافظة على العمل بما جاء به رسول الله ε من عند الله تعالى وما فينا من الأعضاء المؤهلة لقبوله – قال تعالى : **"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا"**[1].

ولذلك فإن النفوس المطمئنة وأن كانت دواعى الشرور التى تقتضيها البشرية لا تنتزع منها بل هى فى غريزتها ، إلا أن الله لم يجعل الشيطان عليها سلطانا ، فقد يقع المؤمن فى كثير من الخطايا التى لم يتوعد القرآن أهلها بالنار كالتوسع فى المباح وكالتوسع فى صرف الأموال فى الأوجه المباحة ، وكالتغالى فى صرف الأوقات فى العلوم التى ليست لازمة للإنسان ، وكصرف الأوقات فى الملاذ ، كل ذلك ليس محرما على المسلم ، ولكن الله يحفظه عند هجوم نيران الفتنة والشهوة التى يسعرها الشيطان فيحفظه تعالى لشدة مراقبته لجنابه العالى
قال تعالى : **"إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ"**[2] – والعباد هنا هم الذين يخبرنا الله عنهم فى تلك الآية بقوله تعالى : **"وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ"** وقد فصلنا اجمال تلك العداوة . وهمم الشيطان التى يسعى لوقوعها منا فيها تقدم م نقوله تعالى : **"إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"**[3] وجائز أن نؤول هذه الآية بما أولها به أهل العلم من أن قوله تعالى : ""يَا **أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**" المخاطب به من آمنوا بموسى وعيسى ، الإيمان الى يرضاه الله من العباد
– ويكون قوله تعالى : **"ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً"** اى أدخلوا فى الإسلام جميعا وهذا التأويل لا يمنع ما بيناه فى تأويل الآية من قبل.

قوله تعالى : ["**فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**"](209)
معنى هذه الآية أن الله يخاطب أهل الإيمان بنبيه محمد ε أو أهل الإيمان بموسى عليه السلام : يقول سبحانه أن حصل منكم الزلل وهو مخالفة ما جاء به الرسول ε لأهل الإيمان ، أو أن أنكرتم ما بينته فى التوراة من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحدتم ذلك افتراء على وتكذيبا له عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى **"مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ"** ومجىء البينات وضوحها وشهودها حسا وعقلا بالحجج القويمة ، فأعلموا أن الله تعالى من بعد جحودكم وأنكاركم يا أهل الكتاب ، أو بعد مخالفتكم يا أهل الإيمان . . عزيز أى شديد العقوبة قهار فى انتقامه . حكيم ، يعاقبكم بالعدل والحكمة لأنكم بمخالفتكم ما جاءكم يا أهل الإسلام ، او بإنكاركم وجحودكم يا أهل الكتاب ، تستحقون شديد العذاب فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. .

([1]) سورة الشمس : 7 – 10.
(2) سورة الإسراء : 65.
(3) سورة البقرة : 169.

قوله تعالى: [**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**"] (210).

تمهيـــــد :

قبل أن نبين تأويل هذه الآية الشريفة نتكلم مع أهل الإيمان . . كلنا نعتقد أن ذات الله تنزهت وتعالت ، وأسماءه العلية وصفاته المقدسة وأفعاله الربانية ليس كمثلها شئ ، والواجب علينا أن نسلم أخبار الله فيما يتعلق بتلك الكمالات العلية لأنها آيات متشابهات والله تعالى يقول : "**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**" إلى أن قال "**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**"[1].

والآتيان فى اللغة الانتقال من مكان إلى مكان، وهو الأمر الذى يستلزم الحركة والسكون ، وهذا مستحيل فى جانب الله تعالى ، فآتيان الله فى هذه الآية يجب أن نسلمه له سبحانه ، إذ الآتيان معلوم والكيف مجهول والبحث فيه بالعقل بدعة ، والتكلف بالكلام عنه ضلالة ، وقد تأوله بعض العلماء بمعنى يأتى أمر الله أو عذابه أو حسابه على حذف مضاف و "هل" هنا بمعنى ما ، والمعنى ما ينظرون بعد تكذيبهم وإنكارهم ومخالفتهم إلا أن يأتيهم الله فى ظل من الغمام والملائكة ، وهذا كلام مسوق مساق التهديد الشديد والإنذار الأليم من الله تعالى .

قوله "**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ**" بالرفع عطفا على الإسم الأعظم ، يعنى أن يأتيهم الله كما يشاء فيما يشاء من ظلل وجمال وجلال وكمال ، والملائكة يأتون ، وفى رواية : "إلا أن يأتيهم الله والملائكة فى ظلل من الغمام" فيكون قوله : "ظلل" عائدا إلى الملائكة ولك أن نقول "والملائكة" بالجر ويكون المعنى بأتى الله فى ظل من الغمام وفى الملائكة.

وهنا إشارة خفية أن الغمام الذى يذكر فى هذه الآية هو الذى ذكر فى قصة التجلى لموسى عليه السلام حيث كانت تغشاه غمامة النور ، ولا تكون تلك الغمامة إلا دليلا على إنكشاف حقائق غيبية من كلام الله أو من صفاته ، ولما كان يوم القيامة يوم انكشاف الحقائق كما قال تعالى مخبرا عن الكفار "**رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا**"[2] فنستنبط من تلك الآية الشريفة أن الغمام الذى يأتى فيه الله تعالى يدل على إنكشاف الحقائق لكل أهل المحشر ، فيرى كل إنسان فى المحشر من مؤمن وكافر ما أخبرت به الرسل عليهم السلام من الغيب المصون ، الذى وصل إلينا بطريق السماع لا بطريق الحس والعقل.

وفى ظهور تلك الحقائق وانبلاجها لأهل المحشر قيام الحجة الظاهرة على فرح المؤمن بها وذلك الكافر ، فإن أهل الإيمان إذا انكشفت عنهم الحجب ، وأتى الله فى ظلل من الغمام حتى ظهر بصفاته جمالاته وجلالا ، كما ظهر لموسى بصفة المتكلم تكون تلك الساعة أسعد أوقاتهم ، وهنا تتم علينا النعمة.

وإذا انكشف تلك الحقائق لأهل الكفر بالله حل بهم السوء وعلاهم الذل والخزى ، وتمنوا جميعا أن يكونوا ترابا ولم يشهدوا تلك الحقائق التى قامت بها عليهم الحجة أنهم كانوا فى ضلال وكفر ، أعاذنا الله وأنجانا من هذا المشهد ، ونعم عيون بصائرنا بهذا النور فى الدنيا قبل الآخرة – والظلل جمع ظله وهى الكمية السميكة من الغمام.

وهنا أنبه أخواني حفظني الله وإياهم من ان يقولوا على الله ما لا يعلمون ، فإن الكلام صفة المتكلم وكلام الله تعالى صفته العلية ، فيجب أن نقف موقف الأدب مع كلامه جل جلاله ، فنسلم له متشابهة ونفهم محكمة بما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله وحاله.

وما لم يرد عنه صلى الله عليه وسلم يجب علينا أن نبحث عنه فى أقوال وأعمال وأحوال الصحابة والتابعين من الأئمة الهداة الراسخين فى العلم ، وما يتعلق بالأحداث الزمنية التى لم يتكلفوا الكلام عنها حتى تحدث فهذه نفهمها بالوسائل التى وضعتها الشريعة ، بعد تزكية النفس وتطهير السر وحفظ الجوارح ورعاية جلال الله تعالى ، ثم

([1]) سورة آل عمران : 7.

([2]) سورة السجدة : 12.

نستفتى قلوبنا بعد طهارتها من الحظ والهوى والطمع الحسد ، بل بعد التبرئة من نزعات النفوس الأمارة بالسوء وسوء الطبع وصولة النفس الشهوانية ، وبعد أن يكون حرصنا على العمل بما نعلم لدينا أعظم من تعلم ما لا نعلم ، ورغبتنا فى نجاة أنفسنا أولا وبالذات أكبر من رغبتنا فى نجاة غيرنا ، وبعد أن نعلم حق العلم أن الله ينفع الناس بعملنا وحالنا ، وأنه تعالى ينفعنا بما وفقنا له وأعاننا عليه ، فإن للشيطان دسائس تخفى على أهل المقامات العالية – ومن ذلك إخراج آدم من الجنة ، ونزغه بين يوسف وأخوته ، وتسلطه على بلعام بن باعوراء ، وإفساده لقلوب الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام حين قال له بطرس لما أن أحيا "العاذر" أنت الرب ، وما فعله بفتى موسى عليه السلام حين قال : **"وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ"**[1] قال رسول الله ε : "أن الشيطان ليجرى من أبن آدم مجرى الدم".

وكل أخ لا يجاهد نفسه فى ذات الله معاديا نفسه وشيطانه هلك مع الهالكين ، أعاذنا الله من سوء الطبع وشر النفس الأمارة بالسوء ومن بكائد الشيطان الخفية ، ومنحنا الله كمال الأدب فى فهم كلام الله وكلام رسول الله ε ، ومنحنا دوام الخشية من الله تعالى حتى لا نرى لنا حولا ولا قوة ، بل ولا نشهد قولا ولا عملا إلا ونخاف أن نعاقب عليه ، بل ونستغفر الله منه ونتوب إليه كما علمنا الله تعالى بقوله : **"إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا"**[2].

وفى قوله : "واستغفره" مكنون العلم الإلهي الذى به معرفة النفس ومعرفة الرب جل جلاله ، فإن الاستغفار بعد مجيء نصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله دليل على أن الإنسان لا يأمن مكر الله تعالى ولو أن إحدى رجليه فى الجنة ، كما أنه لا يقنط من رحمة الله ولو أسرف على نفسه قال تعالى: **"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"**[3].

والسعادة والنجاة فى الدنيا والآخرة سبيلها فى هذا البحر اللجي الأدب مع رسول الله ε وحفظه فى سنته ، كان عليه الصلاة والسلام يكثر الاستغفار خصوصا عقب الصلاة وعقب مجالس العلم ليجملنا بالجمال الذى يحبه الله ويقبل به علينا ، هذا وأنى أزيد إخواننا بيانا فأقول لهم : أن الخشية فى القلوب والخشوع فى الجوارح ، فمن خشعت جواره تأدبا مع رسول الله ε خشع قلبه وخشعت جوارحه مع الله ولى المؤمنين.

قوله تعالى**"وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ"**

أى نفذ الله تعالى قدره على عباده أزلا ، من دورة الكون فدورة البرزخ فالبعث فالحشر فالنشر فالمغفرة فالجنة فى نعيم مقيم أو العقوبة فى النار فى عذاب أليم.

قوله تعالى**"وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ"** معلوم أن الأمور كلها بالله ومن الله وعلى الله وإلى الله فى الحقيقة ونفس الأمر وعند الإيمان الكامل بالله ، ولكن جهلاء المؤمنين وأه النفاق وأهل الكفر بالله غافلون عن تلك الحقائق ، فمنهم الناسى كجهلاء المؤمنين ومنهم الغافل كالمنافقين ، ومنهم المنكر كالكفار بالله فإنهم يشهدون لهم وجودا غير معتمد إلى إيجاد الله تعالى وملكا وحولا وقوة وتصريفا ، حتى إذا قامت القيامة وجاء ربك والملك وأتى الله تعالى فى ظلل من الغمام والملائكة وتجلت الحقائق للأبصار وقعت الواقعة ، فاطمأنت قلوب المؤمنين بما رأته مما كانت موقنة به ، وجزع أهل الجهالة من المؤمنين ، وهلع الكفار ويئسوا من رحمة الله وتمنوا أن يكونوا ترابا.

وعندها يكون الأمر كله لله بغير منازع ولا مشارك ولا معارض ، وهذا معنى قوله تعالى : **"وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ"** فأن أمور المؤمنين رجعت إليه فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا علما ويقينا . وفى الآخرة عينا وحق يقين . ورجعت أمور من سواهم فعلا فى الآخرة بعد أن كانت راجعة إليهم حكما فى الدنيا . قال تعالى : **"لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا"**[4] وفى قوله : **"أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا"** إشارة إلى

([1]) سورة الكهف : 63.
([2]) سورة النصر : 1 – 3.
([3]) سورة الزمر : 53.
([4]) سورة الأنعام : 158.

أهل الجهالة من ضعاف الإيمان ، وتلك الآيات متصلة بقوله تعالى : "يَا **أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**" الخ الآية . على تأويل من تأول أن الخطاب لبنى إسرائيل.

قوله تعالى : ["**سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**"](211).
اصل "سل" أسأل حذفت الهمزة التى عين الفعل للتخفيف نقلت حركتها إلى السين قبلها فأستغنى عن همزة الوصل فصارت "سل" والخطاب لرسول الله ε وليس المراد أنه عليه الصلاة والسلام يسألهم فأنه يعلم تلك الآيات ، ولكن المراد زيادة التوبيخ والتقريع والتهديد . و "بنى إسرائيل" هم معاصرو رسول الله ε من يهود قريظة والنضير وقينقاع وغيرهم . "كم آتيناهم من آية بينة" – أما و "كم" فقد تأتى للأستفهام وللخبر عن العدد الكثير – و "آتيناهم من آية" أى تفضلنا عليهم بعطايا عامة لخيرى الدنيا والآخرة . فخير الدنيا : المن والسلوى والماء النمير من الحجر ، والغمام الذى ظللهم به ، ونجاتهم من فرعون بعد فلق البحر ، والعفو عن خطاياهم فى عبادة العجل وفى مخالفة موسى عليه السلام.
أما ما يتعلق بالآخرة : فما أنزل الله على موسى من العقيدة الحقة والعبادة والأخلاق والآداب ، مع جدلهم وإنكارهم وشكهم وما توعدهم به بعد إنذارهم من العذاب فى الدنيا والآخرة ، وما أظهره من عقوبتهم فى الدنيا بتسليط الرومان و "بختنصر" وخراب بيت المقدس وتشتيتهم فى الأرض بعد أن أذلهم بالخزى والضعف والمسكنة ، منكرا أياهم ما حل بمن سبقهم ممن خالفوا أوامر الله تعالى أن هذا البلاء يحل بهم إذا خالفوا خاتم رسله محمد ε ، بعد أن بين صفاه ومحل هجرته ومولده فى التوراة ، قوله : "بينة" أى ظاهرة للحس والعقل واضحة حججها محسوسة محاجها.

قوله تعالى "**وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ**"
التبديل هو التغير ، ونعمة الله هى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يجب أن تقبل من الله وتشكر . والشكر عليها الإيمان به صلى الله عليه وسلم ε والعمل بها جاء به من عند الله تعالى . وقوله : "من بعد ما جاءته" حجة قاصمة لظهور اليهود من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن نعمة الله التى هى محمد عليه الصلاة والسلام جاءت بالفعل ، وأيدت بما لديهم من أخبار الله فى التوراة عنها ، وبما أظهره الله من المعجزات الباهرات على يده ε التى أعظمها أخباره بالغيب الذى لا يعلمه عربى ولا عجمى غير أحبار اليهود من تاريخ الرسل والملوك السابقين من لدن آدم إلى زمانه ε ، الذى كان زمن الجاهلية العمياء الصماء.
فكان تبديلهم ما فى التوراة ، وإنكارهم الحجج الناصعة التى أتى بها ε مما يعجز أن يأتى بها إلا رسول صادق فإنها فوق طاقة البشر كأنشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، ونطق الذراع المسمومة ، وسبح الحجر على الماء ، وإدرار الشاة العجفاء ، وإطعام الكثيرين من زاد لا يكفى اثنين ، ومن إبراء الأبرص ، ورد العين المفقودة ، ومن أحياء الموتى كما ورد. وفى المعجزات الأخرى التى شهدوها بأنفسهم . ومن اجابته على أسئلتهم التى هى من غوامض العلم والتى لا يعلمها إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام . كل ذلك أعمى الحسد عيونهم عنه وجحدوه ، لأنهم قوم بهت لم يأت نبى ولا سول إلا كذبوه وآذوه.

قوله تعالى "**فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**"
يعنى قوى فى انتقامه ، قهار فى تعذيبه أعداءه ، ومعنى : "العقاب" المؤاخذة على قدر الجرم . "وهنا إشارة" إن شدة العقاب قد تكون فى الدنيا وفى الآخرة – أما فى الدنيا فهى الحرمان من الانتفاع فى الدنيا ، وذلك أشد من عذاب النار على الروح والسر . . وسرعة ذلهم وأهانتهم فى الدنيا بالجزية ونظر أهل الإيمان إليهم أنهم أعداء الله وأعداؤهم ، ولولا أمر الله بأن نأخذ الجزية منهم لما أبقينا على وجه الأرض من يكذب رسول الله ε ويكذب الله تعالى ، خصوصا أيام أن كان لنا الحول والطول والسلطان ، فرسول الله ε نعمة الله حقا ، بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله وسراجا منيرا ، سعد السعادتين من آمن به وأتبعه ، وشقى فى الدنيا والآخرة من كذبه وخالفه.

وأما فى الآخرة فبالعذاب الشديد المؤلم ، حيث لا يكون هناك شفيع ولا نصير ولا ظهير يرد عنهم قدر الله تعالى وعذابه الذى توعد به من كفر وكذب رسوله ε .

قوله تعالى : [**"زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"**](212).

تمهيـــــد:

هذه الآية الشريفة مرتبطة بالتى قبلها ، وكأنها بيان لسبب كفر الكفار وما سجله الله من القضاء عليهم فى استعداهم لقبول ما هو شر فى الحقيقة ونفس الأمر وإنكارهم ما هو خير وسعادة.

قوله تعالى **زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا"** تكلم فيه المعتزلة بكلام تقتضيه مذاهبهم ، ولو أنهم ذاقوا شميما من المعرفة لسلموا لله أخباره ، وعلموا بما علموا حتى يعلمهم الله ما لم يكونوا يعلمون – إسناد الفعل إلى غير الفاعل لا يقتضي الحكم من المجسمة أن الله تعالى هو المزين لهم . ولا يحمل التجوز عند المعتزلة ، وإقامة الحجة لغة العرب فى أنهم يسندون الفعل لغير فاعله فى مخاطبة بعضهم لبعض.

والذى يجب أن نفهمه بعد اعتقادنا أن الفاعل المختار هو الله تعالى أن نتأدب بأدب الأنبياء والصديقين . قال الخليل عليه السلام : "والذى هو يطعمنى ويسقين" ثم قال : **"وَإِذَا مَرِضْتُ"** فنسب المرضى لنفسه – ثم قال : **"فَهُوَ يَشْفِينِ"**[1] وقال الرجل الصالح لموسى عليه السلام : **"فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا"**[2] ثم قال : **"فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا"**[3] فنسب ما يليق بالجناب المقدس إليه سبحانه ، وما لا يليق به إلى نفسه أدبا منه.
والله جل جلاله كتب قدره الأزلى فى كتاب أخفاه عنا ولم يطالبنا به ، وكتب أمره المحبوب فى كتاب آخر وأنزله إلينا وأمرنا بإتباعه وتنفيذ أحكامه.

فإذا منح سبحانه العبد الاتحاد فى الأمر والإرادة كأبى بكر فقد منحه السعادة القصوى ، وإذا قدر نفى الاتحاد فى الأمر والإرادة عن عبد كأبى جهل قد عليه الكفر والامتناع عن اتباع رسول الله ε وأمره بالإيمان – وليس لبعد أن يقيم الحجة بقدر الله على الله تعالى ، اللهم إلا إذا أطلعه على سر القدر فإنه يتعبده بما أراد جل جلاله ولو كان فى ذلك مخالفة الأمر الظاهر ، وحجة ذلك الخضر وموسى عليهم السلام فإن موسى أنكر على الخضر ما فعله مما قصه علينا القرآن المجيد ، فثبت أن موسى لا يسع إلا ما منحه الله الوسعة لقبوله فقال الخضر :
"هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ"[4] فـ "زين للدين كفروا" جائز ان يكون زين ذلك شياطين الأنس والجن ، بوسوسة من شياطين الجن فى قلوب الكفرة وإغراء الكفرة لأهل الجهالة المبعدين عن حظيرة الإسلام ، ولا شك أن الكفر هو ستر الحقائق التى هى حق ، كما أن الغفر هو ستر الحقائق التى هى باطل . فغفر وكفر وستر بمعنى واحد والذين كفروا هم الذين لم يؤمنوا بمحمد ε من أهل الكتاب وغيرهم.

قوله تعالى **"الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"**
هى تمتع الإنسان بلوازم الحياة الحيوانية فى تلك الدار منذ نزوله من بطن أمه إلى يوم موته . وتلك الحياة الدنيا هى انتفاع بالحس والحركة والإرادة وهى لا تزيد عن حياة البهائم السائمة إلا بالإرادة والإختيار اللذين يتميز بهما الإنسان عن البهائم.

([1]) سورة الشعراء : 80.
(2) سورة الكهف : 79.
(3) سورة الكهف : 82.
([4]) سورة الكهف : 78.

أما حياة أهل الإيمان فى الدنيا ، لا تسمى بالحياة الدنيا بل تسمى بحياة الإيمان ، لأن المؤمن العامل بالكتاب والسنة ليس فى الدنيا بل هو فى سجن قوى وذلك السجن هو أحكام الشريعة.
أما أهل الدنيا فهم فى جنة لأنهم فى إطلاق لا يتقيدون بشريعة ، وهم كالبهائم السائمة أو الداجنة أو المفترسة بحسب مراتب أخلاقهم ، متى تمكن من خطيئة فعلها ، أما المؤمن فإنه أن تمكن لا يفعل خوفا من الله تعالى فحياته ليست الحياة الدنيا ، قال ε : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" ولا يمنع عن فعل أكبر الكبائر بعد الكفر إلا القوة القاهرة. وهذا دليل خبث نفوسهم.
قوله تعالى **"وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا"**
وسبب نزول هذه الآية ما كان يحصل من كفار قريش ومن اليهود فى المدينة ، ومن أهل النفاق فيما من الاستهانة والاستهزاء والاحتقار لفقراء المسلمين فى مكة كعمار بن ياسر وولده ياسر وبلال وخبيب وعبد الله بن مسعود ، وما عمله يهود المدينة ومنافقوها مع المهاجرين الذين فروا إلى الله ورسوله من أموالهم وبيوتهم بمكة ، والذين باعوا الدنيا وما فيها ليفوزوا بالسعادة الباقية عند الله يوم القيامة.
يشنع الله تعالى فى هذه الآية على الذين دعاهم حب الدنيا والجاه والرياسة الى أن يكذبوا ما جاء به رسول الله ε جحودا منهم ، وجهلا بأنفسهم وإنكارا ليوم الحساب ، وهم مع ذلك يهزاون بمن كاشفهم الله بالغيب المصون الذى ثبت لديهم بخبر الله تعالى وبيان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فتحققوا به تحققا يقينا جعلهم ينظرون إلى الدنيا نظر من علم يقينا حقيقتها وسر إيجادها ومآلها ، وأنها دار الابتلاء وكون الفساد وسفينة الآخرة ، فسارعوا إلى النجارة منها بالعمل بما فرضه الله عليهم وبما رغبهم فيه . . فقوله تعالى : "من الذين آمنوا" أى : من الذين صدقوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى **"وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**
التقوى هى كمال الإيمان . والمعنى أن الله تعالى يقول : والذين عملوا بما علموا مراعين جانب الله تعالى والخوف من عقوبته والرغبة فى نيل مرضاته – وفى هذه الآية جذب من الله تعالى لقلوب المؤمنين أن يحافظوا على تحصيل مقامات التقوى للفوز بما وعد الله به المتقين من الفوقية عنده.
قوله: "فوقهم" أى أن أهل الكفر بالله من طغاة قريش وضلال اليهود بالمدينة ومنافقى المدينة الذين كانوا يسخرون من قوم صغر الإيمان فى قلوبهم متاع الحاية الدنيا الزائل ، فتخففوا منها ولم يتوسعوا فيها بل وقفوا عند الضرورى الواجب شرعا ، وتلك السخرية كانت منهم سبب ما جعله الله لهم من مال ممدود وبنين شهود استدراجا لهم ، فغرهم ما جعله لهم من زينة الحياة الدنيا واعتقدوا أن هذا هو السعاة ولا سعادة بعده ، وسخروا بالمقبلين بكليتهم على الله وحكموا عليهم أنهم حرموا السعادة التى يعتقدونها ، فكذبهم الله تعالى مبينا لهم أن تلك السعادة التى جعلتكم فى غرور واستكبار ، وحملتكم على إهانة من عظمهم الله ستنقلب إلى عذاب وذل وهوان ، حيث يكون الذين تسخرون منهم فى نعيم وبهجة فوق النعيم الذى كنتم فيه فى الدنيا ، ليزداد المتقون تقوى ، ويدخل من هداهم الله من الكفار فى حظيرة الإسلام أو يزدادوا بعدا وقطيعا بتكذيب الآيات.

قوله تعالى **"يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"**
يتفضل الله على أهل التقوى بما أعده لهم سبحانه يوم القيامة من الرزق الجامع لكل خيرات الروح والعقل والجسم والحس ، فللروح الأنس بالله تعالى والكلام المقدس ، وللجسم النعيم المقيم الذى يلذ له منن مأكل ومشرب وملبس ورياش وفراش وملامسة ومأوى ، وللعقل الفرح بما يراه من الحقائق التى كان قد صدق بها بالحجة الشرعية حيث تنبلج أنوار معانى الصفات ، وللحس البهجة بالمناظر العلية والسماع الروحانى والشميم العنبرى والمذاق الشهى والملبس اللين . وهذا الرزق الذى يتفضل الله به على خلقه يطمئن قلوبهم به لأنه من غير حساب ، إذ أن خيرات خزائن الله تعالى لا تنتهي ، وبذلك لا يكون على تلك العطايا حساب ، لأن الحساب إنما يكون عند من يخاف النفاذ كما يحاسب أهل الأموال المحصورة خوفا على نفادها.
ولك أن تقول : ان الله تعالى جمل أهل التقوى بأخلاقه التى هى معانى صفاته ، فتفضل عليهم بتلك الأرزاق العظيمة لمقتضى تلك المعانى الربانية التى تجملوا بها من علم وحلم وصبر وشكر وتوبة وكرم وعفو ، وغير ذلك من معانى صفات الأسماء الحسنى جميعها ، فإن المؤمن التقى صورة الرحمن وهذا معنى قوله تعالى :

"وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" لأن المؤمن التقى متمكن فى مشاهد التوحيد العالية . وبرهان هذا التأويل قوله تعالى : **"أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ"**[1] وأحسن ما عملوا التحقق بمشاهد التوحيد العالية التى يكون فيها التقى موقنا بألا حول ولا قوة إلا بالله وجائز أن يكون المعنى – يرزق الله من يشاء فى الدنيا قبل الآخرة العوارف والعواطف والتنزلات وشهود الغيب المصون.

قوله تعالى : [**النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"**](213).

يخبرنا ربنا جل جلاله أن الناس كانوا أمة واحدة ، ولم يأت بيان عن رسول الله ε تقوم به الحجة على تعيين الناس . وقد ورد فى القرآن المجيد آيات كثيرة كهذه الآية.
فجائز أن يكون الناس هم آدم وأبناؤه إلى ما قبل حادثة هابيل وقابيل وأن يكون شيث أول نبى بعث.
وجائز أن يكون الناس من آدم إلى نوح ، ونوح أول نبى بعث . والأمة هى المجتمع الذى يكون على دين واحد وملة واحدة ، وقد يكنى بالأمة عن الدين.
وجائز أن يكون : أن الناس كانوا على عادات وأوابد اقتضاها الزمان والمكان والشأن ، والاختلافات فطرة فى الإنسان لما ركب فى جبلته من نزعات النفوس ولقس الطبع وميول الحظوظ والأهواء ، فبعث الله النبيين بالبشائر والإنذار بعد قيام الحجة ووضوح المحجة ، ليهتدى من هداهم الله ممن سبق فى علمه هدايتهم ويهلك من هلك عن بينة.
والبشائر هى الأخبار بما يسر قبل أن يعلمه المخبر به بفتح الباء ، والإنذار هو بيان عواقب المخالفات للشرائع التى تكبح نفوس أهل الغواية عن جماحها ، وينكرها أهل النفوس العنادية التى سجل عليها القرآن سوء العاقبة.

قوله تعالى **"وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ"**
الإنزال معلوم وهو الهبوط من مكان عال إلى مكان سافل ، وليس المر هنا كذلك ،بل المراد به تفضل الله على من يشاء من خلقه بأن يوحى إليه من روحه تنزه وتعالى ما به هداية العباد أو إضلالهم ، ويكون المراد فى النزول أن كلام الله تعالى على عظيم ، ولما للكلام من العلو والعظمة ، كان وصوله إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام نزولا من على عظيم إلى عبد مضطر مسكين بحسب المكانتين.
والكتاب هو المكتوب ، والمراد به كل كتاب أنزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن نوح إلى رسول الله ε "بالحق" أى مؤيدا بالحق فى نفس الأمر ، ولا يكون كذلك إلا ما كان من الحق سبحانه.

قوله تعالى **"لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ"**
معنى هذا أن الله خلق الإنسان عاجزا عن أن يقوم بكل ضرورياته فضلا عن كمالياته ، فهو محتاج إلى عمال كثيرين يقوم له كل واحد منهم بعمل مخصوص ، فهو محتاج إلى مأوى يأويه ، ولباس وفراش وطعام من أنواع كثيرة وشراب ، وآلات دفاع يدافع بها عن نفسه فلا بد من معاوضات يتبادل فيها المنافع مع بنى جنسه ، وتلك المعاوضات تقتضي معارضات بعد مفاوضات فلا بد للمجتمع من كتاب يبين لهم وجوه البر ، ويدفع الظالم عن المظلوم ، ويعطى كل ذى حق حقه بالعمل به ، ثم لا بد له أولا وبالذات أن يعرف نفسه وربه ، فإذا عرفه وجب عليه أن يشكره بما يحبه منه.
ولا سبيل للإنسان إلى معرفة ربه جل جلاله بما هو عليه بالنسبة للإنسان ولا أن يعرف محاب الله ومراضيه إلا بكتاب من عند الله يبينه له رسول الله إليه ، لأن العقل الإنسانى وأن كمل لا يمكن أن يصل إلى معرفة نفسه ولا معفة ربه ، بل ولا معرفة ما يحبه الله منه ويرضى به عنه.

([1]) سورة الأحقاف : 16.

وهذا سر بعثة الرسل ، وإلا كانت بعثة الرسل عبثا ، كما أن العقل الكامل لا يمكنه أن يعلم ما فوق المادة من أسرار الغيب المصون من مراتب الوجود ، بلا ولا يمكنه أن يحصل العالم بالمغيبات عنا كالبرزخ والبعث والحشر والنشر والحساب والجنة والنار ، ولا ما فوق ذلك من حظائر رضوان الله الأكبر وجمال تنزلاته لأهل محبته فى الدنيا والآخرة حيث يجلسهم على منابر من نور قدام عرشه ، وإذا كان كل ذلك ليس للعقل أن يحصله بنفسه ، كانت بعثة الرسل من أجل نعم الله تعالى علينا قال سبحانه : **"يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ"**[1] وذلك السلطان الذى ينفذ به الإنسان هو كتاب الله والعمل به.

ولما كانت الشريعة المطهرة أنزلها الله لمصالح العباد ، وكان أجل المصالح نشر العدل بينهم ، جعل الله حكمة إنزال الكتاب ليحكم بن الناس فيما اختلفوا فيه ، والمراد هنا بالناس من وهب الله لهم القابل ليذوقوا حلاوة الإيمان ولذة التقوى وهم الذين يقبلون شرائع الله تعالى.

وجائز أن يكون الحكم بالكتاب متعينا أن نقوم به على كل كافر عند التمكين فى الأرض كما كان فى عصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومن بعده من عمال الله الذين كانوا يعملون بكتاب الله وسنة رسوله ε .

وأنى لعلى يقين أننا جماعة المسلمين إذا رجعنا إلى ما كان عليه سلفنا الصالح يمكن الله لنا فى الأرض بالحق ، فيكون الدين كله لله بأن تكون أحكام القرآن منفذة على المؤمن والكافر رغم أنفه.

قوله تعالى **"فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ"** الاختلاف فى العقيدة والعبادة والخلاق يجب أن يرفع من اختلفوا فيها أمرهم إلى من هو أعلم منهم بالله وبأحكام الله وأيام الله وبحكمة أحكام الله ، فإذا قامت الحجة ووضحت المحجة وجب على المختلفين أن يسمعوا ويطيعوا ، ويكون الإختلاف أيضا فى المعاملات وفى الصناعات وفى التعهدات وفى الأنكحة والمواريث والخصومات ، ولا يتكلم فيه إلا أمير أو مأمور حتى إذا تكلم بما أنزل الله فى كتابه أو بما بينه رسول الله وأئمة الهدى من بعده وجب على ولى الأمر أن ينفذ هذا الحكم رغم أنف المتخاصمين.

قوله تعالى **"وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ"**

والمعنى أن الله يبين لنا أن الذين اختلفوا فى الكتاب الذى أنزله الله على رسله السابقين ، هم الذين أنزله عليهم وهم اليهود والنصارى ، ولم يكن اختلافهم إلا بعد أنزال الكتاب ، لأن الله سبحانه قدر أن ينسخ الشرائع بموت الرسل ، ولم يحفظ شريعة بعد رفع الرسول الذى أنزلت عليه إلا شريعة الإسلام . قال تعالى : **"وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ"**[2] يعنى محمدا ε . فكان اختلاف الأمم بعد رسلهم محمول على الفترة ، ولم يكن الاختلاف معتدا به مؤاخذا عليه إلا ما وقع فى زمن الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كاختلاف بن إسرائيل على موسى عليه السلام فى عصره.

ولما أن بعث الله رسوله محمدا ε أنزل عليه دينه بالحق التام الكامل ، الذى جاء به كل الرسل من لدن نوح إلى عيسى عليهم السلام ، فجمع الله فيه ما أنزله فى توراة موسى وإنجيل عيسى ومزامير داوود وحكمة سليمان ، وكان ما أنزله الله فيه مبينا لما فى الكتب السالفة. ولكن أهل الكتاب الذين شنع الله عليهم بأنهم أهل الفرية غيروا كل ذلك وبدلوه ، خصوصا ما يتلعلق ببعثة رسول الله ε ، لأنهم كانوا يستظهرون على قريش والأوس والخزرج ببعثته وأنه قرب ظهروه ، وأنهم سينصرونه عليهم ، فلما بعثه الله حرفوا وبدلوا وغيروا ما كانوا عرفوه قبل بعثته ε . وجعلوا يوم السبت للعكوف على العبادة عند اليهود ، وجعلوا يوم الأحد للعبادة عند النصارى . واليوم الذى عينه الله لعبادته خاصة هو يوم الجمعة.

واختلفوا فى الصلاة ، فكانوا إذا سافروا لا يصلون حتى يرجعوا إلى بيت المقدس مع أن فريضة الصلاة أوجبها الله على كل مؤمن فى أى أرض نزل بها ، وجعلوا الصلاة على غير ما فرضها الله تعالى فى أفعالها وأقوالها .

واختلفوا فى الصيام وكان المفروض عليهم رمضان ، فمنهم من يصوم نصف يوم ومنهم من يصوم يوما ومنهم من يصوم ثلاثة أيام .

([1]) سورة الرحمن : 33.

([2]) سورة الأحزاب : 40.

وأما النصارى فقد اختلفوا فى ذلك اختلافا دل على محاربتهم للحق . واختلفوا قبحهم الله فى الأنبياء ، فجعلوا سليمان ساحرا وداوود ملكا ظالما ، وجعلوا عيسى ابن الله ، واختلفوا فى إبراهيم ولوط وموسى ، حتى جاء خاتم الأنبياء عليه وعليهم افضل الصلاة والسلام فكشف الله به غمة الضلالة وأظهر به الحقائق جلية.
فقوله تعالى : **"إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ"** مستثنى من فاعل : "اختلف" المقدر وتقديره أحد . فثبت الاختلاف للمستثنى : **"الَّذِينَ أُوتُوهُ"** وقوله : **"مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ"** يعنى أن هذا الاختلاف كان هوى وحظا منهم بعد بيان الحقائق التي لا تحتمل التأويل ولا الشك – "بعيا بينهم" توكيد للمستثنى أو مستثنى ثان تقديره : وما اختلفوا إلا بغيا ، اى تعديا حدود الله تعالى وخروجا عن الوسط ، لأن البغي هو تجاوز الحد الوسط فى كل شىء فيقال : بغى المطر والبحر والريح.
قوله تعالى **"فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ"**
الهداية : هى البيان والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه . والمعنى : أن الله تعالى بين الحق الذى حصل فيه الاختلاف من اليهود للذين آمنوا ، ووفقهم سبحانه للعمل به ، والاختلاف الذى اختلفوا فيه بينته لك وذلك فى يوم الجمعة وفى الصيام والصلاة وفى الأنبياء الذين ذكرتهم قبل . فصرنا والحمد لله وأن كنا الآخرين فنحن الأولون بعملنا بما أنزل الله على رسله الأولين عليهم الصلاة والسلام فى الجمعة والصلاة والصيام ، وحفظ الله بما أنزله علينا مقامات رسله الكرام ، فنحن نعتقد أن ابراهيم خليل الله ، وأن لوطا رسول الله المعصوم ، وأن موسى كليم الله ، وأن داوود وسليمان وعيسى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وهذه هى هداية الله لنا بإذنه سبحانه وتعالى ، أى بأمره الذى أنزله إلينا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى **"وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"**
يعنى أن الله تعالى قدر الهداية قبل وجودنا ، بل قبل كوننا ، بل قبل الأفلاك والأملاك بعلم وحكمة وقدرة . فهو سبحانه وتعالى ينفذ ما قدره أزلا ، فقد يرفع أقل المماليك إلى أن يجعله نبيا حكيما كلقمان ، ورفع أحقر المماليك إلى مقام الصديقية كبلال وياسر وعمار وسمية وحارثة مولى حذيفة رضوان الله عنهم وغيرهم . وقد يضل من نسب إلى خير رسول كابن نوح عليه الصلاة والسلام ولا يسأل عما يفعل – وهذه الآية أوقفت العلماء والعباد والزهاد عند مقام الأدب مع الله تعالى ، فأنهم رضى الله عنهم مع ما أقامهم الله فيه من العمل فى محابه ومراضيه تذوب قلوبهم من خوف السابقة والخاتمة ، وهذا الخوف هو حصن الأمن . أسأل الله تعالى أن يجملنا بجمال الأدب لحضرته العلية ولرسوله ε .

قوله تعالى :[**"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"**](214)

قوله تعالى **"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ"**
سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما هاجروا إلى المدينة عاداهم اليهود ، وكانوا خرجوا بعد ترك أموالهم وبيوتهم فى مكة فأصابتهم فى المدينة شدة ، ثم حصل بعد ذلك واقعة بدر فأحد ، وكان فى أحد مالا يطاق من الشدة والبلاء فأنزل الله تعالى:
"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ" وقد نالهم من الشدة والبلاء فى الدعوة إلى الحق والعمل به بين أعداء الله ما تنوء به الجبال ، وأنتم أقمتم هذا المقام – هل ترضون أو تصبرون على ما يصيبكم مما أصابهم وأكثر وتلك الآية مدنية – فالله تعالى يخاطب رسوله ε ويخاطب الأمة جمعاء إلى يوم القيامة فيقول بعدما تقدم من الآيات : **""أَمْ حَسِبْتُمْ"** أى ظننتم أن تدخلوا الجنة التى أعددتها لأحبابى وأوليائى وأنتم فى راحة من أعدائي.

قوله تعالى **"وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا"**

أى لما يأتكم من البلاء والشدة شبة الذى جاءهم من تسليط أعداء الله عليهم وأذيتهم وفصل ما أجمله فى قوله : **"مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ"** فقال سبحانه : **"مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا"** فالباساء كل بلاء فى مال أو تسليط من ظالم أو تضييق من عدو قاهر ، والضراء كل ما ألم بالجسم من مرضى وآلام من الحروب – ومعنى : "زلزلوا" أى أهينوا بانتقالهم من مكان إلى مكان آخر لأن زلزل مأخوذ من زال فإذا كثرت الإزالة قيل زلزل.

قوله تعالى **"حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ"**
بعد أن بين سبحانه الشدائد التى قد يطيقها أهل اليقين الكامل ذكر النهاية العظمى فى الشدائد فقال : **""حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ"** ورواية نافع برفع اللام وغيره يرويها بنصب اللام وحتى هنا غائية . وذلك منتهى الشدة ، فإن الحالة إذا بلغت إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يضجر ويقول " متى نصر الله " تكون قد تجاوزت الحد الذى تطيقه نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن علم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يشكوا فى تحقق النصر من الله وإنما كان الاستفهام عن زمانه قربا وبعدا ، وكذلك من يكونون معه من أهل الإيمان الكامل فإنهم جميعا لم يشكوا فى أن الله وعدهم النصر وهو سبحانه ناصرهم.

وليس لأحد أن يسأل كيف يبلغ بالرسول أن يضجر فيقول : "متى نصر الله" لأن الرسول عبد من عبيد الله تجوز عليه أعراض البشرية ، وله مقدار من الصبر والرضا خصوصا فى مقام اليقين بتأييد الله له ، وفى قوله : "متى نصر الله" إظهار كمال العبودية والعجز أمام الله تعالى خصوصا فى مقام نصر الله تعالى وإعلاء كلمته.

والالتجاء إلى الله عند الشدة عبادة لله وتبرئة العبد من الحول والقوة إلا به سبحانه ، والواجب على كل مؤمن أن يتأدب بآداب أصحابه صلى الله عليه وسلم ، ويلتجئ إلى الله عند كل شدة ، ويضرع إليه سبحانه عند كل خطب.

قوله تعالى **"أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"**
ابتداء الآية بـ "ألا" لتصغى قلوبهم إلى ما بعدها ، ثم أتى بحرف التوكيد لتطمئن قلوبهم ، ثم قال : **"نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"** ليشرح صدورهم ويؤنسهم بسرعة إغاثته لهم.

وجائز أن يكون الذين قالوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم بقوله :
"أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ" وسياق الآية يدل على أن هذه الكلمة كلمة الله تعالى . .

ومن هذا نعلم أن كل داع مضطر يجيبه الله تعالى ، فمنهم من يسمع عن لله بما يرد عليه فى قلبه من الطمأنينة ، ومنهم من يدعو موقنا كأنه سمع سرعة الإجابة ويقين الداعى أنه يسأل سميعا قويا قادرا مجيبا.

قوله تعالى : ["**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**"](215).

تمهـــــــيد :

لأهل القلوب فى هذه الآية الشريفة شميم من فهم حكمة اتصالها بالآية السابقة ، فإن الآية السابقة تجعل أهل الإيمان يوطنون أنفسهم على استقبال الشدائد والبلايا ، قياما بالواجب عليهم من دعوة أهل الكفر بالله إلى الإيمان ، ومن العمل بينهم بشرائعه ، وتحملون مرارة الصبر على جهاد أنفسهم فى ذات الله مسارعة إلى العمل بكل شعب الإيمان بقدر استطاعتهم ، فإن الله تعالى يقول لرسوله محمدا ε : "**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**"[1] وثقله عليه ε من حيث تلقيه من لدن حكيم عليم ، ومن حيث دعوة أهل الجاهلية إليه ، ومن حيث العمل به على الوجه الأكمل . أما ثقله علينا من حيث دعوة أهل الكفر بالله إلى الإيمان ومن حيث العمل به لما فى ذلك من جهاد النفس الفادح الذى يجعل القائمين به : "**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**"[2].

وبعد تلك الآية يخبرنا ربنا بقوله : "**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ** " وهى حقيقة لامراء فيها ، وهذا السؤال لابد أن يكون ممن توفر عندهم الخير وجهلوا الوجوه التى يحب الله الانفاق فيها مسارعة لنيل مرضاته ، ولا يجوز أن تكون تلك الآية بشرى لهم لأنهم سيحصل لهم الغنى حتى يسألوا بلسان حالهم.

وعندى أن تلك الآية حجة قائمة على سرعة إغاثة الله لعماله المخلصين، وقريب نصرته للمجاهدية ، وبها يحصل اليقين الحق لكل فئة من المسلمين أقامها الله تعالى مقام العمل لإعلاء الكلمة وإحياء السنة – مهما كان العدو المناوئ قويا لأن الإخلاص لله قائد القوم.

قوله تعالى : "**مَاذَا يُنْفِقُونَ** " جائز أن تكون "ما" مبتدا و "ذا" خبرها – وجائز أن تكون : "ماذا" كلها كلمة ، وهى استفهام عن نوع ما ينفق – ولما كان الإنفاق معلوما أنه من الخير أى "المال" كان المراد بالاستفهام عن الأنواع التى ينفق فيها هذا الخير دليلا على أن الله أجابهم عما يريدون بما يريدون بالاستفهام فقال سبحانه :

"**قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**"

للوالدين الذين جعلهما الله سببا فى إيجادك وحفظ حياتك ، لأنهما عناية الله ورحمته بك وحنانه ، فإن الإنسان لم ير الله تعالى يحسن إليه ويوده ويتولاه ولكنه رأى والديه ، فإذا كفر بنعمة الله عليه بالوالدين كان كفره بالله أولى ، وللوالدين على الإنسان من الحقوق ما جعل الله تعالى يقول : "**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**"[3] ويقول سبحانه : "**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**"[4] فابتدأ بهما لما لهما من الواجب المقدس على الإنسان ، وقد تعرف سعادة الولد فى الدنيا والآخرة ببر الوالدين ويعرف شقاؤه فيهما بعقوقهما.

"**والأقربين**" هم من يجمعهم وإياك أصل قريب أو بعيد كل بحسبه من أبناء وأبناء وأخوة وأخوات وخئولة وعمومة وما يدلى إليهما والأولى بعد الوالدين أهل القربة ثم ما يليهم ، وحكمة ذلك أنهم كأعضاء بدنك فى الرخاء والشدة وأعوانك فيهما ، وقد يكون لهم حق عليك فى صغرك أو جبه ما قاموا به لك شرعا.

"**واليتامى**" جمع يتيم واليتيم هو من مات أبوه ففقد العائل ، أو ماتت أمه ففقد الرحيم به ، أو ماتا معا ففقدهما ، وقد ذكره الله تعالى بعد الوالدين والأقربين لاحتياجه إلى العائل والرحيم ، ومن يقوم بالإحسان إليه يكون كمن أحيا نفسا من الموت أو أنجاها من الوقوع فيه ، وتلك الحقائق تجعل أهل الإيمان بالله يؤثرون اليتيم على أنفسهم لما جملهم الله به من العطف والرحمة.

([1]) سورة المزمل : 5.

(2) سورة النساء : 69.

([3]) سورة النساء : 36.

(4) سورة الإسراء : 23.

"والمساكين" سبق لنا تعريف المساكين ، وذكرهم الله تعالى بعد اليتامى لأن حالتهم تستدعى الرحمة بهم ، والإنفاق عليهم يكون خالصا لله تعالى لا يشوبه شوب رياء ولا علة إلا لنيل رضوان الله الأكبر وكفى ، بذلك دليلا على محبة الله للعبد حيث أقامه فيما يحب.

"وابن السبيل" هو ابن الطريق المسافر ، خصوصا إذا كان سفره لطاعة كطلب علم أو حج أو صلة رحم أو هجرة لطلب معاش ، وكل تلك الأحوال تقتضى الاحتياج المؤدى إلى الرحمة به ، وإنما قدم الله الوالدين والأقربين واليتامى لعجزهم عن السؤال ، وإنما أخر ابن السبيل لأنه تعود سؤال الناس ، ولا ينبغي للوالد أن يحوج والديه ، ولا للغنى أن يحوج أقاربه ولا الأيتام إلى السؤال مع قدرته على كفايتهم.

ونظم الآية يقتضي الترتيب وأن كانت الواو لا تفيده ، فالولد يبدأ بوالديه أولا ثم بأبنائه فأخوته وزوجته فاليتامى والمساكين.

قوله تعالى **"وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ"**

بعد أن بين سبحانه ما يحبه فى الانفاق ومن يحب أن ينفق عليهم ، رغبنا سبحانه فى نوافل الخير التى بقيامنا بها ننال محبته الخالصة كما قال ε بسند البخارى : "ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه" – وفى هذه الآية إشارة إلى أن ما نفعله مما زاد على ما فصله لنا من البر ونوافله يعلمه سبحانه وتعالى ، فيتفضل علينا بإحسانه الذى لا تعلم مقداره النفوس ولا العقول.

ومعنى الآية كل عمل من الخير عملتموه تقربا إلى فأنا أعلمه ، وكيف لا يعلمه وهو الموفق والمعين عيه والمتفضل به ؟ وما أقامنا فيه إلا لننال مزيد إحسانه فى الدنيا والآخرة ، وفى هذه الآية أنس لأرواح من وفقهم الله لنوافل البر بعد قيامهم بفرائض الله تعالى.

أما من أهلموا فى تأدية الفرائض وسارعوا إلى النوافل فهم الجهلاء السالكون على غير الصراط المستقيم ، وهم كثير من الذين يجهلون واجب الوقت ، فقد يكون يقتضى جهادا فيعكفون على الزوايا والخلوات ، وقد يكون مقتضى الوقت السعى للنفقة على من أوجبت عليهم الشريعة النفقة عليه فيتركه ويصوم ويقوم ، ويقتضي الوقت الدعوة إلى الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوقوف فى وجوه الظلمة ، فيخاف على شهرته أو على ماله أو جاهه ويترك واجب الوقت ، وهو مع تركه يسارع فى النوافل وينسى أن الإيمان بضع وسبعون شعبة من ترك شعبة منها نقص إيمانه ، وهذا كله بعد أن تتوفر الشروط فى الشخص من علم وتقوى وإخلاص وإيمان بيوم القيامة.

قال بعض العلماء : هذه الآية منسوجة بآية الميراث ، والحقيقة أنها محكمة وليست منسوخة ، لأن السائلين أحياء وهذا الواجب واجب على الأحياء ، وأحكامها بعد الموت أنزلها الله تعالى بعد آية الميراث ولو كانت بعد هذه الآية إلا أنها لم تنسخها . وقال بعضهم أنها منسوخة بآية الزكاة.

وعندى أنها ليست منسوخة بها ، لأن الوالدين والأقربين الذين تجب عليهم النفقة شرعا كالأولاد فالأخوة والأخوات والصغار يجب على الوالد والوالى النفقة عليهم ، أما اليتامى والمساكين وأبناء السبيل فإنهم عينهم الله تعالى لينفق المؤمن عليهم عند ضرورتهم إلى ذلك من الزكاة أن كان بقى شيء منها ، ومن غير الزكاة أن كان إخراجها فى وجوها ، فإن الله جعل فى الأموال حقوقا غير الزكاة ، كإكرام الضيف والجيران وإغاثة الملهوف ودفع الغرم عن المعين . والإغاثة فى وجوه البر العام والخاص بحسب واجب الوقت.

قوله تعالى : [**"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"**](216).

قوله تعالى **"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ"**

سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لم يأذن لرسوله ε ولأصحابه بقتال أحد من المشركين مدة الإقامة فى مكة ، حتى أيده الله تعالى بالأنصار من الأوس والخزرج بعد الهجرة إلى المدينة ، ثم أذن له ε أن يقاتل من يقاتله – ثم بقتال المشركين – ثم أذن له بالجهاد عامة فى هذه الآية الشريفة ، وقد تقدم فى تأويل : "كتب عليكم" فالقتال فرض على رسول الله وأصحابه ، وعلى المسلمين جميعا إذا أحتل العدو محلتهم بشروطه على كل من يعينهم

الأمام العدل ، فهذه الآية تفرض القتال على كل مسلم فى زمان رسول الله ε ، ثم صار القتال فرض كفاية إذا قام به جماعة من المسلمين سقط عن الباقين.
وعلى ذلك فالخلاف بين العلماء إذا تقرر هذا الحكم يصير خلافا لفظيا ، فإن بعض العلماء رأى أن القتال فرض على كل مسلم ، وذلك يكون إذا أحتل العدو محلتهم ، ويكون فرض كفاية لدعوة أهل الكفر بالله إلى الإسلام إذا كان جماعة المسلمين فى آمن.
وعلى مدلول هذه الآية يكون الجهاد متعينا على كل مسلم ، لأن العدو احتل أكثر بلاد الإسلام ، ولا يسلم من هذا الحكم إلا متحيزا إلى فئة أو متحرفا لقتال – أما من رضى بولاية الأعداء وسكن إليها ، أو انتصر بالأعداء على اخوته المسلمين فقد حكم عليهم القرآن بما حكم قال تعالى : **"لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ"**[1] الآية . وقال تعالى : **"لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ"**[2] ولا تجد أمة تركت الجهاد إلا سيمت الخسف وجللت بالخزى والذل لمن كانوا يباعون فى أسواقهم أو كانوا أتباعا لهم.

قوله تعالى **"وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ"**
الكره بضم الكاف أن يلقى المرء بنفسه فى اقتحام الشدائد الفادحة ، والكره بفتح الكاف أن يقهر غيره على اقتحام الأخطار "كره لكم" بضم الكاف أى أنه عمل يؤلم النفوس ، ولكنكم تقومون به أتباعا لأمر الله تعالى رضا من أنفسكم ، والله تعالى يكشف الحقيقة ويقول :

قوله تعالى **"وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ"**
"وعسى" هنا لتحقيق الوقوع كلعل فى القرآن كأنه يقول سبحانه وتعالى : وما تكرهون من القتال فى الدنيا هو خير لكم فيها وفى الآخرة – أما فى الدنيا فبما تفوزون به على الأعداء ومن الغنيمة ومن الشهادة ، وذلك هو الخير العظيم فى الدنيا وأما فى الآخرة فلما يتفضل الله به علينا من أن ينزلنا مقعد صدق عنده سبحانه فى جوار الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.
وكأن القرآن يبين لنا أن كل ما كان مؤلما لأبداننا متعبا لها مبغوضا لدينا من عناء فى الجهاد فى الحج والصيام والصدقة ، فهو خير لنا فى دنيانا وأخرتنا ، فى دنيانا لحفظ صحتنا بالصيام والحج وحفظ أموالنا وشرفنا بين إخواننا بالصدقة ، وحفظ ديننا وتمكيننا فى الأرض بالحق وفى آخرتنا الفوز بالنعيم المقيم.

قوله تعالى **"وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"**
يكشف الله تعالى الحجاب عن الحقائق التى يميل إليها سوء الطبع ، إلى حد الحسد والحرص والطمع ومن خبث النفس الأمارة بالسوء وغيرها ، وهو وأن كان ملائما لطباعنا فهو شهر فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه يفسد الصحة ويضر المرء فى دينة وماله وعرضه وشرفه ، وأما فى الآخرة فإن الله توعد عليه بالعذاب الأليم ، وصدق الله العظيم : **"وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"**.
يخبرنا ربنا جل جلاله أنه هو الذى خلقنا وأمدنا وكون حقائقنا ، وأحاط بما ينفعها فى الدنيا والآخرة وما يضرها . ويبين لنا سبل المنافع والمضار ، ولم يحظر علينا سبحانه أن نترك ما ينفعنا على الوجه الأكمل ، بل أباح لنا ما لا بد لنا منه وأكمل ، بل يسره من حيث ما تميل إليه النفس الشهوانية والغضبية والملكية ، وأظهر لنا مضار ما حرمه علينا من حيث الشهوات والأخلاق والمعاملات ، ومن حيث ما يحبه ويرضاه من العقيدة والعبادة مما نطيقه مع حفظ حياتنا ومالنا ورفعتنا فى الدنيا والآخرة ، او يفقد حياتنا أذ علم سبحانه أن بقاءها لا يليق بالمؤمن لأن الله جعل العزة للمؤمنين ، فأمرنا بالجهاد وهو كره لنا ليحفظ لنا تلك العزة ما دمنا أحياء ، فيوجب علينا سبحانه أن نرجع إلى علمه بنا الذى رتب عليه الأمر والنهى ، ونعتقد أننا لا نعلم ما يضرنا ولا ينفعنا ، فإذا نحن اطعنا هوانا وسارعنا إلى ما يلائمنا فى العاجل غير ناظرين إلى ما ينتجه من المضار فى تلك الدار العاجلة

([1]) سورة المجادلة : 22.
(2) سورة المائدة : 51.

والآجلة ، حاق بنا الضرر فى الدارين "وأنتم لا تعلمون" أى لم تنكشف لكم أسرار الغيوب المقدرة عليكم لابتلائكم واختباركم ، فأنا نرى أنفسنا إذا خالفنا أهل الرأى منا والحكمة حصل الخسران والدمار للمخالفين وهم أناس أمثالنا ، فكيف بمن خالف أمر الله ونهيه وهو العليم الخبير؟.

قوله تعالى : ["**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**"](217).

تمهيـــــد :

سبب نزول هذه الآية ان رسول الله ε كتب خطابا إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه وأمره على سرية ، وكان يحرص على مجالسة رسول الله ε ، فبكى صبابة وحسرة خوفا من فراق رسول الله ε ، حتى كاد يموت من ألم الفراق ، فأعطى رسول الله ε الكتاب لعبد الله بن جحش وأمره أن لا يقرأه إلا بعد يومين من سيره ، وأرسل معه سبعة رجال وهم : عمار بن ياسر ، وأبو حذيفة بن عتبة ابن ربيعة ، وسعد بن أبى وقاص ، وعقبة بن غزوان السلمى ، وسهيل ابن بيضاء ، وعامر بن فهيرة ، وواقد بن عبد الله اليربوعى حليف لعمر بن الخطاب.

ولما وصل إلى بطن ملل بعد مسير يومين قرأ الكتاب ، فإذا به أمر من رسول الله ε وهو : إذا نظرت إلى كتابى هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم . فقال رضى الله عنه : السمع والطاعة ، وخير أصحابه فى السعر معه أو الرجوع إلى المدينة ، فاختاروا السفر معه ، وضل بعير لسعد ابن أبى وقاص وعتبة بن غزوان فاستأذنوا الأمير ان يتأخروا للبحث عنه ، ومضى عبد الله بن جحش ومن معه حتى وصلوا بطن نخلة بين مكة والطائف ، فوجدوا عيرا لقريش معها رجل منهم ، وهم عمرو ابن الحضرمى وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم ابن كيسان ، فانزعج أصحاب العير لما رأوا السرية فحلق رجل من الصحابة رأسه وتعرض لهم ، فقال أصحاب العير هؤلاء عمار وأمنوا جانبهم ، وتشاور عبد الله بن جحش مع أصحابه فى منواتهم وقالوا : أن دخلوا الحرم تحصنوا منا وكان اليوم بحسب علمهم آخر جمادى الثانية والليلة المقبلة مستهل رجب ، فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم اصاب مقتله ، وهجموا عليهم فأسروا رجلين وهما عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وفر الثالث وهو نوفل ابن عبد الله ، ورجعوا بالعير والأسيرين للمدينة . فكره رسول الله ε القتل فى رجب ، فقال عبد الله بن جحش : أنا لا نرى هلال رجب فى الليلة التى قتل فيها ، وأقد بن عبد الله الحضرمى وكنا نعتقد أننا فى جمادى ، فأوقف رسول اللهε العير والأسيرين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، فأنزل الله تلك الآية بعد السؤال عن حكم القتل فى الشهر الحرام وفى البيت الحرام.

وقد تقدم تفسير قوله تعالى : "**يَسْأَلُونَكَ** " وفى قوله تعالى : "عن الشهر الحرام:" أى عن قتال فيه ، فقتال بدل اشتمال من الشهر الحرام : وفى رواية: "**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ**"فأجاب الله السائلين : قل يا محمد : "قتال فيه كبير" فقتال مبتدأ خصصة كلمة "فيه" فسوغت" الابتداء به لأنه نكرة ، وقوله : "كبير" خبره . والمعنى – القتال فى الشهر الحرام من المسلمين بحسب الدين ، ومن كفار قريش بحسب العوائد التى ورثوها عن آبائهم كبير عند الله تعالى ، بمعنى الخطيئة الكبيرة ، والمبتدأ والخبر فى محل نصب مفعول القول والهاء التى فى "فيه" عائدة على الشهر الحرام.

ثم بين الله تعالى ما عليه المشركون من الكفر والضلال ، أنه شر ٍاكبر من قتل أبن الحضرمي في الشهر الحرام ، فقال الله تعالى : "**وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**".

قوله تعالى **"وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ"**
"وصد" مبتدأ وسوغ الابتداء بها تخصيصا بالجار والمجرور ، وما بعدها معطوف عليه "واكبر" خبرها : والمعنى : وصد المسلمين عن الصلاة فى المسجد وعن الحج والعمرة "وكفر به" أى والكفر بالله فى الحرم وفى الشهر الحرام بعد دعوتهم إلى الإسلام بالحجة الباهرة والمعجزة القاصمة للظهور.

قوله تعالى **"وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ"**
"واخراج أهل منه" وهم سادة الحرم وأهل الحق ، والمراد بهم رسول الله ε وأصحابه الذين أخرجهم كفار قريش ، هذه الخطابا التى كل خطيئة منها كفر بالله وبرسوله أكبر اثما عند الله تعالى من قتل واقد بن عبد الله التميمى لعمرو بن الحضرمى فى الشهر الحرام ، حتى ولو ثبت أنه قتله معتقدا قتله فى الشهر الحرام مع أنه ثبت وقوع الحادثة فى آخر جمادى الثانية على حسب عقيدة القاتل فلم تقع منه مخالفة بحسب علمه ، فكيف تعاير قريش المسلمين فى مكة بوقوع هذا الحادث الذى لم يتحقق حصوله فى الشهر الحرام ؟ وقريش ترتكب الخطايا التى كل خطيئة منها كفر بالله فى البيت الحرام والشهر الحرام غير خائفة من الله تعالى ولا من عقوبته.
"والمسجد الحرام كملة معترضة بين الجملة المتحدة ، وجائز أن تكون معطوفة على "قتال" الأولى فتكون المعنى : ويسألونك عن الشهر الحرام عن قتال فيه ، وفى المسجد الحرام أخرت لأن السؤال موجه إلى الحادثة التى وقعت فى الشهر الحرام ، وكان المراد السؤال عن القتال فى الشهر الحرام والمسجد الحرام ، وجائز أن تكون معطوفة على "سبيل الله" وتكون المعنى – وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام.

قوله تعالى**"وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ"**
الفتنة هى كيد الكفار للمسلمين ليرتدوا عن دينهم ، والسعى فى أذيتهم وإضرارهم ليشتغلوا عن الدين وهى فى الحقيقة ونفس الأمر أكبر عند الله تعالى من قتل واقد بن عبد الله التميمى لعمرو ابن الحضرمى ، وهنا أبين لك سرا من حكمة الجهاد وقهر أعداء الله .
معلوم أن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، وكان مقتضى الرحمة أن لا يجرى الله على يديه اهراقا للدماء ولا أنتقاما من الأعداء ، ولكنى أقول لك : أن الجهاد وأهراق الدماء من الأعداء هو الرحمة العظمى للعالم أجمع ، لأن المشركين بعد إقامة الحجة وظهور الدلائل على التوحيد ، وبيان مناهج الله تعالى التى بها نيل السعادتين ، يكون المنكر لها والصاد عنها والمعاند لها ليس فى الحقيقة من بنى الإنسان ، وان ولد من والدين آدميين ، فإن المعتبر هنا النفوس لا الأجسام.
والنفس الإبليسية الخبيثة إذا منحت الجنود المطيعة كالسمع والبصر والشم واليدين والرجلين والعقل الإنساني ، كانت شرا على المجتمع من الشيطان الرجيم ، وأضر عليه من الوحوش المفترسة ، لأنها اعاذنا اله من النفس الأمارة بالسوء ومن الطبع الخبيث ، توقع الناس فى الإفساد فى الأرض بالباطل وبإهلاك الحرث والنسل وكل ما يتولد منها يكون شرا ، ومن الرحمة استئصالهم من على وجه الأرض ، فإن الواجب على كل مسلم إذا استطاع أن يقتل الوحش الكاسر والثعبان القاتل وتركهما وقع فى خطيئة كبرى ، مع أن الوحش الكاسر والثعبان القاتل نهاية ضررهما أهلاك رجل بالموت والموت لا بد منه.
أما هؤلاء الأناسي الذين خبثت نفوسهم ، فأنهم يهلكون الناس فى الدنيا والآخرة ، فالهلاك بهم شر مستطير واستئصالهم هو الحرمة ، ونحن نرى أن سيدنا عيسى عليه السلام قال : بعثت بالسلم . فأهلك الله كل من أدعى اتباعه ، لأن النفوس الخبيثة مزدوجة مع النفوس الطيبة فأوقعها خبثها فى الكفر الصريح باتخاذ عيس ابنا لله تنزه الله عن الوالد والولد ، والحكمة بتر العضو الذى يفسد الجسم وبتره هو الرحمة ، والكفار مرض وبئ فى المجتمع، يجب على أهل الإسلام استئصال المشركين منهم ، والضرب على أيدي غيرهم من أهل الكتاب لتمنعهم الذلة من الظهور بالباطل على أهل الحق.
فسيف الله المسلول على أعناق أهل الكفر بالله وأهل الظلم والتعدى هو المشرط فى يد الحكيم الرءوف الرحيم ن الذى يحرص على سلامة الجسد ليعيش حيا عاملا نافعا فينال السعادتين . وما ترك المسلمون الجهاد والظهور على أعداء الله إلا سيموا بالخسف وجللوا بالذل وكانوا سفلة ليسوا من الإسلام فى شىء ، وما تقول فى مسلم

رضى بالحياة الدنيا وزينتها ونسى يوم الحساب إذا لم يكن متحيزا إلى فئة أو متحرفا لقتال ؟ الحكم لا يخفى على مسلم بمعناه ، واعتبار هؤلاء مسلمين جهل بحقيقة الإسلام وروحه.
وكان رسول الله ε يعظم الشهر الحرام فلا يقاتل فيه إلا دفعا ، بمعنى أنه إذا هاجمته الأعداء فى الشهر الحرام قاتلهم ليدفعهم حتى قال الله تعالى: **"وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ"**[1] وقال تعالى : **"وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ"**[2] وقال تعالى : **"الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ"**[3] فأحكم الله آياته وصدق الله العظيم.

قوله تعالى "والفتنة أكبر من القتل" أى وارتدادكم عن الإسلام بسبب كيدهم ، خصوصا فى زماننا هذا بما يقوم به مستعمرا أوربا كفرنسا وغيرها من قهر المسلمين على النصرانية بسبب ما ينشرونه من الأباطيل وما يقومون به من الانتقامات الفادحة ، كل ذلك بين الله لنا أنه أكبر من أن نقتل فى سبيله ، ولأن نقتل فى سبيله على الإسلام فنفوز بالسعادة الدائمة فى جوار الأخيار خير من أن نفتن فى ديننا فنرتد إلى الكفر حبا فى متاع الدنيا الزائل.
وهنا أخبر إخواننا أن الله تعالى حكم بالكفر فى صريح القرآن على كل مسلم يود الكافرين ويتولاهم أو يرضى بولايتهم قلبا وقالبا ، ومتى حكم عليه بالكفر طلقت زوجته وحرم عليه ما أحله الله له ومات على غير الإسلام ، ولو كان من العباد فإن الله تعالى يقول : **"أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ"**[4] ويقول سبحانه : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**[5] ويقول تعالى : **"لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ"**[6] "6" الآية . وخير للمؤمن أن يفوز بالجنة من أن يرضى بما يزول من حطام الدنيا ، اللهم أى أعوذ بك من أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك مما لا أعلم أنك مجيب الدعاء.

قوله تعالى **"وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا"**
يخبرنا الله تعالى أن أهل النفوس الإبليسية الذين خلقت أنفسهم من طينة الخبال ، فطروا على محاربة الحق وعناد من يلبيه سبحانه وتعالى ، ولا يفيقون من عنادهم هذا حتى يردوكم عن دينكم الحق ، ثم كشف لنا الحقيقة مبينا لنا أن المرتد عن دينه الحق لم يكن عليه فى الحقيقة ، لأن بشاشة الإسلام إذا باشرت القلوب هشت لها وبشت، نظرت القلوب بعيون الإيمان إلى حقيقة وعد الله ووعيده فأبت أن ترتد عن الإسلام لو مشطت جلودهم بأمشاط الحديد المحماة بالنار , لأن عيون الإيمان تشهد ما فوق المادة من الغيب المصون كشف الله تلك الحقيقة بقوله سبحانه وتعالى : **"وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ"**.

قوله تعالى **"وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ"**
درة أى رجوع إلى مقتضى جوهر النفس الإبليسية المفطورة على الكفر بالله بعد أن أسلم الإسلام مقهور على الإسلام بالطمع والرغبة أو إسلام تقليد لأبائه ، فلما بلغ أشده دعاه خبث النفس إلى الكفر الذى هو مقتضى حقيقة النفس وبقى على الكفر حتى مات عليه ، دل ذلك على أنه كان فى إسلامه كافرا لأن بشاشة الإسلام لم تباشر قلبه لعقده على الكفر.

([1]) سورة التوبة : 36.
(2) سورة البقرة : 191.
([3]) سورة البقرة : 194.
(4) سورة الزمر : 4.
([5]) سورة المائدة : 51.
(6) سورة المجادلة : 22.

قوله تعالى **"فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"**
لأن أعمالهم القلبية الإسلامية مفقودة بالمرة ، وأما أعمالهم الجسمانية التى لم تكن صادرة عن القلب فإنها لا قيمة لها ، قال الله تعالى : **"أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ"**[1] وقال ε : "إنما الأعمال بالنيات وإنما كل امرئ ما نوى: ومعنى حبطت أى هلكت . " فى الدنيا" لأنهم بالردة يجب قتلهم شرعا ومعاملتهم بالشدة والجفاء والقتل كما هو حكم المرتد شرعا وفى الآخرة معلوم سوء مآلهم.

قوله تعالى **"وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"**
حكم من الله تعالى عليهم ، والإشارة عائدة على من ارتد ومات كافرا ، و **"أَصْحَابُ النَّارِ** " أى الذين يدوم خلودهم فيها كخلود أصحاب الجنة **"هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"** وعيد من الله تعالى بأنهم يخلدون فى النار أبد الآبدين أعاذنا الله تعالى منهم.
أما من ارتد بباعث قهرى يسوغ له أن يقول كلمة الكفر بغير قلبه ، أو أرتد مؤثرا عليه ثم تداركته العناية فانقده الله من الكفر إلى الإيمان ، فإن ذلك يدل على أنه مؤمن من الأزل ، وأن ردته لم تكن حقيقة ، وأنه يفوز يوم القيامة بجزاء أعماله كلها إذا مات على الإيمان ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: **"وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ"** أى من ارتد ودام على الردة حتى مات يخلد فى النار ، وأما من ارتد فرجع إلى الإيمان فإن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجره.
وهنا أبين لإخواننا حفظنا الله وأياهم من فتنة المستعمرين ، الذين كانوا مماليك يباعون فى أسواقنا قبل مخالفتنا لكتاب ربنا وسنة نبينا ، ثم لما فرقتنا الأطماع والأهواء والتفت عنا ربنا بوجهه الجميل تمكنوا منا ، فجاسوا خلال ديارنا وطعنوا فى ديننا وسعوا بالحديد والنار أن يردونا عن ديننا ، كما فعلت فرنسا فى مراكش ، والإنجليز فى فلسطين والسودان وفى مستعمراتها شرق أفريقيا وغربها وجنوبها ، وكما فعلت هولندا فى جاوا ، وكما تفعل كل أمم أوروبا فى مستعمراتها بطلائع الظلم والبهتان من جنود المبشرين وجنود الكيد والخداع ثم جنود الحديد والنار ، كل ذلك من مخالفتنا لسنة نبيناع .
وهنا أصارح أخواننا المسلمين مبينا لهم أن أمم أوروبا فى زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجلاهم جميعا عن شمال أفريقيا وغرب آسيا ، وأبقى النصارى بين المسلمين مع تمكين المسلمين من محقهم عن أخرهم ، وأو قهرهم على الإسلام من الصولة والجوالة والطول والحول ، ولكن القرآن المجيد امرنا برحمة أهل ذمتنا ، ومعاملتهم فى الحقوق الاجتماعية بما نعامل به أنفسنا ، ثم أنتشر الإسلام حتى وصل إلى غرب أوروبا وجنوبها ، فكانت أسبانيا الأوروبية بلادا إسلامية وكذلك البندقية ، وفتحت روما بشبان من أبناء المسلمين فى زمان بنى أمية ، وانتشر الإسلام فى جزائر البحار ثم فتح شرق أوروبا بالجيوش العثمانية ، حتى وصل الإسلام إلى بولدنا والنمسا والمجر.
ولما قامت الحرب بين فرنسا وأسبانيا وتمكنت جنود أسبانيا من فرسنا ، واستجار ملك فرنسا بسلطان تركيا ، كتب فورا لملك أسبانيا أن يوقف الحرب ويخرج من فرنسا ، وهدده فسمع وأطاع . إلى أن تمزقت الدولة العثمانية ، لما ركن إلى الترف خلفاؤها ، ودب الضعف فى المجتمع الإسلامى ، وقام كل زعيم فجعل نفسه ملكا على أمته ، وتعدد الملوك واختلف بعضهم على بعض فأضعفوا أنفسهم فكانت الحروب الصليبية.
ولكن المسلمين مع تفرقهم جمعتهم كلمة الدين بغيرة لله ، ألقت فيها على أوروبا درسا وخصوصا على ملك فرنسا ، الذى كان أسيرا فى بيت يهودية ببلبيس "فرية مصرية" ، وتلك العزيمة دعها إليها التمسك بالدين ، كانت أوروبا للمسلمين بمكايد لا يعلمها إلا أهل الرذائل والمفاسد ، فنشروا فى الشرق تحرير الرقيق ، ثم خدعوا قادة الشرق بالمكيفات والمخدرات وبالنساء اللاتي كن يهجمن على بيوت قادة الأمم بصفة خدم ومربيات ، ولا أبعد بك فإن سلطان مراكش مولاى حسن كان عنده فرنسية ولدت له ولده الذى كان ولى العهد ، وتولى الملك فكان فرنسيا رأيا ومعيشة وعملا ، حتى خالف الشرع فى أعماله فتمكنت فرنسا وأسبانيا فى زمنه من نشر مبادئ الاستعمار ، ثم أرسلت أوربا جيشا آخر من ثلاث فرق : مالية ، وفرقة تجارية ، وفرقة يسمونها التبشير جنودها

([1]) سورة الزمر : 3.

نساء طبيبات أو معلمات ورهبان معلمون ، فافتتحوا المدارس فى كل مدينة مجانا ، وبذلوا الأموال للنشء الصغير ولأهليهم حتى تمكنوا من الأمة ، وأظهروا أنهم رحماء يرحمون العبيد والزنوج والفقراء والمرضى ، فما لت إليهم قلوب الهمج الرعاع اتباع كل ناعق ، فما مضت عشية أو ضحاها حتى ملكوا عقارات الأغنياء وملكوا قلوب الزعماء وخدعوا الفقراء.

وبينما الناس فرحون بهم فى بلاد الشرق وإذا بالأساطيل تجوب البحار ،والفيالق تخرق المدن بالقلوب القاسية الجافية ،والأيدي الظالمة الآثمة ،تجعل الأحرار أدنى من العبيد والعظماء أحقر من العامة فلم ينس الناس تحرير الرقيق ولا الرفق بالحيونات ،وتحققوا أنه البنج الذى خدروا به أعصاب الأمم حتى سلبوا مرافق حياتها ،وتصرفوا فى الأعراض والدين والصناعات . وهذا جزاء مخالفة الشريعة المطهرة .قال أبو هريرة رضى الله عنه :"إنما يسعد أخر هذه الأمة بما سعد به أولها ".

والواجب علينا جماعة المسلمين أن نرجع إلى ما كان عله سلفنا الصالح ،وهذا لا يكفينا بذل جهد ولا عناء ، وإنما هى محبة فى الله وإخاء فى الله وعمل بسنة رسول الله ، وإيثار للأخ فى الله على النفس ، والثقة بكل مسلم ، والحذر من كل عدو للإسلام . وبذلك يعيد الله لنا هذا المجد الأثيل ويعيد أعداءنا مماليك يباعون فى أسواقنا كما كانوا لسلفنا.

قوله تعالى : ["**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**"](218).

بعد أن بين الله حال أهل الكفر بالله ، وحال من آمن بالله إيمانا مزيفا حتى إذا ظهرت له بدعة أرتد ، وبين سبحانه ما توعدهم به فى الدنيا والآخرة ، بين أحوال الإيمان كما هى سنة القرآن المجيد ، وشرح ما يكونون عليه فى الدنيا وما ينالهم فى الآخرة فقال سبحانه : "**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** " أي صدقوا الله ورسوله وداوموا على ذلك لأن نفوسهم صيغت من نور رضوان الله تعالى ، وهم الذين سبقت لهم الحسنى.

قوله تعالى "**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**"

الهجرة مأخوذة من الهجر وهو العبد من المألوف ، والمراد به هنا عبد الله بن جحش ومن معه الذين قتلوا عمرو بن الحضرمى فى الشهر الحرام حين كره رسول الله ε عملهم ، وطمأن الله قلوبهم فى الآية السابقة فقال عبد الله بن جحش رضى الله عنه : أن غفر ذنوبنا فهل يثيبنا ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والسبب خاص والحكم عام كما سبق . والمهاجر هو من هجر ما نهى الله عنه خصوصا إذا كان فى تركه مشقة على النفس ، فقوله تعالى : "**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا**" أى جاهدوا العدو بأنفسهم وأموالهم إعلاء لكلمة الله تعالى ، وتجديدا لسنة رسول الله ε . ولا يكون جهاد النفس فى ذات الله تعالى إلا إذا كان : "**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**" أى في بيان طريق الله تعالى وقهر أعدائه وإعلاء كلمته من غير علة تدعو وهوى يدفع إليه أو طمع فيما يفنى.

قوله تعالى "**أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ**"

"أولئك" الإشارة عائدة إلى من ذكرهم الله فى هذه الآية ، وهم الذين آمنوا إلى آخرها "يرجون" بيان لكمال أدبهم وتمكنهم فى مشاهد التوحيد العلية ، التى يعتقدون بها أن عناية الله بهم فى هدايتهم وإقامتهم فيما يحبه الله من الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس ، إحسان عظيم يوجب على العبد أن يسارع الى شكر الله ، ويتمنى أن الله يقبل منه الشكر على تلك النعم العظمى ، ولا يرون لهم على الله حقا بل يرون الفضل والنعمة والمنة لله وحده ، لأنه جل جلاله قادر على أن يقيهم فيما يكره من الكفر والضلال والبهتان ، كما أقام أعداءهم الذين يجاهدونهم فتكون حالتهم الرهبة والخشية من الله تعالى ، والطمع والرغبة فى نيل مغفرته لذنوبهم التى منها نسيان تلك النعم أنها منه سبحانه وتعالى عند مزاولة العمل لله تعالى ، واعتقاد أنهم عملوا عملا وفى ذلك يرون أنفسهم كأنهم أشركوا بالله . فلتلك المعانى الخفية عن غير الصحابة وعن غير أمثالهم فى العلم يخبرنا الله تعالى بقوله : "يرجون رحمت الله" بعد أنب بشرهم برضوانه الأكبر فى مقعد صدق عنده سبحانه ، ولكن كل تلك البشائر

وتصديقهم بها لا تجعل قلوبهم تطمئن إلى أنهم هم المخصوصون بهذا الفضل العظيم ، إجلالا وتعظيما لله بما تفضل عليهم بما يحبه ويرضاه من عقيدة وعبادة وعمل وحال فى الدنيا ووعدهم بالفوز العظيم يوم القيامة.
والرجاء هو غلبة الظن بنيل المقصود ، وقد وضع الله لنا ميزان المقامات التى أخبرنا الله تعالى أنه رضى عن أهلها وأنه يحبهم ، ومن فازوا بمحبة الله رسول الله ε ونصرة الله ، ومع كل الخصوصيات نراهم يثبتون أنفسهم من أهل الرجاء مع ثناء الله عليهم ومدحه لهم سبحانه . فإذا كانوا بعد الإيمان بالله والهجرة إليه سبحانه بمفارقة أوطانهم وأموالهم وأعراضهم ، وبعد المجاهدة بالنفس والمال لأعدائه سبحانه يقومون أمامه تعالى فى مقام الراجين ، فكيف يكون حالهم إذا وقعت منهم بعض المعاصى التى نحن منغمسون فى كبائرها ؟ ومع هذا الحال نحكم لأنفسنا بما لا يستحقه إلا شهيد أو صديق . اللهم أدبنا بآداب أصحاب نبيك ، وارزقنا الخشية والرهبة من حضرتك إنك مجيب الدعاء.
قوله تعالى **"وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**
تفضل من الله سبحانه وتعالى بعد ثنائه على عبد الله بن جحش ومن كانوا معه ، بل وعلى كل أصحاب رسول الله ε ، لأن كل رجل منهم أمة نفعنا الله بأسرارهم . والمغفرة هى ستر الذنوب حتى لا يؤاخذ عليها المذنب، والرحمة هى أن يبدل تلك السيئات حسنات ، ويكون المعنى والله يستر ذنوب من وصفهم جل جلاله فى الآية ، ويبدل تلك الذنوب حسنات فضلا وإحسانا منه جلا جلاله والله ذو الفضل العظيم.

قوله تعالى :[**"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"**(219) **"فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"**](220).

قوله تعالى "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا "
أن الله سبحانه وتعالى أدب أصحاب حبيبه محمد ε أدبا لم يتفضل به على غيرهم من الأمم السابقة ، فقد سأل بنو إسرائيل موسى أسئلة لا سألها إلا جاحد أو شاك ، وسأل أصحاب عيسى أسئلة تفيد الشك . أما أصحاب رسول الله ε فأسئلتهم محصورة فى ثمانية عشر سؤالا كلها للأستفهام عن أحكام تدعو إليها همتهم العلية ، وسؤالهم عن الخمر استفهام عن أحكامه هل هو حلال أم حرام ، لتستبين لهم الحقيقة التى يحبها الله تعالى ، فأجابهم الله تعالى على حسب قصدهم مخاطبا رسوله ε ، وفى السؤال عن الميسر أيضا بيان للحقيقة فقال : **"قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ"** وقد نزل فى الخمر آيات تدل على تحريمه ضمنا.
والأثم أما أن يكون هو العذاب أو هو السبب الذى يوقع فى العذاب ، والمؤمن الكامل يحكم بتحريمه فى هذه الآية ، لأنه يرى أن كل منفعة فيه توقع فى غضب الله تعالى وعذابه فلا يوقع نفسه بسبب شىء لا تدعو الضرورة إليه فيما يكرهه الله تعالى ، بعد أن سمع الله تعال يقول : **"فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ"** وقد قرئت : **"إِثْمٌ كَبِيرٌ"**.
وعلى هذه الرواية الأخيرة الأثم أنواعه كثيرة فى الخمر والميسر ، أما فى الخمر فإنه مادة بلغت من التخمر مبلغا تفسد به المعدة ، وتقرح الكبد وتضعف القلب وتضر الكلية ، ويصعد بخارها إلى الدماغ وتفسد خزانة الإدراك والحافظة ، ويمرض الخيال والوهم حتى يصير الإنسان أضل من الأنعام ، لا يفكر ولا يتدبر فى شئ نافع ، ويلقى بنفسه فى موجبات المخازى والضلال ، هذا من جهة تأثيره على الأعضاء الباطنة ، وهو يفسد الأخلاق ويذل الإنسان بين قومه ويضيع الأموال والشرف والمجد ، وإنما الإنسان بعقلة بين بنى جنسه فإذا فقد عقله بالخمر صار سافلا لا يعتد به ، وأن الله تعالى ما حرم الخمر إلا لأنه مضرة فى الدنيا وعذاب فى الآخرة ، وفيه مضار أخرى هو أن الإنسان إذا شربه وقرب من فمه نارا أحترق الخمر فى بطنه فمزقه وهو الاحتراق الذاتى ، وكم قتل الخمر رجالا بهذا الاحتراق يشرب الإنسان الخمر ثم يأتى بلهبة يشعل بها ما يحرقه من التبغ "الدخان" فتصل الشعلة إلى أثر الخمر على شفتيه فتصل النار إلى بطنه لأن الخمر سريع الاشتعال.
وللخمر مضار أخرى لا يجهلها أهل العقل وخصوصا فيما يتعلق بالحالة الاجتماعية ، فإن الخمر شاربيها وحوشا كاسرة يتعشقون الانتقام فتثور نفوس بعضهم على بعض ويحصل الهرج والمرج ، فتزول الألفة والمحبة والصفاء ويحل العناء والجفاء.

روى الإمام ابن جرير الطبرى فى تفسيره الكبير يسنده عن الشعبى قال: نزلت فى الخمر أربع آيات : **"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ"** فتركوها ، ثم نزلت : **"تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا"**[1] فشربوها ثم نزلت الآيتان فى المائدة : **" إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ"** إلى قوله تعالى : **"فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ"**[2].

وعن السدى قال : نزلت هذه الآية : **"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ"** فلم يزالوا بذلك يشربونها ، حتى صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعا أناسا من أصحاب النبى ε وفيهم على بن أبى طالب فقرأ : **"قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ"**[3] فلم يفهمها ابن عوف فأنزل الله عز وجل يشدد فى الخمر : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ"**[4] فكانت حلالا يشربونها من صلاة الفجر حتى يرتفع النهار أو ينتصف فيقومون إلى صلاة الظهر وهم صاحون ، ثم لا يشربونها حتى يصلوا إلى العتمة فيصلون العشاء . ثم يشربونها إلى منتصف الليل وينامون . ثم يقومون إلى الصلاة الفجر وقد صحوا ، فلم يزالوا كذلك يشربونها حتى صنع سعد بن أبى وقاص طعما فدعا ناسا من أصحاب النبى ε فيهم رجل من الأنصار ، فشوى لهم راس بعير ثم دعاهم عليه ، فلما أكلوا وشربوا من الخمر سكروا وأخذوا فى الحديث فتكلم سعد بشىء فغضب الأنصارى فرفع لحى البعير فكسر أنف سعد، فأنزل الله نسخ إباحة الخمر وفرض تحريمها وقال تعالى : **"إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"**.

والخمر مأخوذ من الخمار الذى تضعه المرأة على وجهها وصدرها لستستره ، وسمى خمرا لأنه يستر العقل عن وظيفته التى بها حياة الإنسان فى سمرة وهناءة . فإذا خامر العقل صار الإنسان شرا من إبليس ، وأضر من الوحوش الكاسرة فيكون المجتمع الإنسانى كغابة وحوش.

وقيل أن العنب إذا وضع فى الجرار علاه رغوة تخمره أى تستره

وليس الخمر من أنواع الأغذية والأشربة المغذية للإنسان النافعة لصحته الجسمية والعقلية ، ولكنه من الأشربة المفسدة لكل قوى الإنسان.

وإنما حرمه الله تعالى لما يعلمه فيه من المضار التى تجعل الإنسان فى بؤس لفقره وسوء حاله وفساد صحته.

فحرمه الله تعالى الرءوف الرحيم بعبادة ليفوزوا بالسعادتين سعادة الدنيا بصحة أبدانهم وسعادة الآخرة بصحة عقولهم التى تعقل عن الله تعالى.

"والميسر" الميسر هو القمار مأخوذ من اليسر ، يقال ياسره أى قامره فسلب ماله ، والميسر عند العرب ما كانوا يعملونه فى الجزور فخرا ورياء وكان لهم سهام بقد الأنصبة ، وصفته أنه كانت لهم عشرة أقداح ، وهى الأزلام والأقدام وهى الفذ والتوءم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد ، لكل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء ، وقي لثمانية وعشرين إلا الثلاثة التى هى المنيح والسفيح والوغد ، للفذ سهم وللتوءم سهمان والرقيب ثلاثة وللحس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة يجعلونها فى الربابة وهى خريطة، ويضعونها على يد عدل ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا ، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب المعين لها ، ومن خرج له قدح من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه ، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لا يدخل فيه ويسمونه "البرم" وفى حكمه جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرها وعن النبى ε أنه قال : "إياكم وهاتين اللعبتين المشئومتين فأنهما مياسر العجم".

أما مضار الميسر فإن فيها فساد الأخلاق وحمل السخائم والضغائن وتمنى زوال نعمة وحب الانتقام ، ولا ترى مجتمعا نشأ فيه هذا البلاء إلا سيم بالفقر والذل والتفرقة ، فإن الذى يسلب المال يترك صاحبه فى هم وبلاء وعزم على الانتقام لأنه سلب ماله بدون وجه شرعى ولا عرفى ، ومن لم يمنعه دنيه وجب على الحكومة والأمة أن تصارده أو تنفيه من الأرض بتخليده فى ظلمات السجون.

([1]) سورة النحل : 67.

([2]) سورة المائدة : 90 – 91.

(3) سورة الكافرون : 1.

(4) سورة النساء : 43.

ومنافع الخمر والميسر لا تخفى على أحد وهى كمنافع اللصوص والخونة وقطاع الطريق ، وكل منفعة جرت ضررا للغير دلت على خبث النفس ورب رجل خبيث النفس يوقع المجتمع فيما لا تحمد عقباه ، وخير المسلمين من اتقى الشبهات وحفظ دينه وعرضه وماله ، ومن فقه عن الله خطابه حرم الخمرة بتلك الآية بتاتا بدليل قوله : "وأثمهما – أى الخمر والمويسر – أكبر من نفعهما" لأن نفعهما شر على المجتمع لاكتساب صانع الخمرة وبائعها أموالا بضرر الغير ، ولأن شاربها يرتكب هذا الإثم الكبير من غير أن يجد منها منفعة إلا ما يتخيل أنه نفع من حيث زوال عقله وأقدامه على ما لا يباح شرعا من فعل المنكرات وأذية العباد وهو شر مستطير ، ومن كان هذا عنده نفع فهو منن شرار الخلق .

قوله تعالى **"وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ"**

سبب نزول هذه الآية أن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يحبون الأخذ بالعزائم فيما يرغبهم الله تعالى فيه ، ويسارعون أن يستفرغوا كل ما فى وسعهم لنيل مراضى الله ومحابه ، ولما تحققوا أن الله تعالى ورسوله ε يرغبانهم فى الانفاق كرروا السؤال فى هذا الموضوع ، وفى هذه الآية السؤال عن مقدار ما ينفقون هل كل المال أو بعضه ؟ فأجابهم الله تعالى بقوله : "قل – يا محمد ينفقون – العفو" على رواية فتح الواو فيكون العفو مفعولا لـ "ينفقون" المحذوف أو مرفوعا خبرا لقوله تعالى : "ماذا" والعفو ما زاد عن حاجة الإنسان بدليل قوله تعالى : **"خُذِ الْعَفْوَ"** [1] أى ما زاد وقوله تعالى: **"حَتَّى عَفَوْا"**[2] أى كثروا.

وفى هذه الآية دليل على كمال رحمة الله تعالى بالإنسان لأن الله تعالى هو الذى خلق الإنسان ووضع فيه بواعث للخير "المال" فأنزل شريعته المطهرة سبحانه على قدر ما فطرهم عليه جلا جلاله ، والشريعة المطهرة أنزلها الله لمصالح العباد عامة ، فإذا عمل العبد بها وعلمه الله ما لم يعلم طولب بكمال الشريعة الروحانى ، فيعمل بفطرته التى هى فطرة الله تعالى مصبوغا بصبغة الله مسارعا إلى الله تنزهت ذاته ولديها يكون ملامتيا ينكر عليه أهل عصره فلا يلتفت إلى اللائمين ويمضى فى شأنه مستترا عن الخلق فى معاملة الله تعالى بقدر طاقته.

قوله تعالى **"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"**

معنى هذه الآية أن الله تعالى يقول : كما بينا لكم فى الآيات السابقة ما أحبه وأرضاه من أسرار التوحيد النبوة والعبادة والأخلاق ، كذلك أبين لكم ما أحبه من النفقة التى يجب أن تتقربوا بها إلى المساكين ، حتى تنكشف لكم حقيقة الدنيا والآخرة ، وتتفكروا بعقولكم التى تعقل عنى مقدار الدارين ، فتسارعوا إلى تقديم ما أنفعكم به يوم لقائى بعد علمكم بحقيقة الدنيا الفانية ، ويقينكم ببقاء الآخرة فى نعيم مقيم أو عذاب أليم.

وهذه الآية تجعل المؤمن يسارع إلى إدخال السرور على من أوجب الله عليه الإنفاق عليهم أو رغبهم فى ذلك ، وهذه الآية ليست منسوخة بآية الزكاة لأنها خاصة بالفضل أى الزائد عن حاجات إنسان ، وكان أصحاب رسول الله ε يتقربون إلى الله بما زاد عن حاجتهم وكان صلى الله عليه وسلم يدخر قوت سنة لأهله ، والصحابة رضى الله عنهم كانوا أحرص الناس على كمال الاقتداء به صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى **"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ"**

سبب نزول هذه الآية أن الجاهلية كانوا يسلبون أموال اليتامى وخصوصا البنات ، فإنهم كانوا يتزوجونهن أو يزوجونهن لأبنائهم طمعا فى الأموال ، فبين الله لنا بيانا شافيا بقوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا"**[3] فأمتنع الصحابة عن مخالطة الأيتام وأفردوهم بالأكل والشرب والمسكن حتى ساءت حالهم ، فتداركهم الله برحمته فأنزل هذه الآية لما بلغ منهم أن كانوا يصنعون الطعام لليتامى فإذا أكلوا وبقى شىء تركوه حتى يفسد ، وكذلك الماء حتى كانوا لا يستعملون فراش اليتيم ولا فى الجلوس ، فلما سألوا الله عن حالة اليتيم بين الله لهم بقوله : **"قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ"** ، أى أن المراد إصلاحهم تربية

([1]) سورة الأعراف : 199.

(2) سورة الأعراف : 95.

([3]) سورة النساء : 10.

وأخلاقا وآدابا حتى يعامل الرجل اليتيم معاملة ابنة ، ثم وسع لهم سبحانه وتعالى مع رعاية الإصلاح بقوله سبحانه : "وان تخالطوهم" فى المأكل والمشرب والمسكن "فإخوانكم" أنزلوهم منزلة الأخوة ، وهنا يتعين أن يكون اليتيم مسلما حتى تصلح له تلك النسبة.

قوله تعالى **"وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ"**

أراد الله بهذه الآية حفظ قلوب المؤمنين من أن يمازجها سوء قصد أو طمع فى أموال اليتامى فيكون الوصى مفسدا ، فإذا راقب الله تعالى علام الغيوب الذى يعلم خواطر القلوب ونواياها فيتفضل على المصلح بخيري الدنيا والآخرة ، وينتقم من المفسد بالانتقام فى الدنيا والآخرة ، فأن المفسد فى مال اليتيم خبيث النفس قاسى القلب منزوعة الرحمة منه ومن لا يرحم الناس لا يرحمه الله.

قوله تعالى **"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ"**

بعد أن رحم الله عباده بما بين لهم من إباحة معاملة الأيتام معاملة الأخوة حتى جعل الوالى واليتيم كأنهما إخوان مختلطان ، بين الله تعالى لعبادة أن هذه الوسعة هى فضل منه تعالى ورحمة ليرفع عن عباده الحرج والمشقة بدليل قوله سبحانه : **"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ"** أى ولو قدر فى ميشئته لأحرجكم وشدد عليكم بتحريم مخالطة اليتامى ، الأمر الذى يوقع الولى واليتيم فى الحظر بسبب ما كان يعمله الصحابة بعد أن أخبرهم الله بقوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا"** فكان الرجل كما قدمنا يحرم على نفسه طعام اليتامى حتى يفسد ، ومرعاهم ولبن حيواناتهم حتى وسع الله لنا فى ذلك ، ومعنى قوله : **"لَأَعْنَتَكُمْ"** يشدد عليكم بالتحريم تشديدا يحرجكم أو تقعون فيما حرم الله تعالى مما يخلد فى النار ، لكن الله بعباده رءوف رحيم.
"إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"

يعنى قوى قادر ينفذ ما يشاء بقوة وقدرة ، ولولا رحمته بالخلق لأعنتهم فاستحقوا شديد انتقامه وعقوبته ، ويفعل ذلك سبحانه بحكمة بالغة.

قوله تعالى :[**"وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"**](221).

قوله تعالى **"وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ"**

سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ε بعث مرثد بن أبى مرثد إلى مكة ليخرج أناسا من المسلمين بها سرا فعرضت له امرأة تسمى : "عنان" كانت تحبه فى الجاهلية وخلت به وهمت به فقال لها أن الإسلام يمنع من هذا ولكن أعدك أن أتزوجك ، ثم سأل رسول الله ε عن هذا فأنزل الله تعالى : **"وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ"** ولك أن تقول أن سبب نزولها اتصالها بآية الأيتام ، والمراد بها الترغيب فى نكاح اليتامى اللائى أخبرنا الله عنهن بقوله : "فإخوانكم".

والنكاح فى اللغة معلوم ، وهو فى الشرع العقد أو الملامسة بالأدلة المؤيدة بكل مذهب ، وما يقتضيه كل مذهب من أن النكاح هو العقد أو أنه هو الملامسة مذكور فى كتب الفقه ، "المشركات" اللفظ عام لكل مشركة ، والمشرك من كذب رسول الله ε فيما جاء به من عند الله ومن جحد الألوهية ومن اتخذ مع الله ولدا أو ندا أو شريكا ، فلفظة الشرك تعم ، ولكنها فى هذه الآية خاصة بمشركى مكة ومن على شاكلتهم بدليل ما أباحة الله لنا من نكاح نساء أهل الكتاب فأحل للمسلم أن ينكح اليهودية والنصرانية . ولم يحل للمسلمة أن ينكحها يهودى أو نصرانى.

وقد بين الله تعالى الحالة التى بها يجوز للمؤمن أن يتزوج المشركة بقوله : "حتى يؤمن" وفصل ذلك بقوله : "ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم" يعنى أن الآمة المؤمنة سواء من الحرائر أو المماليك خير من المرأة المشركة لو كانت غنية جميلة ، وهذه الآية بعد الأولى التى عينت نهى الله تعالى نهى تحريم تدل على أن

تحريم الله المشركات لحكمة تعبدية وحكمة عقلية ، أما العقلية فلأن نفوس المشركين خبيثة جداً لأنها حرمت القابل عن الله تعالى فانحطت حقيقتها عن النوع الإنسانى الفاضل وصارت أضل من البهائم السائمة ، والنساء خزن الذرية وأرض غراس الأولاد ، والأرض الخبيثة لا تنبت إلا نكدا.
وحيث أن المراد من النكاح هو عمارة الكون بما يخلقه الله بين الزوج والزوجة من الأولاد وأن جهل ذلك أهل النفوس الشهوانية ، لأن الله أودع فى المرأة قوة الشهوة لا لأن الشهوة مقصودة بالذات ، وإنما لتكون باعثا لرغبة المرأة فى الرجل ورغبة الرجل فيها ليحصل ما قدره الله تعالى ، وإذا كانت هذه هى الحقيقة فنكاح المؤمن المشركة مفسدة للعمران ، وقد أباح الله لنا نساء أهل الكتاب لأنهن خلق الله فى نفوسهن صفاء حتى قبلن الإيمان بموسى وعيسى ولولا ضعف قلوبهن لا تبعن الإسلام والذى منعهم عنه تقليدهن آباءهن.

قوله تعالى **"وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ"**
ينهى الله تعالى الآباء والأولياء عن أن يزوجوا البنات المؤمنات غير المؤمن لحكمة تعبدية وعقلية أيضاً ، فإن الأرض الطيبة الخصبة إذا وضع فيها النبات الخبيث الشائك تخرجه خبيثا كما كان ، وقد بينت لك ما يكون من المشركات من الشر ، فكذلك يكون من المشركين إذا تزوجوا المؤمنات من الشر ، والله تعالى هو العليم الخبير بتلك الحقائق ، والواجب علينا أن نقول ما قالته الملائكة : **"سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا"**[1] وأن نسارع إلى اجتناب ما نهانا الله عنه والعمل بما أمرنا به.
والخيرية هنا على إطلاقها أي ولعبد مؤمن خير من المعاشرة وفى العناية بحق الله تعالى والقيام بفرائضه التى فرضها ، وفى الشرف فى الدنيا وفى الآخرة ، فقد يكرم الله قوما بحبيب له يظهره فيهم.
وهنا إشارة فى الآية ما نراه بأعيننا ونحكم به بعقولنا فى جانب ما يأمرنا به الله وينهانا عنه مضمحل لا قيمة له ، لأن جوارحنا تكذب علينا كثيرا فى حكمها ، فقد تكذب عليك العين فترى الشمس قدر الرغيف ، وترى السراب ماء ، وترى الجبل الذى بينك وبينه سفر أيام كأنه تحت قدميك ، ويكذب عليك اللسان فيذوق الحلو الخالص الحلاوة مرا لمرضه ، وكذلك كم أخطأ العقل فى أحكامه لأنه مخلوق مقهور كالجوارح ، فقد تقهره الشهوة والغضب فيحكم بما يغضب الله وتنفذ الأعضاء ، والخير الحقيقى هو الخير عند الله تعالى ، والمؤمن الكامل من جاهد نفسه الشهوانية والغضبية والنزوعية جهادا فى الشريعة يجعلها تسارع الى امتثال أمر الله واجتناب نهيه بعد يقينه أن ذلك غاية السعادة.

قوله تعالى **"أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ"**
يبن الله لنا فى هذه الآية الحكمة الجلية فقال : **"أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ"** يعنى أن المشركات إذا تزوجن المؤمنين ، أو أن المشركين إذا تزوجوا المؤمنات والزوجية رابطة تأثيرية ، فقد يميل المؤمن إلى المشركة فيحبها ويحب ما هى عليه ، وقد تميل المؤمنة إلى المشرك فتحبه وتحب ما هو عليه ، فيحصل ضعف فى الإيمان إذا لم نقل رده عنه ، ويكون الزواج سببا فى الخلود فى نار جنهم.

ومن الذى يرضى أن تقهره شهوته فيصرفها فى أنفاس توجب عليه الخلود فى النار ؟ وأن كان يقال ذلك فى نساء اهل الكتاب ، كما رآه أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه حين تزوج حذيفة بنصرانية أو أو يهودية فغضب وكتب إليه أن خلها فقال : أنها ليست حراما فقال عمر : نعم ولكن أخاف . . ففى رأى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ما يفيد أن الله أباح زواج الكتابيات ليسلمن ، أما ونحن فى هذا العصر فالأولى منع نكاح الكتابيات اقتداء بأمير المؤمنين رضى الله عنه.

([1]) سورة البقرة آية : 32.

قوله تعالى **"وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ"**
يعنى أن الله تعالى بين لكم الحرام والحلال وأمركم بالسمع والطاعة لتفوزوا بالجنة ، والسمع والطاعة بتوفيقه وهدايته سبحانه ، فهو جل جلاله يدعو إلى الجنة والمغفرة ويقدرها ويعين على الفوز بهما ولك أن تقول : **"وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ"** أى وأولياؤه الربانيون الراسخون فى العلم يدعون إلى الجنة والمغفرة بأذنه أى بتقديره وإرادته، وهى الحكمة البالغة لتحريم نكاح المشركات والمشركين ، لأن مخالطتهم توقع فى خسران الدنيا والآخرة – ولو لم يكن فيها إلا مودة من حاد الله ورسوله لكفاها تعسة – وأن الاقتداء بأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لمن أكمل الحيطة للدين. . .

قوله تعالى **"وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"**
أى أنه ينزل سبحانه ليبين لهم الحرام والحلال ووجوه الخير والمنفعة بيانا يفهمه كل ذى عقل لتحصل لهم الذكرى – قال سبحانه : **"فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ"**[1].

قوله تعالى : [**"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"**](222).

سبب نزول هذه الآية أن المشركين واليهود كانوا إذا حاضت المرأة أبعدوها عنهم ، فلا يتكلمون معها ولا يجالسونها ، وكان النصارى إذا حاضت المرأة لا يبالون بالحيض ويباشرونها ، فلما نزلت هذه الآية الشريفة نفذ الصحابة معناها فهجروا النساء وأبعدوهن عنهم ، فشكا بعضهم إلى رسول الله ε أن بعد النساء عنهم يقتضي فراشا ودثارا كثيرا ، وليس عندهم إلا ما يكفيهم مجتمعين – فقال رسول الله ε "إنما أمرتكم بأن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن ولم آمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم" – وأباح لنا الاستمتاع بما فوق السرة ومادون الركبة.
والمراد من المحيض وهو الدم السائل ، والحيض هو السيل ، يقال حاض الوادى : أى سال ماؤه . وبهذا سمى الحيض كما يقال الحوض الذى يسيل فيه . وأن قيل أن الحيض هو العضو يكون هنا محذوف ويكون المعنى – يسألونك عن المحل الذى يسيل منه الحيض.
وقوله : "هو أذى" اى ذو أذى لن الحيض دم سائل من الرحم لا يسمى بأذى ، وعلى هذا فالمحرم هو مباشرة المرأة فى وقت حيضها ، ولذلك أمرنا الله تعالى باعتزال هذا العمل فى وقت الحيض ، ولا أبعاد النساء من بيوتهن كما يفعل اليهود والعجم.
والفرق بين الحيض والاستحاضة أن الحيض دم تقذفه الطبيعة من الرحم قدرة الله ليكون غذاء الجنين فى بطن أمه ، وأما الاستحاضة فهو دم يسيل من عروق فى الرحم عن احتقان ومرض ، وهذه الآية لا تحرم على الزوج مباشرة المستحاضة وعليها الصيام والصلاة ، فإنما تلك الأحكام لا تتعلق إلا بالحائض ، إذ تسقط عنها الصلاة وتقضى الصيام.
قوله تعالى **"فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ"**
هذه الآية جاءت في تحريم الوطء فقط ، ومعنى **"فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ"** أى اتركوا وطأهن **"وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ"** أى لا تطؤوهن **"حَتَّى يَطْهُرْنَ"** أى إلى تمام طهرن بامتناع الحيض وبالطهارة الشرعية بالماء.
قوله تعالى **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ"**
أى إذا ثبت طهرهن صحة وشرعا فباشرهن ملامسة فى الموضع الذى أمركم أن تأتوهن فيه ، احترازا من الوقوع فى الفاحشة التى خسف الله لأجلها أمة قوم لوط ، وإن كان هذا معينا من قوله : **"نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ"** فإن الآتيان لا يكون إلا فى محل الحرث والحرث هو محل الزراعة والإنبات ، ولكن الله رحمه بعباده المؤمنين يزيدهم علما وبيانا.

([1]) سورة الذاريات آية : 55.

قوله تعالى **"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"**
تقدم الكلام على لفظ التوبة لغة ، وبينا أنها الرجوع عما يكرهه الله تعالى إلى ما يحبه ، وهنا نشير إلى أنواع التوبة بالنسبة للتائبين فالتوبة قد تكون من الكفر إلى الإيمان ، ومن المعاصى إلى الطاعات ، ومن التوسعة فى المباحات إلى التورع ، ومن الحرص على الحلال إلى الزهد فيه ، ومن القيام بالعبادات غير حاضر القلب حتى تقع منه كالعادات إلى ايقاظ القلب بالمجاهدات لنيل المشاهدات ، ومن فرح القلب بالمشاهدات إلى الفرار إلى مشاهد التوحيد عالية ، ومن المشاهد التوحيد العلية الى التمكين فى مقام "لا حول ولا قوة إلى بالله".
ونمسك العلم عن أن نكتب ما فوق ذلك من توبة التائبين ، ومن الفناء عن التوبة من التوبة ، ومن البقاء بالله فى رياض **"وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ"**[1] حيث يكون الحق معالم بين عينية لا يغيب إذا غاب الناس ، ولا يغفل إذا غفل الناس ، حسبك على ذلك قوله الله تعالى : **"فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا"**[2] بعد جهاد النفس وجهاد العدو الفادح ، وبعد أن كان رسول الله ε يستغفر فى المجلس سبعين مرة ، ولا تسألن عن ماذا كان يستغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم . ونرجع إلى التفسير:
هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، بينت لك فى الآية السابقة أن أهل الجاهلية واليهود كانوا لا يساكنون النساء فى المحيض ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فبين لنا رسول الله ε أن المراد من الآية الامتناع عن المباشرة "الوقاع" فقط وأن لا يلامسها إلا من الطهر ، وفى هذه الآية يعلمنا الله تعالى أنه يحب التوابين ، ومحبة الله تعالى عالية غالية . والتوابون هنا بحسب ارتباط الآية بما قبلها ، تدل على الذين تابوا عما كانوا عليه قبل بيان رسول الله ε من ترك مساكنه النساء فى حيضهن ورجوعهم إلى بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتوابون جميع للمبالغة ، يعنى الذين يسارعون فى السمع والطاعة رجوعا إلى الحق وأن كثر وقوع الذنوب منهم ، أو التوابون الذين يجاهدون أنفسهم أشد المجاهدة حتى لا تقع فى ذنب فإذا وقعت رجعت إلى الحق نادمة.
"ويحب المتطهرين" الذين يتطهرون بالماء فى الوضوء وفى الغسل من الجنابة والحيض والنفاس ، أو الذين يطهرون قلوبهم وجوارحهم من أن يباشرهم أو يخطر عليها ما لا يحبه الله ، أو يطهرونها بالتوبة من النجاسات التى باشروها.
والإنسان لا يسلم من المعاصى ناسيا أو عامدا ، فيجب عليه أن يتوب حتى من الأعمال الصالحة ، لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه ، وقد يغفل الإنسان فى أثناء تأدية الفرائض ونوافل البر فيتوب ويستغفر مما ألم به من النسيان أو الغفلة أثناء العمل أو فى غيره ، والمعصوم رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.
ومن نظر بعين الإيمان فى قوله تعالى : "إن الله يحب: صغر فى عينه كل جهاد فى سبيل الفوز بنيل محبة الله له ، ولم يقل الله : ويحب الطاهرين لأن الملائكة وأنواعهم ليسوا فى جهاد كالإنسان ، وأن محبوبية الله لا تنال إلا بقدر جهاد العبد نفسه ، فمن صبر على القيام بأوامر الله وعلى ترك نواهيه ورضى عن الله وقدره أحبه الله تعالى.

قوله تعالى : ["**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**"(223) "**وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"(224) "**لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**"(225)].

قوله تعالى **"نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ"**
من علم أن حكمة إيجاد الذكر والأنثى هى كثرة النسل لعبادة الله تعالى ، وعرف أن مباشرة الرجل امرأته أمر مرغب فيه ومستحسن ، عمل ما يعنيه عليه من مداعبة وتنوع فى الآتيان ، فأباح الله لنا ذلك ، بأن يأتى الرجل امرأته فى قبلها وهى مضطجعة ، أو ملقاة على ظهرها ، أو على شقها أو على وجهها فى ليل أو نهار ، فى سفر أو حضر ليحصل الشبق ، مبينا أن ذلك كهل لا يكون إلا فى محل أنبات النبات كما بينت لك، فإن الرجل لا

([1]) سورة الحديد آية :4.
([2]) سورة النصر آية : 3.

يحرث أرضا إلا لزرعها ، وهو لا يحرث بطون الأنهار ولا تلال الرمال ولا سطح الصخور ، فكذلك حظر الله علينا أن نأتى امرأة فى غير محل الحرث ، وأباح لنا أن تأتيها حيث شئنا وأنى شئنا.
وقد أشار رسول الله ε إلى هذا المعنى بقوله : "هل رأيتم الحمام" ليعلمنا بأسلوب الحكيم فننظر إلى الحمام وعلم الذكر بالأنثى وكثرة مداعبته لها ومؤانسته ، ونفورها لتستجمع القوة ويحصل موافقة الماءين فيكون ذلك أدعى للعمل ، فأمر تعالى بقوله : "فأتوا حرثكم" أمر للندب بحسب القرينة ، والحرث كناية عن فرج المرأة و "أنى" اسم شرط وضعت للمكان ولكنها تفيد أيضا الزمان وتفيد الهيئات.
وسبحان الرءوف الرحيم الذى لم يترك لنا صغيرة ولا كبيرة إلا بينها ، لنكون على الحال الأجمل المحبوب لحضرته العلية فعلمنا حتى النكاح ، وتعس والله من احتاج إلى غير القرآن وبيانه بسنة رسول الله ε فى أحواله الشخصية أو المعاشية أو المنزلية أو الاجتماعية العامة والخاصة ، وما بلينا بتسلط أعداء الله علينا إلا لوقوعنا فى مخالفة الكتاب والسنة ، ولو أنا رجعنا إلى العمل بهما لأعاد الله لنا المجد الذى كان لسلفنا حيث كان من يستعبدنا اليوم أرقاء يباعون فى أسواقنا ، قال تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ"**[1] نعوذ بالله من مخالفة الكتاب والسنة.

قوله تعالى **"وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ"**
تأويل هذه الآية متصل بما قبلها من الآيات من أول قوله تعالى : **"وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ"** إلى تمام الأسئلة كلها ، ومعنى ذلك أن الله يقول: **"وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ"** العمل بما سألتمونى عنه وبينته لكم فإن عملكم به يكون لكم ذخيرة عند الله فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى : **"وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا"**[2] .
وجائز أن تقول : أن قوله تعالى : **"وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ "** راجع إلى السؤال الأخير وهو قوله تعالى : **"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى"** أى وقدموا لأنفسكم رعاية الآداب التى بينتها لكم فيما يتعلق بالنساء فى محيضهن وغيره، والذى عليه أهل التأويل أن قوله تعالى : **"وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ"** مرتبط بالآيات من أولها.
وجائز أن يكون له اتصال بكل ما سبق من أعمال البر التى يحبها الله ، والتى بينها فى الآيات السابقة عقيدة وعبادة ومعاملة وخلقا ، حيث لا نص يعين أنها متصلة فقط بقوله : **"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ"** وما بعده . . وفى قوله تعالى : "لأنفسكم" حجة على أن فرائض الله وسنن رسوله ε لخيرنا وسعادتنا لأن الله غنى عنا وعن عبادتنا.

قوله تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ"**
تقد تفسير التقوى واختلاف العبادات التى وردت بها ، فقد يقول تعالى: **"اتَّقُوا رَبَّكُمْ"**[3] **"وَاتَّقُوا اللَّهَ"** فقوله : **"اتَّقُوا رَبَّكُمْ"** لمن يدعوهم إلى الإسلام أو للمسلمين الذين يدعوهم سبحانه إلى اجتناب ما يكره ، ولا يقول **"وَاتَّقُوا اللَّهَ"** إلا لأهل الإيمان الذين يحب سبحانه أن يرفعهم من مقام إلى مقام أعلى منه – وفى هذه الآية يرغب الله المؤمنين إلى مجاهدة أنفسهم فيما قد تدعو إليه طباعهم مما لا يليق بأهل العلم بالله تعالى.

فوله تعالى**"وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ"**
أمر الله تعالى بأن يعلموا فلا يحصل منهم السهو ولا النسيان ، الذى ينتج عدم مراقبة يوم الحساب فى كل حال وشأن ، لتصدر أعمالهم فى محاب الله ومراضيه ، فإن المراد من العلم العمل ، والعلم يهتف بالعمل وإلا أرتحل ، ومن لا يعمل بعلمه فالجاهل خير منه.

([1]) سورة الرعد آية : 11.
([2]) سورة المزمل آية : 20.
(3) سورة الحج آية : 1.

وفى هذه الآية أمر فى الجملة بأن تتصور النفس نعيم يوم القيامة وأهوالها على جوهرها ، فيحصل لها يقظة دائمة ، فلا تقدم على عمل إلا إذا علمت أنه ينجيها من عذاب الله تعالى وينيلها ثوابه سبحانه ، لأن علم اليقين بملاقاة الله تعالى يوم القيامة يقتضي العمل الصالح ، ومطلق العلم بها فقط يكون كالسراج الذى يحرق نفسه ويضئ لغيره ، ولا يكون عاملا بعلمه إلا من بلغ علمه اليقين الذى يكون أقوى فى التأثير مما تراه العين وتسمعه الأذن ويذوقه اللسان ، فأن الإنسان بعلمه اليقينى قد يرى السيف يسل على عنقه فيقدم أقدام من لا يخاف بعد الموت ، ليقينه أن الموت حياة باقية وسعادة دائمة.

قوله تعالى **"وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"**
تقدم معنى البشرى ، والله تعالى يأمر فى هذه الآية نبيه بأن يبشر من سألوا فأجيبوا فسارعوا إلى العمل بما يحبه الله تعالى ، فتفضل الله عليهم بالبشرى بالفوز بالجنة وبالنجاة من النار يوم القيامة ، وبالتوفيق والهداية والعناية فى الدنيا "المؤمنين" أى الذين صدقوا الله تعالى ورسوله ε تصديقا مؤيدا بالعمل.

قوله تعالى **"وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ"**
سبب نزول هذه الآية أن أبا بكر رضى الله عنه اقسم على أن لا يصل مسطحا وله رحما به ماسة وأمتنع عن بره باليمين – ومعنى الآية ولا تجعلوا اليمين بالله قوة تمتنعون بها عن البر والتقوى ، فإن الله يحب منكم بر الوالدين وصلة الأرحام ، ورعاية تقواه سبحانه بأن تكفروا عن إيمانكم وتبروا وتصلوا ، وهذه الآية نزلت قبل آية الكفارات ، وقد بينت أن قلوب المؤمنين يجب أن تكون معقودة على الرحمة بجميع الخلائق خصوصا ذوى الأرحام – وإنما تعظم الإيمان بالله تعالى إذا كان متعلق اليمين الامتناع عما يكرهه الله تعالى ، والامتناع عما لم يكن من أعمال البر ، أما اليمين بالله عن الامتناع من عمل البر ، فالله يحب أن يعمل الإنسان البر ويكفر عن اليمين ، وكلمة : "عرضة" فى اللغة يعنى قوة.

قوله تعالى **"أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ"**
البر والتقوى من محاب الله تعالى ، والإصلاح بين الناس من محابه سبحانه ومراضيه ، وهو قيام أهل الإيمان بإصلاح ذات البين بين المسلمين بإزالة الشحناء والسخائم والضغائن من بينهم ، حتى يزول الجفاء ويحل الصفاء ويتعاونون على البر والتقوى.

قوله تعالى **"وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"**
أى أنه سبحانه وتعالى يسمع أقوالكم في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإصلاح بين الناس ، ويعلم تصريف نواياكم وجهودكم وأعمالكم التى تقومون بها لنيل مرضاة الله تعالى وخير أخوانكم المؤمنين – ومعنى : "عليم" أى أنه سبحانه وتعالى يعلم أعمالكم الظاهرة وأعمال قلوبكم ، فيكون جزاؤكم على قدر نواياكم مهما كان العمل ، فإن الذى يريد أن يصلح بين الناس قد يكذب ، فيجازيه الله تعالى على قرد نيته لا على قدر قوله قال ε : "أن الله لا ينظر إلى كل كلام الحكيم ولكنه ينظر إلى همه وهواه".

قوله تعالى **"لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ"**
معلوم أن الإنسان الذى يعتبره الشرع هو من كان له قلب لا يغفل عن الله ولسان ينطق عن قلبه ، قال ε : "المرء بأصغريه قلبه ولسانه".
وقال العربى:
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
قال عليه الصلاة والسلام : "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى" ولما كانت الجوارح المجترحة هي التي تلتقط صور الأحداث ، فقد تنفعل بطبيعة قوتها النزوعية فتتسرع في الحكم قبل الروية والفكر ، فيصدر منها

أقوال وأعمال بطريق العجلة الفطرية ، ثم يرجع الإنسان إلى صوابه فيندم ويتوب قبل الوقوع فيما فيه الحد الشرعى ، وفى ذلك لا أثم عليه فى جميع أعماله حتى لو اعتقد عقيدة ونفذ مقتضاه بحسن نية ، بمعنى أن يكون فى جهاد فيرى من يعتقده عدوا فيقتله فيتبين أنه مسلم وهو فى الميدان فلا شئ عليه ، وكذلك إذا اعتقد أن هذا السائل ماء قراح فأخذ منه حسية فإذا هو خمر فلا أثم عليه.
والأيمان داخلة فى هذه القاعدة وأنواعها أربعة : يمين بر ، ويمين حنث ، ويمين غموس ، ويمين لغو – فالثلاثة الأول ما صدرت بعد الروية والفكر من القلب ، واللغو ما صدر عن عجلة أو غلبة ظن.
فاليمين البر أن يقسم بالله وأن لا يفعل كذا بعد روية – واليمن الحنث أن يقسم أن يفعل مع الروية أيضا – واليمين الغموس أن يفعل الشئ علما به موقنا ويقسم أنه لم يفعل ، أو لم يفعله ويقسم أنه فعله متعمدا.
وحكم البر والحنث أن الرجل إذا ظهر له أن الخير عند الله بفعل ما أقسم أنه لا يفعله ، أو بترك ما أقسم أن يفعله فعل ، أو ترك وكفر عن يمينه.
وأما الغموس فقد قال بعض العلماء يكفر ، والذى عليه الفقهاء أنه سمى غموسا لأنه يغمس صاحبه فى نار جهنم ، وأما اللفظ الذى يصدر من الإنسان مع العجلة بدون روية ، ويكثر فى كلامه من غير أن يتبصر فى الأمر أو لغلبة ظن بحب ما يتصوره كأنه يقسم بقوله : لا والله وبلى والله . أو هذا والله ملك فلان . أو هذا والله هو كذا بتسرع وظهر أن الحقيقة غير ذلك ، فهذا هو اللغو الذى لا يؤاخذ الله عليه.

قوله تعالى **"وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ"**
المؤاخذة من الأخذ ، ولما كان عمل الله تعالى لا يخلو من حكمة تقتضي العدل بمعناه الأكمل ، قال الله تعالى : "لا يؤاخذكم" أى لا يحاسبكم فيكافئكم إلا على عمل تعمدته قلوبكم ، أن خيرا فخير وأن شرا فشر، ولكن لفظ المؤاخذة هنا وضع للجزاء على سوء عمل.
واللغو يراد به هنا كل يمين يكفر عنه ولا يؤاخذ عليه ، والاستدراك هنا بمعنى الاستثناء ، فلا تثبت مؤاخذة الله على نوع من أنواع الإيمان إلا على يمين تعمدت القلوب فيه تقوية الباطل ليبطل حقا ، أو يحق باطلا باليمين ، وهو اليمين الغموس الذى بينته قبل ، لأن هذا اليمين حجة على خبث الطبع ورداءة جوهر النفس حتى تكون نفسا أمارة بالسوء ، لأن النفس المطمئنة والنفس التى هى اللطيفة الروحانية والجوهرة الربانية لا يصدر عنها ولا يكون منها إلا الفضيلة عقيدة وعبادة وعملا وقولا ، ومن تعمد قلبه تقوية الباطل باليمين دل على نجاسة فى نفسه ، ولا طهارة لتلك النفس إلا بالانغماس فى جهنم حتى تتحقق بصدق ما جاءنا به محمد ε .
قوله تعالى **"وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ"**
يغفر ما يشاء من الذنوب فى الدنيا والآخرة بمغفرته سبحانه ، ويمهل أهل المعصية فى الدنيا رحمة بهم ليتوبوا ، أو أستدراجا لهم أعاذنا الله تعالى، ليرتكبوا كبائر الإثم والفواحش ليكونوا من أهل جهنم ، وستر عليهم فى الدنيا بحلمه ، وحلمه على أهل النفوس الأمارة بالسوء فى الدنيا استدارج لهم.

قوله تعالى : [**"لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**(226) **"وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"**(227) **"وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"**(228).]

قوله تعالى **"لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ"**
هذه الآية مرتبطة بالتى قبلها لن السابقة فى أحكام الإيمان ، والايلاء يمين ولكنه خاص بالزوجية ، ولا يكون أيلاء إلا فى حالة غضب الرجل من المرأة وغضب المرأة من الرجل ، فإذا تقاضيا وأقسم بالله أن لا ينكحها أو لا يباشرها فى فرجها ومضى على ذلك أربعة أشهر ، فهى طالق منه.
ومعنى هذه الآية أن الرجل إذا قسم أن لا يباشر زوجته زمن كذا مدة كذا لخير فلا ايلاء فيه ، وأن أقسم على ذلك فى شر فله الرجوع إليها قبل مضى الأربعة أشهر ، فإذا مضى الأربعة اشهر حرمت عليه ووقع الإيلاء.

ودليل ذلك ما ورد أن رجلا أمر زوجته أن ترضع ابن إخيه فقالت له : إنى أخشى الغيلة ، أى أخشى أن تنكحنى وأنا أرضع أثنين فيضرهما ، فإن نكاح الرجل زوجته وهى ترضع سبب فى أمراض المولود إلا إذا احتاط لنفسه فأمرها بالامتناع عن رضاع الولد حتى تطهر ، لأن هذا النكاح يجعل الدم يسرى الثديين ، فإذا أرضع الولد عقب الجماع مباشرة تسمم ، وأكثر أمراض الأطفال من هذا العمل الجاهلى ، فأقسم الرجل ألا يباشرها حتى تفطمهما ، ولما فطمتهما شكر الناس له صنيعه ، فقال له رجل من أهل العلم : أن امرأتك طالق لأن هذا ايلاء ، فرفع الأمر لأمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال : إنما الايلاء فى الغضب لا فى الرضا والخير.
فقوله تعالى : "للذين يؤلون" أى يقسمون أن لا يباشروا نساءهم فى غضب ، ويهجر زوجته أربعة أشهر فهى محرمه عليه ، وأن رجع إليها قبل مضى الأشهر الأربعة كفر عن يمينه ، لقول الله تعالى:

قوله تعالى "**تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ**" وفى تلك الجملة محذوف ملحوظ ، أى امتناع المباشرة أربعة أشهر فإن تمت الأشهر حصل الايلاء وطلقت المرأة.

قوله تعالى "**فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**"
أى عادوا إلى الصفا قبل مضى المدة – "**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**" يستر الذنوب ويتجاوز عن العقوبة عليها "رحيم" أى يبدل تلك الخطايا بحسنات من فضله.

قوله تعالى "**وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"
يعنى بمضى المدة التى عينها الله تعالى أو بإعلان الطلاق للزوجة – "فإن الله سميع عليم" يسمع كلام النفس وخواطر الضمير "عليم" بما يصدر منكم – وفى هذه الآية تحذير لمن وقع فى شئ من ذلك بينه وبين الله تعالى ثم رجع عنه وحاول إظهار غيره ، لأن الله تعالى يحب لنا الخير ويأمرنا به ، ويعلم أن مخالفته الشر المستطير فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى "**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ**"
والمطلقة شرعا هى المرأة المتزوجة المدخول بها ، التى يتعين عليها القيام بتنفيذ هاذ الحكم من الله تعالى ، أما المعقود عليها ولم يدخل بها المخطوبة ولم يعقد عليها فليست لها عدة إذا طلقها الخاطب أو تركها من طلبها لنفسه – وهذا الحكم خاص بمن تحيض – أما مقطوعة الحيض أو التى لم يأتها الحيض أو الحامل أو الأمة فلهن أحكام أخرى ، فتعين أن هذا الحكم خاص بذوات الحيض – وقوله تعالى : "**يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ**" أى يتمتعن عن قبول الخطبة ، وبالأولى العقد حتى يتم ما قدره الله لهن فيكن بائنات ويحل لهن النكاح.
والقرء فى اللغة هو الوقت الذى يكون معتادا فيه حدوث حدث لا يتغير كالمطر والبحر والنبات . فالقرء هو الوقت الذى يزيد فيه النهر ، أو تورق الأشجار أو تنزل فيه الأمطار ، لذلك سمى الحيض النازل للمرأة قرءا أى وقت نزوله.

واختلف العلماء فى القرء فمنهم من قال : أنه الطهر ، ومنهم من قال : أنه الحيض النازل ، وعلى القولين فإن المرأة لا تحل لغير المطلق إلا إذا طهرت من الحيضة الثالثة بالماء ، فلو أن الحيض جف وأحضرت المرأة الماء ودخلت مغتسلها وقل أن تغتسل راجعها زوجها حلت له ، ولو جف الحيض وظنت أن القروء الثلاثة انتهت وعقدت على آخر قبل طهرها بالماء كان العقد باطلا ، وكذلك لو أن الرجل طلقها فى وسط طهر لم يباشرها فيه فعليها أن لا تنكح غيره ، حتى تتم ثلاثة قروء لأن أحكام الله تعالى لها حكم متعددة لا يعلمها إلا الراسخون فى العلم ، والواجب الوقوف عندما تعبدنا به الله تعالى وهو لفظة الظاهر خصوصا فى أحكامه الشرعية ، والذين تأولوا القرء بالحيض وهم كثير من الصحابة والتابعين يقولون : أن لمرآة إذا دخلت فى الحيضة الثالثة لا رجعه لها ولا تحل له ولا يرثها ولا ترثه.

قوله تعالى **"وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ"**
لما كان المحبوب من لإنسان هو صفاته الجميلة ، وللنساء بالأخص العفة والأمانة ، وكانت فطرة بعض الرجال على سوء الخلق وسوء الظن وسرعة الحدة ، أمر مبغوض لكل إنسان وخصوصا للنساء ، وكان بعض النساء يبغضن الأزواج لأسباب توجب فقد الألفة والتآلف ، كانت المرآة إذا ظفرت بطلاقها من زوجها حرصت على أن لا ترجع إليه وتعمل لذلك بقدر طاقتها ، فإذا كانت حاملا أنكرت ذلك لتتخلص منه.
وسبب نزول هذه الآية الشريفة أن المطلقات كن ينكرن الحيض أو الحمل ، أو يثبتن الحيض أو الحمل لأغراض خبيثة ، فحرم الله ذلك على المؤمنات فقال سبحانه : **"وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"**.
فالله سبحانه رحمة بالمؤمنين والمؤمنات وفضلا منه أن يدخلهم الجنة يوم القيامة ويحفظهم من النار ، أشار عليهم بما به صلاح حالهم ومعاشهم ومعادهم وما به دوام الصفاء بقوله "ولا يحل لهن" أى لا يحل للمطلقات أن يكتمن الحيض ولا الحمل لكيد أزواجهن ، ولا أن يثبتن الحيض من غير أن يكون تخلصا من أزواجهن ، ولا يثبتن الحمل وهن لا حمل عندهن لمضارة الزوج ، كما يفعل النسوة الخبثاء فيدعين الحمل بالباطل ليسلين أموال الأزواج فى النفقة عليهن ، وقد تمكث المرأة تدعى الحمل أكثر من مدته وهى مصدقة ولا يخلص زوجها من شرها إلا أن تتزوج غيره فحرم الله كل ذلك.

قوله تعالى **"إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"**
هذه الآية أفزعت قلوب أهل الإيمان ، لأن الله بين فيها أن من خالف أحكامه لا يكون ممن آمن بالله ولا باليوم الآخر ، وذلك لأن مخالفة أحكام الله تجرؤ على الجناب المقدس ، خصوصا إذا وقعت المخالفة من عالم متعمدا من غير رخصة شرعية ، فكان ذلك دليلا على استهانة بأحكام الله ، والمستهين بأحكام الله مرتد وعليه أن يجدد إيمانه بتوبة نصوح لأن الله يقول : **"إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"** يعنى أنه يطالبهن بتلك الأحكام فريضة منه عليهن أن كن مؤمنات بالله واليوم الآخر ، فإذا لم يكن مؤمنات بالله واليوم الآخر فسواء قمن بهذا الواجب أو لم يقمن فإن الشرك الظاهر والخفى يحبط الأعمال ، والله جعل من علامة الإيمان بالله واليوم الآخر المسارعة التى تنفيذ أحكامه سبحانه بصبر ونشاط.

قوله تعالى **"وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا"**
البعل هو الزوج ، أى وأزواجهن الذين طلقوهن أحق برجوعهن إليهم قبل القرء الثالث وقبل ولادة الحمل ، فإن مضى القرء الثالث أو ولد الجنين بانت المرأة من زوجها ، وظهرت الحكمة وهى عدم إرادة الإصلاح فى المعيشة من الطرفين أو من أحدهما لقوله تعالى : "أن أرادوا إصلاحا" لأن هناءة الزوجية فى الإصلاح بينهما ، فإذا تنافرت طباعهما فسد ذات بينهما ، ومفهوم هذه الآية أن الذى يراجع زوجته من غير أن يريد إصلاحها يكون مضارا لزوجته وذلك مالا يأمر الله به عباده.

قوله تعالى **"وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ"**
قدر الله وهو القادر أن يجعل كثرة الإنسان المرادة لله تعالى بوجود النوعين الذكر والأنثى ، وليس عند الله فرق بين الذكر والأنثى من حيث أنهما مخلوقان له سبحانه وتعالى ، ولكنه جل جلاله خص الذكر بنعم عظمى بما جمله به من العقل والقوة والصحة لا تعتريه الأسقام فى كل شهر ، لذلك كلفه بالجهاد وبالدعوة إلى الله ، وفرض عليه كفاية أن يكون أماما وقاضيا وساعيا فى مناكب الأرض ، وتحصيل ما لا بد منه لمعيشته هو ومن تجب عليه نفقتهم من أصوله وفروعه وأهله ، وتلك الخصوصيات لا تمنعه من أن يكون عليه حق لزوجته التى خلقها الله تعالى لتكون أرضا لغراس الإنسان.

قال تعالى : **"ولهن مثل الذى عليهن"** أى مثل ما للزوج ، أى للزوجة على الزوج حقوق لا تقل عما عليها له ، والذى عليها له السمع والطاعة فيما أباحه الشرع وأقره العرف والعادة ، وعليها أن تحفظه فى حضوره وغيابه فى عرضه وماله ووالديه أن احتاجا إليه ، وعليه لها القيام بنفقتها هى وأولادها وإعداد مأوى يأويها وما يناسبها مع اللباس والفراش وتحصينها من أن تحتاج إلى الغير فيما لا بد لها منه مع الاستطاعة.
قوله تعالى : "بالمعروف" أى بالحالة الوسط التى يتعارف عليها أهل عصرهم ، مراعيا فى ذلك حسن المعاشرة التى تطيب بها العشرة ، وهذه الآية الشريفة تبين للزوج أن رجوع المرأة لذمته بعد طلاقها ليس المراد منه المضارة والتشديد ، وإنما المراد منه أن تعيش معه فى سعادة تناسبها وأن يعيش معها فى راحة ، كل يقوم للآخر بما يجب عليه شرعا وعرفا مع الصفاء والوفاء لينالوا عناية الله تعالى وفضله فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى **"وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ"**
الدرجة هى المنزلة . والدرج هو طى الثواب أو قطع المسافة ، والمعنى هنا والله أعلم أن الرجل له منزلة على المرأة ، لأن الرجل هو الذي يدفع الصداق ويقوم بمعاشها ولوازمها ، وله فضل فى الميراث والغنيمة والإمامة وقيادة الجيش فى الجهاد ، وتعليم الناس العلم الذى حصله ، وفى الشهادة وفى العبادة ، لأن المرأة تسقط عنها الصلاة فى الحيض . وكل تلك الحقائق تجعلها ناقصة فى عين الرجل ، لأن الحكمة اقتضت أن كثرة بنى الإنسان بالنوعين معا بل تلك الحقائق تقتضى أن تنزل الزوجة منزلة الأم رحمة وعناية وتثقيفا ومساعدة ، وأنه يجب على الرجال أن يوقفوها عند مستواها الذى يقتضيه نوعها فلا تكلف فوق قوتها ، ولا يعهد إليها بأعمال تقتضي طول البحث وقوة الفكر والصبر وقوة الأعصاب والعضلات ، لأنها إذا أسند إليها شئ من ذلك خارت همتها ودعتها الضرورة إلى التساهل المؤدى إلى خيبة الأمل . . .

لعلك أيها الرجل الخبير تحكم معى بأن المرأة يجب أن تكون فى خدرها ، ومن اقتدر أن يضع النار على البارود فلا يتأثر البارود بالنار أسلم له ان يجعل المرأة تشترك فى الأعمال الفكرية ، وتجلس على كراسي الاشتراك مع الرجال فى أعمالهم ، بل من اقتدر أن يغير طبع حيوان بالتثقيف والتهذيب حتى يجعله ينسى ما فطر عليه ، كما حصل أن رجلا هذب قططا وجعلهن تحمل الشموع ويقفن حول الموائد ، وفى يوم من الأيام حملت القطط الشموع فسقط عليهن جرذ "فأر" فألقين الشموع على الأرض وفررن وراءه ، فاحترق البيت وذعر الجالسون ، فكذلك الذى وضع شدة الشبق فى النساء للرجال ليصبرن على الحمل والوضع والرضاع ، هو الذى وضع الفطرة فى الحيوانات ، والتثقيف والتهذيب والتعليم لا يغير الحقائق عما جبلت عليه.

قوله تعالى **"وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"**
أى قوى قهار فى تنفيذ ما قدره ، حكيم فى وضع أحكامه وأوامره وليس للعقل وأن كمل أن تتجلى له الحقائق التى بها خبر الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ولو كان ذلك لكانت بعثة الرسل عبثا – ولكن العزيز الحكيم هو الذى خلق الإنسان وعلم خيره والوسائل التى بها نجاته وسعادته فى الدنيا والآخرة ، فأنزلها على أنبيائه وأمرهم بتبليغها لعباده ، وكل فئة أو مجتمع خالف أحكام الله تعالى ساهيا أو متعمدا ولم يتب ويرجع إلى الحق خصر الدنيا والآخرة . والدليل القاطع والحجة الدامغة على ذلك ما حصل للمجتمع الإسلامي من تسليط من كانوا مماليك عنده يباعون فى الأسواق عليه ، بمخالفة لأحكام الله وترك العمل بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قولـه تعـالى :[**"الطَّـلَاقُ مَرَّتَـانِ فَإِمْسَـاكٌ بِمَعْـرُوفٍ أَوْ تَسْـرِيحٌ بِإِحْسَـانٍ وَلَا يَحِـلُّ لَكُـمْ أَنْ تَأْخُـذُوا مِمَّـا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِـهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّـالِمُونَ"**(229) **"فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَـهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّـى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"**(230).]

قوله تعالى **"الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ"**
سبب نزول هذه الآية أن أهل الجاهلية وصدرا من الإسلام فى عصر رسول الله ε ، كانوا يطلقون النساء طلاقا مكررا ، حتى إذا قربت نهاية العدة راجعوهن ، وغضب رجل من الأنصار على امرأته فقال لها: لا أقربك ولا تحلين منى ، فقالت : كيف ؟ قال : أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك ثم أطلقك فإذ دنا أجلك راجعتك ، فشكت ذلك إلى النبى ε فأنزل الله تعالى: **"الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ"** وذلك لأن الطلاق فى الجاهلية وفى الصدر الأول من الإسلام لم يكن لوقوعه نهاية ، فحدده الله تحديدا بينا حتى إذا كانت الثانية كان له أن يراجع زوجته ، فإذا كانت الثالثة ملكت نفسها وذلك رحمة من الله تعالى بالمرأة التى يعلم الله منها الضعف وسرعة الانفعال ، فجعل ثلاث طلقات تكفى فى تهذيب أخلاقها وصفاء سريرتها ، فإذا لم تنتج النتيجة المطلوبة تحقق أنها لا تصلح لمعاشرته.
"فأمساك بمعروف" يعنى أن الرجل له أن يطلق امرأته ويراجعها فإذا أحسنت العشرة صافها وإذا لم تحسن طلقها الثانية وراجعها ، فإذا أثرت فيه وفيها وتصافيا كان بها ، وألا طلقها وصارت لا تحل له ولا يحل لها حتى تنكح زوجا آخر ، فترى منا ما يجعلها ترغب فى الأول أو تدوم مع الثانى ، فأن طلقها الثانى فى بالخيار فى الزواج من زوجها الأول أو غيره كما سيأتى بعد.

فقوله تعالى : **"فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ"** يعنى أن الرجل إذا طلق المرة الأولى وراجعها فإن طلقها الثانية فله أن يراجعها فمسكها أن يدوم على عشرتها : **"أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ"** أى الطلاق الثالث من غير مضارة ولا إكراه، بل يدفع لها باقى صداقها ويمنحها نفقتها والمتعة أن كانت لها بإحسان من غير ضرر وعناد ، لأن ذلك الإحسان من شأن أهل الإيمان ، أما أهل النفاق وأهل النفوس الخبيثة فإنهم ينتقمون من النساء ويؤذونهن وذلك من ضعف الإيمان.

قوله تعالى **"وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا"**
سبب نزول هذه الآية الشريفة بسند الإمام ابن جرير الطبرى قال : سئل ابن عباس هل كان للخلع فى الإسلام أصل ؟ فقال : أن أول خلع فى الإسلام لأخت عبد الله بن أبى فإنها أتت رسول الله ε فقالت : "يا رسول الله لا يجمع رأسى ورأسه شئ أبدا – تعنى زوجها – أنى رفعت جانب الخباء فرأيته اقبل فى عدد فإذا هو أشدهم سوادا وأقبحهم وجها . قال زوجها : يا رسول الله أنى أعطيتها أفضل مالى "حديقة" فلتردد على حديقتى . قال ε: ما تقولين ؟ قالت : نعم ، وإن شاء زدته . قال : ففرق بينهما.

وبالسند المتقدم عن عائشة رضى الله عنها ، أن حبيبة بنت سهل زوجة ثابت بن قيس بن شماس ضربها زوجها فكسر بعضها ، فأتت رسول الله ε بعد الصبح ، فدعا رسول الله ε ثابتا فقال : خذ بعض مالها وفارقها . قال أو يصلح ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : فإنى أصدقتها حديقتين وهما بيدها . فقال النبى ε : خذهما وفارقها ، أما تأويل هذه الآية أن الله سبحانه يحرم علينا أخذ ما آتيناه لأزواجنا من صداقهن ومما بقى علينا لهن منه ومن نفقتهن، بل ومما أعطى لهن على سبيل صلح أو غيره.

قوله تعالى "إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ"

استثنى الله من هذا الحكم أن الزوج له أن يأخذ ما أتاه للمرأة ، إن ظن أو تحقق أنها لا تقيم حدود الله معه ، وكذلك للزوجة أن تأخذ ما آتاها الزوج ويفارقها أن ظنت أنه لا يقيم حدود الله معها ، وهذا هو الخلع ، فإن كرهت المرأة الرجل وأبت أن تطيعه ونشزت فا للقاضي أن يحكم عليها برد ما أخذته منه وأن يفرق بينهما.

وإذا كره الرجل المرأة وأبى معاشرتها وأخرجها كارها لها فاللقاضي أن يحكم بدفع مالها من الصداق ومالها عنده وأن يفرق بينهما . قوله تعالى : "ألا أن يخافا" أى ظنا أو تيقنا لأن الظن يحل محل الخوف كما يحل الخوف محل الظن وفى رواية : أن ظنا".

قوله تعالى **"فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ"**

الخطاب لولاة الأمر الذين هم مسئولون عن تنفيذ أحكام الشريعة ، والمعنى أنكم ياولاة الأمر إذا ظننتم أن الزوج والزوجة لا يقيمان حدود الله ، بمخالفة الزوجة زوجها بأن تقول له لا أطأ لك فراشا ولا أطيعك فى أمر ولا أسمع منك قولا ، فيخاف أن يضربها أو يشتمها فيكون ذلك موجبا لغضب الله تعالى وذلك هو الخوف منه ومنها فلا حرج على ولاة الأمر إذا أعادوا للرجل ما أعطاه لها وهو الذى تفتدى به نفسها من زوجها ، وجائز أن يكون الخوف من جهة الزوجة أو الزوج فقط.

قوله تعالى **"تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"**

الإشارة إلى ما تقدم من الأحكام التى هى أحكام الله المنزلة على نبيه محمد ε فيما يتعلق الزوجية ، وهى الحدود الفاصلة بين الحق والباطل ، ومن خالف تلك الأحكام بأن تعداها إلى هواه وحظه : "فأولئك هم الظالمون" والإشارة هنا عائدة إلى من يتعدى حدود الله ، والظالمون هم من ظلموا أنفسهم بمخالفة أحكام الله وقد يعظم الظلم فيكون شركا ، قال سبحانه : " **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**"[1] وبلوغ الظلم إلى حالة تعظيمه هو أن يستهين الإنسان بأحكام الله وينفذ هواه عنادا.

وهذا تهديد من الله للذين يتعدون حدوده فى أحكامه ، ما يتعلق منها بالزوجية وغيرها ، اللهم إلا ما رخصت فيه الشريعة أو دعت إليه الضرورة بدليل قوله تعالى : "**إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**"[2] ومعنى أنها حدود الله الفاصلة بين الحق والباطل ، أن الزوج المؤمن الأولى له أن يكون رحيما فيتجاوز لزوجته عن بعض ماله أو عن كله رغبة فى نيل رضوان الله ، وبذلك قد ينتقم الله منها أن كانت ظالمة له.

قوله تعالى **"فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ"**

هذه الآية مرتبطة بالآيات السابقة من قول تعالى : **"الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ"** أى تطليق الثالثة وهى المذكورة هنا ، ويظهر أنه لا علاقة لها بالآية السالفة ، والمعنى والله أعلم فإن طلقها الثالثة فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره . . ولفظة النكاح صالحة أن تكون العقد أو النكاح بعد العقد ، وفى هذه الآية مدلول – العقد والنكاح – فإن نكحها غيره بالعقد من غير وطء فلا تحل له أو نكحها من غير عقد فلا تحل له.

والذى عليه الأئمة أن النكاح هنا هو العقد والوطء ، عن عائشة رضى الله عنها أن رفاعة القرظى طلق امرأته فبت طلاقها ، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير ، فجاءت للنبى ε فقالت : "يانبى الله إنى كنت عند رفاعة فلطقنى ثلاث تطليقات فتزوجت بعد عبد الرحمن ابن الزبير ، وأنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل الهدبة ، فتبسم رسول الله ε ثم قال لها : لعلك تريدين النكاح ؟ تريدين أن ترجعى إلى رفاعة ، لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك " وهذا الحديث بيان للآية.

([1]) سورة لقمان : 13.

(2) سورة الأنعام : 119.

قوله تعالى **"فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا"**
أى فإن طلقها الزوج الآخر فلا جناح على الأول ولا عليها أن يتراجعا ، لأنها بطلاق الآخر لها بعد النكاح الصحيح جاز للأول أن يتزوجها.

قوله تعالى **"إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ"**
أى أن حل رجوع الزوج الأول لها مشترط فيه أن تكون المرأة تهذيب والرجل تهذب وندما على ما حصل منهما وعزما على إصلاح عشرتهما.

قوله تعالى **"وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"**
أى هذه الأحكام التى يفصلها سبحانه لنا جلية يبينها للعالمين الذين علمهم الله مراده من أحكام ، وهم الذين يسألون فى مثل هذه الحقائق فيشرحوها للناس ، أو هم ولاة الأمر الذين ينفذون أحكام الله إذا رفعت إليهم القضايا . وفى قوله تعالى : **"يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"** أن الإنسان إذا لم يكن عالما بتلك الأسرار وجب عليه أن يسأل من فوقه فى العلم وأن يقلده فيما بينه له من أحكام.

قوله تعالى :[**"وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"**(231) **"وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"**(232).]

قوله تعالى **"وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ"**
هذه الآية وما بعدها عناية من الله تعالى بالزوجات ، لأنه سبحانه وتعالى أمر النساء أن يطعن أزواجهن بما بينه بأمره لهن أن **"يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا"**[1] وذلك من الغيرة عليهن ، أو بما فطرن عليه من المرض فى أول شهر بالحيض ، ومن المرض بالحمل والوضع والرضاع الذى يجعل المرأة لا تطيق مزاولة عمل من أعمال الرجل من تجارة وصناعة وزراعة ومهنة إلا عند الضرورة التى تدعو إذا كانت خالية من الزواج ولا ولى لها ، أو حصل لزوجها ما يمنع عن العلم.
فإذا خرجت المرأة عما فطرها الله عليه وترجلت من غير ضرورة داعية ، وجب على من له الأمر عليها أن يكبح جماحها ، لأن النساء إذا خرجن فترجلن كان ذلك ضررا على المجتمع الإنسانى بفقد النسل ، لأن المرأة لا تستغني عن الوقاع فتضطر أن تخالف الشريعة أن كانت خبيثة النفس ، أو تستعمل ما يمنع الحلم لتعمل علم الرجال فى الأسواق والحقول وتعيش مع زوجها ، وهذا ينذر بخراب المجتمع.

قوله تعالى : **"وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ"**
أى لا تحبسوهن مضارة لهن وذلك بتأخير عدة الزوجة أو بتركها كالمعلقة ، فإن معاملة النساء بتلك المعاملة دليل على خبث النفس وسوء الطبع كما قال تعالى : **"وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ"** أى من يفعل ما حرمه الله من أذية الزوجة فقد ظلم نفسه ، أى أوقعها فيما يقتضى غضب الله عليه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة ، لأن الظلم كما بينت لك هو وضع الشئ فى غير موضعه.

([1]) سورة النور : 31.

وسبب نزول هذه الآية أن رجلا من الأنصار يدعى ثابت بن بشار طلق امرأته حتى انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة فراجعها ثم طلقها ، ففعل ذلك بها حتى مضت تسعة أشهر مضار لها ، فأنزل الله تعالى قوله : **"وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا"** .

قوله تعالى **"وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا"**

يهدد الله تعالى من يهزءون بأوامره سبحانه ونواهية التي بينها مفصلة فيما سبق من هذه الآيات ، خصوصا فى أحكام الطلاق والرجعة التى تربط بها أحوال المعاش والمعاد ، فإن العمل بأوامر الله تعالى وترك نواهيه سبحانه مما تحسن به العشرة فى الدنيا فيعيش الإنسان فى هناءة وصفاء ، وينال به النعيم المقيم يوم القيامة.

وما خالف أوامر الله ووقع فى نواهيه أحد ألا ساءت حاله فى الدنيا وعذب يوم القيامة ، أما فى الدنيا فإنه يعيش حزين القلب مغموما مضيقا عليه فى الرزق ، وأما فى الآخرة فأنه يحرم نعيم الرحمة والإحسان من الله تعالى بسبب سوء معاملته لزوجته أو مضارتها.

قوله تعالى **"وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ"**

الذى أراه أن نعمة الله تعالى علينا هو محمد ε ورسوله الذى أرسله إلينا بالهدى ودين الحق ، وجعله لنا بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذن وسراجا منيرا – وجائز أن نفهم من قوله : **"وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ "** أنها جميع النعم إجمالا ، ثم فصلها بقول تعالى : **"وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ"**.

وان كانت واو العطف هنا تفيد التغاير فتكون نعمته هى محمد ε ، لأنه بين لنا ما أنزله الله علينا فكان ε مثلا أعلى فى قوله وعمله وحاله بمحاب الله تعالى ومراضيه ، وكانت أعماله وأحواله وأقواله أمامنا مما نطيقه بسهولة ، فكان الله تعالى أرسله لنا لنتشبه به تمام التشبه وبذلك نفوز برضوان الله الأكبر قال تعالى : **"وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ"**[1] يعنى أنه تعالى جعله أمامنا بشرا يعمل ما فى طاقة البشر من عبادة بأنواعها ومعاملة بأجملها وبذلك يكون : "وما أنزل عليكم" معطوف على قوله: "نعمت الله" أى : اذكروا ما أنزل عليكم . "من الكتاب والحكمة" أما الكتاب فهو القرآن المجيد ، وأما الحكمة فكلام رسول الله وبيانه بالعمل والحال والقول.

قوله تعالى **"يَعِظُكُمْ بِهِ"**

الموعظة هى بيان الخير والرشد البيان الذى يقبله العقل ويؤيده الشرع . . وكانت موعظته ε بأسلوب الحكيم لأن الله تعالى ألقى عليه محبة منه ، فكان إذا رآه العدو اللدود الذى أقبل ليقتله ε ونظر إلى وجهه وسمع كلامه أحبه بملء قلبه ، وكانت المحبة التى ألقاها سبحانه على موسى لحفظ ذاته من فرعون وجنوده ، ولكن المحبة التى ألقاها سبحانه على رسوله ε لرحمة الخلق من عمار السموات والأرض ، لأن الله تعالى حفظ العالم مما كان قبل ظهره ε من غرق وخسف ومسخ . قال سبحانه : **"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ"**[2].

"وَاتَّقُوا اللَّهَ"

أى خافوا الله مخافة تجعلكم تسارعون إلى تنفيذ أوامره بصبر وسرور ، وتتباعدون عن الوقوع فى معاصية تعظيما وأجلالا له سبحانه ، لأن التقوى عمل من أعمال القلوب يجعل جوهر النفس يتمثل جمال الله وجلاله ورهبته وعظيم نعيمه وشديد عقابه .

([1]) سورة الأنعام : 9.

([2]) سورة الأنفال : 33.

قوله تعالى **"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"**
ذكرى من الله تعالى للمؤمنين الذين لم يبلغوا مقام الإحسان الذى بينه رسول الله ε بقوله بسند الإمام البخارى : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه" فإن أهل الإيمان قد تدعوهم المتقضيات فينسى الرجل منهم واجب الوقت ، وبذلك ينسى الله فى كل حال من أحواله ، وينسى معيته له أينما كان ، فيذكرنا ربنا بهذه الآية الشريفة أن نجاهد أنفسنا استحضارا عند كل رخاء وشدة أنه يعلم حالنا وشئوننا وما تكنه ضمائرنا ، قال ε : "المؤمن فى يمين الله كلما وقع أقامه" فدل ذلك على أن المؤمن ينسى ولكن عناية الله تعالى به تقيمه كلما وقع.
وهذه الآية تدل على ذلك لأن الله يقول : "واعلموا" أى تحققوا "أن الله" أتى بحرف التوكيد تقوية للخبر وهو من الصادق جل جلاله "بكل شئ" من أعمالكم وأقوالكم وأحوالكم ومعاملاتكم "عليم" مطلع عليها إطلاع حيطة بكل جزء من أجزائها لا يخفى عليه شئ ، ومؤمن يراعى فى كل شأن من شئونه أن الله به عليم يجاهد نفسه فى مرضاه الله تعالى.

قوله تعالى :[**"وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"**](232).

سبب نزول هذه الآية الشريفة ما بينته لك أولا من عمل الجاهلية ، وما كان يعمله بعض الناس من مضارة الزوجة بأن يطلقها الطلقة الأولى ويتركها ، حتى إذا قاربت وفاء العدة راجعها ثم طلقها الطلقة الثانية ، فتمضى ستة شهور فإذا قاربت وفاء العدة الثانية راجعها ثم طلقها ، فتمضى ثلاثة شهور أخرى فتكون قد مضت تسعة أشهر فى ضرر ، فحرم الله ذلك على المؤمنين ، ونهانا عن عضل النساء بقوله تعالى : **"وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ "** يريد سبحانه التطليقة الأولى وأردتم مفارقتهن **"فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ "** بتأخير العدة عليهن فإن الله سبحانه يكره أن يضر الرجل زوجته.
وهذا الخطاب يجوز أن يكون للأزواج أو للأولياء المرأة ، فإن كان الخطاب للزوج فيكون المعنى : **فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ** أن ينكحن أزواجهن الذين قدر الله لهم الزواج منهن ، وأن كان الخطاب لأولياء المرأة فالمعنى يكون : فإذا بلغن أجلهن أى قاربن إنهاء العدة وقبل انتهائها وحصول البينونة طلب الرجل إرجاع زوجته إليه فعلى الوالد أو الولى أن لا يمنعها عن الرجوع للزوج.

قوله تعالى **"إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ"**
المراد هنا إذا تراضى الرجال والنساء ، والتراضى وقوع الرضا من كل جانب منهم عن الآخر . وقوله : "بالمعروف" اى بما يتعارفه أهل العقل والحلم مما لا يخالف شرعا ولا عقلا ولا عرفا.

قوله تعالى **"ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"**
الإشارة عائدة إلى ما بين الله من أحكام الطلاق والرجعة والخلع، والكاف هنا لخطاب رسول ε و "يوعظ به" ألا لا تؤثر الموعظة به إلا على من كان يؤمن بالله أى يقر بوحدانيته ويصدق بربوبيته ويسارع إلى القيام بأوامره والبعد عن نواهية سبحانه وتعالى "واليوم الآخر" أي يصدق بيوم البعث وبما فيه من النعيم المقيم لمن أتعظ بأحكام الله وعمل بها ، وبالعذاب الأليم الذى يكون فيه من خالف أوامر الله تعالى ووقع فى نواهيه.

قوله تعالى **"ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ"**
يعنى أزكى لنفوسكم وأطهر لخلاقكم ، ومعلوم أن تزكية النفوس وتطهير الأخلاق من محاب الله ومراضيه سبحانه . قال تعالى **"قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا"** [1] .

([1]) سورة الشمس : 9.

قوله تعالى **"وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"**
معنى ذلك أن الله تعالى يعلم ما قدره من الخير فى حسن العشرة ، ومن فضله بالبركات على من عامل الله تعالى فى زوجته ورحمها وأحسن إليها، وعاملت المرأة زوجها بالآداب الشرعية والمحبة والمحافظة على عرضه وماله ووالديه ، فإن ذلك يجعلها منعمة بخيرى الدنيا والآخرة **"وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"** ما قدره الله فى المستقبل ، فالأولى لكم أن تحافظوا على المسارعة إلى ما أماركم الله به والبعد عما نهاكم عنه.

قوله تعالى :[**"وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"**](233)

قوله تعالى **"وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ "**
يبين الله لنا فى الآيات السابقة أحكام الخلع وما يتعلق بذلك . ولما كان الكلام السابق متعلقا بالطلاق ناسب أن يبين لنا أحكام الزوجة التى تلد لزوجها بعد بينونتها قال تعالى : **"وَالْوَالِدَاتُ "** اللاتى ولدن أولادا من زوج طلقهن بتاتا **"يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ "** والأمر هنا للندب لا للوجوب يعنى أنهن أولى برضاع أولادهن من سواهن ، وجعل لنهاية الرضاع مدة عينها سبحانه بقوله **"حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ "** والحولان سنتان هلاليتان.
وفى قوله **"كَامِلَيْنِ "** خروج عن التجوز ، لأن الإنسان قد يكون فى شهر الحجة والمحرم فيقول مضى على عامان وهذا هو الغالب فى لغة العرب ، فقوله تعالى "كاملين" أراد به أنهما أربعة وعشرون شهرا "لمن أراد أن يتم الرضاعة" ، والمراد بـ "من" هنا الزوج والزوجة إذا رضيا على أن يرضع الولد من أمه حولين كاملين من غير منازعة فيكونان أتما نهاية الرضاع ، وإذا أراد الوالد أن يفطم الوالد قبل العامين ولم ترضى الأم فلا . . وكذلك إذا أرادت الأم أن تفطمه قل الحولين ولم يرضى الوالد فلا.
ويترتب على هذا الحكم أحكام ، أن رضاع المولود بعد تمام الحولين من غير أمه لا يحرم عليه ما يحرمه الرضاع ، فإنه فى الحولين يتركب العظم واللحم ، فإذا أتم الولد الحولين كانت قد تمت عظامه ولحمه ، ورضاع الأم المطلقة لولدها ليس بواجب عليها لقوله تعالى : **"وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ"** [1] "وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف" فإذا فهمنا قوله تعالى : **" وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا"** [2] مع قوله سبحانه : "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين" يظهر لنا أن أقل الحمل ستة أشهر ، وأكثره ثلاثون شهرا، ومن مكث فى بطن أمه ثلاثون شهرا كان لا رضاعة له لأنه إذا نزل نزل كامل الأسنان كامل العظم واللحم فلا يحتاج إلى رضاع.
وقد انتهى بحث الأطباء إلى حقيقة . هى أن الأولاد إذا فطموا قبل السنتين كثرت الوفيات منهم ، وإذا رضعوا السنتين قلت الوفيات منهم ، لأن أعضاءهم الباطنية تكون غير قابلة للأغذية النباتية وغيرها . فثبت بتلك النظرية أن الله هو الذى خلق الإنسان وعلم منافعه ومضاره.
ولذلك فالشريعة تأبى على المرأة أن تفطم ولدها قبل سنتين إذا لم يرضى والده بذلك – وكذلك تمنع الشريعة فطام المولود إذا أراد الوالد وأبت والدته ، وعلى الوالى أن ينفذ أحكام الشريعة رغم أنف المخالف منهما رعاية للمصلحة التى حكم الله بها فى كمال السنتين فى الرضاعة ، أوجب الله تعالى على الوالد أن يقوم بالواجب للوالدة من مطعم ومشرب ومسكن وفراش.

([1]) سورة الطلاق آية : 6 – 7.
([2]) سورة الأحقاف آية : 15.

قوله تعالى **"بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا"**
"بِالْمَعْرُوفِ" أى بالمتعارف بين الناس بالنسبة لهما ما لم يوقع فى ضرر أحدهما . **"لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا"** بيان لقوله تعالى : **"بِالْمَعْرُوفِ"** اى أن الله تعالى أوجب على الرجل أن ينفق على المرأة بقدره وقدرها فلا يجعل يده مغلولة إلى عنقه ، ولا مبسوطة كل البسط فيرهق نفسه ، أو يضر المرأة التى جبست نفسها لترضع ولده ، فتكون مخالفة حكم الله فى عدم كمال رضاع الحولين سببا فى استطراق الأمراض الى الطفل فيموت بقدر الله الذى قدره عليه سبحانه ، فإن الله جل جلاله يعلم خفيات الضمائر وخواطر القلوب فيعامل خلقه بقدر تصريف نواياهم ، فلا يكلفهم إلا بقدر ما تسعه حالتهم المالية والخلقية ، اى ما تطيق أن تقوم به من غير ظلم أو تظالم.
يقول العربى "يسعنى هذا الأمر وأنا أسعه" أى أطيقه وأقدر عليه ، وقد سأل تلميذ شيخه فقال : انصحني ، فقال : لتسعك الشريعة أى أن الشريعة أباحت ما لابد لك منه وأكمل فلا تتعداها إلى هواك وطبعك.

قوله تعالى **"لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ"**
يعلم الله ما فى النفوس من الحرص والطمع والنزوع إلى السوء، وذلك يكون جليا خصوصا إذا طلق الرجل امرأته وكانت حاملا منه ، فإن الطلاق لا يكون إلا بعد معارضة تفضى إلى عناد وشحناء ، فيحب كل واحد منهما أن ينتقم من الآخر ، فقد تدعو تلك الشحناء إلى أن الرجل يضر المرأة فيأخذ ولده ليرضعه عند غيرها ، وفى ذلك من الضرر مالا يجهله أحد ، أو أن المرأة لبغضها فى والد ما ولدت ، تأبى أن ترضعه فتلزمه بأخذه ، أو أن الرجل يأبى أن يقوم لها بما يلزمها بحالة ترضيها فيحصل النزاع والشقاق ، وفى ذلك ضرر على الوالد والولد والوالدة وذلك يكرهه الله منهما ، لأن الرحمة إذا انتزعت من قلب إنسان فهو شقى.
ورجل تنزع الرحمة من قلبه بالنسبة لولده ، أو امرأة تنزع الرحمة من قلبها بالنسبة لولدها ، تقوم الحجة على أنهما ليسا من بنى الإنسان ، فالله تعالى يحذرنا من أن يقع الرجل أو المرأة فى مثل هذا الضرر الذى به غضب الله تعالى على من يتعمده منهما وهى أبلغ موعظة من الله لنا – وكل إنسان تعمد هذا يجب أن يسقط من رتبة الإنسانية لإقامته الحجة على نفسه أنه وحش كاسر لا يرحم أبنه – وكذلك كل امرأة تعمدت هذا وجب على الناس بغضها لأن امرأة لا ترحم ولدها الطفل كيف ترحم غيره وقد خلقت للرحمة؟

قوله تعالى **"وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ"**
أى أن الله تعالى أوجب على المولود له رزق المرأة التى ولدت إلى إتمام الرضاع ، فإن مات الوالد فعلى وارث المولود له ما على والده ، فإن لم يكن له وارث من أخ أو عم أو خال فعلى العصبة العاقلة ، وذلك واجب شرعى أوجبه الله تعالى ،إذا لم يقوموا به الزمهم القاضى بالقيام به قهرا ، لأن أرحم الراحمين يحب الرحمة من عباده ، ويكلف أهل الإيمان أن يتشبهوا بأخلاقه العلية جل جلاله ، وأفضل ما يحب الله تعالى أن يتقرب به العبد هو الرحمة خصوصا فيما يتعلق بالمرأة الحامل فى أيام حملها ورضاعها.
وهنا يظهر جليا من قوله تعالى : "الوارث" أن الوارثة لا تكلف بشئ من هذا ، ومن نظر إلى أحكام الله بعين الإيمان يعلم مقدار ما كلف به الرجل وما رفع من التكاليف عن النساء لعلمه سبحانه ، وتعالى بما ركبه فيهن من القوى التى لها قدر معلوم فى حمل الواجبات وطوقها ، ومن نظر بعين الرأس المجردة التى تكذب على الإنسان فى غالب أحوالها أنزل منزلة الرجل فقال : أن المرأة تأخذ من الميراث بمقدار الرجل وأن عليها واجبا للمجتمع تقوم به كما يقوم به الرجل لجهله بما كونت منه من الحقائق ، وليس للعقل وأن كمل ولا للجسم وأن صح أن ينظر إلى أحكام الله بتلك العين الكليلة.

قوله تعالى **"فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا"**
جعل الله الحولين الكاملين نهاية رضاع المولود للزوجة المطلقة ، واوجب لها على المولود له رزقها وكسوتها بالمعروف ، ثم جعل الفصال أى فطام الولد قبل الحولين أن طلبا ذلك بتراض وتشاور بينهما مباحا لهما لا جناح عليهما فيه ، وبذلك لو أرادت المرأة فطام الولد قبل الحولين الكاملين ولم يرضى الوالد فليس لها أن تفطمه ، كما لو أراد فطامه قبلها فليس له أن يقهرها ، والجناح على من يريد ذلك منفردا.

قوله تعالى **"وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ"**
بعد أن فصل الله لنا ما يتعلق بوجوب النفقة على الوالد لمرضعة ولده المطلقة منه ، بين لنا ما يقع فى حالة الحرج من المرأة إذا أبت أن ترضع ولدها بعد أن قام الوالد بما يجب عليه لرضاع أبنه ، فإذا أبت المرأة أن ترضع فعلى الرجل أن يقيم مرضعة أخرى ، وكذلك أذا أبى الرجل على أن ترضع ولده منه لقلة لبنها أو لمرضها أو لفقد عنايتها بالمولود ورضيت بذلك فلا جناح على الرجل ولا على المرأة إذا ما أرادا الخير للمولود.
وفى قوله تعالى : **"سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ"** يعنى إذا سلمتم الوالدة أو المرضعة ما تعهدتم به لها بحالة ترضى بحسب العرف والعادة – وجائز أن يكون المعنى : إذا حصل التسليم من المولود له والوالدة المطلقة أو المرضعة بالقدر الذى عيناه.

قوله تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"**
"وَاتَّقُوا اللَّهَ" أى خافوا الله فى تنفيذ أحكامه التى فرضها عليكم فى الرضاع والاسترضاع ،لا فرق بين المولود له والوالدة المطلقة والمسترضعة ، ثم أزعج الله قلوبهم بقوله جلت ذاته : "وأعلموا" أى تيقنوا **"أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"** مؤكدا الجملة بحرف التوكيد و **"بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"** أى بكل عمل تعملونه بقلوبكم أو بجوارحكم مبصر أو ذو أبصار.

قوله تعالى : [**"وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"**](234).

قوله تعالى **"وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا"**
بين الله تعالى فى هذا الموضوع كل البيان رحمة بالمسلمين بقوله سبحانه : **""وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ"** أى يموتون ، ثم ترك الخبر عنهم لأن الحكم يتعلق بعدة الأيم فترك الخبر عن الذين يتوفون منكم ، وساق الخبر إلى ما أنزلت هذه الآية لأجله وهو بيان عدة المرأة التى مات عنها زوجها "الأيم".
وترك الأخبار عن المبتدءات إذا قصد بها بيان أحكام تتعلق بغيرها مستفيض فى لغة العرب ، وقوله تعالى : **"يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ"** أى يمتنعن عن الزواج مدة مقررة غير مدة المطلقة ، فإنه سبحانه جعل عدة المطلقة ثلاثة قروء، لأن المطلقة لا يتعرض لها الرجل إلا بعد زمن طويل فلا تحتاج إلى احتياط ، ولكن التى مات زوجها يكثر التعرض لها ، ولما كانت علامات الحمل هى فقد الحيض وألم الوحم ، وعلامة عدم الحمل نزول الحيض ، وتلك العلامات كلها لا تؤكد ان المرأة حامل أو غير حامل ، وكان المقام يقتضي الاحتياط فقد تكون المرأة حاملا وتحيض ، وهذا الحيض يكون من الدم الزائد على نمو الجنين ، وقد لا تكون حاملا ويحتبس الدم لمرض أو لفقر دم ، فيكون الحكم عليها بأنها حامل أو غير حامل مضرة عليها وعلى حملها فى المستقبل ، فبين الله تلك المدة ليكون الحكم على المرأة بحمل أو بغير حمل صحيحا.
فإن الروح تنفخ فى الجنين بعد أربعة أشهر فجعلها الله تعالى مدة للمتوفى زوجها ، وزاد عليها عشرة أيام لتنكشف الحقيقة وتكون علامة الحمل الحقيقية حركة الجنين فى البطن ، ومن فقه هذا المعنى أمكنه أن يقهر عقله ليسجد لأحكام الله العليم الخبير بما خلق وما أقره فى الأرحام.
ولنا أن نحكم على من يستظهر على أحكام الله بحسب هواه المعلل وعقله المستعبد للهوى بأنه مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، وعلينا أن نتبرأ من كل قول يخالف أحكام الله تعالى بما أمرنا الله تعالى وبما علمناه من أحكامه ليعلمنا سبحانه ما لم نكن نعلم.

قوله تعالى **"فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"**
معنى هذه الآية أن الله تعالى بين لنا حكم المتوفى عنها زوجها بعد أن تتم الأربعة أشهر والعشرة أيام ، أن الأولياء لا يؤاخذهم الله تعالى بشئ إذا طلبت المرأة ان تتزوج بمن ترضاه لنفسها ويرضاها لنفسه ، لن الجاهلية الأولى كانت المرأة إذا مات زوجها تمكث حولا كاملا فى حزن وشظف عيش لا تخرج ولا تتزين ، وعند المجوس فى الهند والصين ، وغيرهما إذا مات الرجل أحرقوه بالنار فتدخل المرأة فى النار فتحترق وهى عوائدهم التى كانت تكون دينا لازما ، فبين الله تعالى لنا ما يحبه من أحكامه التى محت البدع والضلالة والهوى ، وأظهرت أن المحبوب المعبود العلى العظيم الذى لا يموت ولا يغيب هو الله تعالى ، وأن الحكم له لا شريك له.
فإذا أتمت المرأة ما وقته الله لها بعد وفاة زوجها فلها الخيار فى أن تتزوج من تشاء ،وعلى الولى أو الوالد أن لا يعضلها ، وقد ورد فى الإنجيل عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال : من تزوج المطلقة فقد زنى . وجائز أن يكون قال : من تزوج بمن مات عنها زوجها فقد زنى ، وفى ذلك من التضييق على خلق الله ما فيه ، وفى قوله تعالى : "فعلن فى أنفسهن" من الصبر على وفاء العدة ومن اختيار زوج و "بالمعروف" أى بما يتعارفه أهل التقوى والعقل من أن يكون كفؤا صالحا.

قوله تعالى :[**"وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ"**](235).

أخبرتك فى تفسير الآية السابقة أن المرأة التى مات عنها زوجها يرحمها الله تعالى ، فيلقى عليها محبة منه عناية بها ، أما المرأة المطلقة فإنها لم تطلق من زوجها إلا بسبب فى الغالب يكون فساد الأخلاق منها ، فقد يكره الرجل أن يخطبوها لأنفسهم مؤاخذة من الله تعالى لها.
ولما كان ذلك بين الله تعالى لنا بيانا شافيا فى هذا الموضوع ، فلم يجعل حرجا على رجل مالت نفسه إلى زواج المتوفى عنها زوجها ، وكان الناس قبل هذه الآية يرون أنفسهم بهذه النية أخطاوا ، وكان بعضهم يتكلم مع المرأة بكلام بتجمل فيه ثم يرجع نادما ، فرفع الله تعالى الحرج عن المؤمنين فى العزم على زواج من مات زوجها ، وأمرنا سبحانه أن لا نواعدهن سرا أى نكاحا ، وأباح لنا ما عدا ذلك من التعريض بقولنا لها أن فيك لبقية فاحفظى صحتك لمستقبلك ، وله أن يقول أنى أحب أن أتزوج ولى غرض فى زوجة غير مصرح ، ومثل هذا قد رفع الله الحرج عنه بدليل قوله تعالى : **"إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا"**.
والقول المعروف هو الذى لا يخجل المرأة ولا يجعلها تنسى ما أوجبه الله عليها من العدة بما يثير عاطفة الأنوثة . والعليم الخبير الذى فطر الخلق أعلم بخيرهم ، والواجب علينا رعاية أحكام الله والتأدب بأدابة التى أدبنا بها ولا نتعدى حدوده سبحانه فنفسد على المرأة عدتها الشرعية ، فإن النساء إذا نبهن إلى ما فطرن عليه قد يلقين بأنفسهن إلى ما لا يرضاه الله ، ويكون سبب ذلك كلام من رغب فى نكاحها فصرح بما حظر الله عليه فيه . وخير المجاهدين من جاهد نفسه وقهر حظه وهواه فى رعاية أحكام الله تعالى.

قوله تعالى **"وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ"**
وقت للمرأة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام حجة لوفائها ، حتى تحل للزواج بعد تحققها من سلامتها من الحمل ، وبينت لك حكمة توقيت الله العدة بتلك المدة حتى تحصل الحيطة ، لأن نزول دم الحيض أو حبس الحيض قد يكونان لمرض أو لنزول الدم الزائد عن نمو الجنين ، فلا يكونان حجة على وجود حمل فى وقت حرج مثل هذا ، والحجة على وجود الحمل هى حركة الجنين ، ولا تكون تلك الحركة إلا بعد أربعة أشهر وعشرة أيام ، لأن الروح إنما تنفخ فى الجنين بعد تلك المدة عادة استقرائية، وقد بين الله للرجل الذى يحب أن ينكح المرأة التى توفى عنها زوجها ما يلزمه من الأدب فى معاملة الله تعالى ومعاملة الأيم ، وأباح لنا التعريض وفيه مندوحة وإباحة شرعية ، وذكرت لك مقدار ما يباح له من الكلام فى مثل هذه المواضيع.

وحرم الله تعالى علينا التصريح للمرأة بأن يقول لها : أتزوجك أو أنكحك ، وهى العدة – ويكون تحريم العزم على عقدة النكاح أولى بأن يتفق معها على زواجها وتعقد العقد قبل تمام العدة – ومعلوم أن الشريعة جعلت العقد نكاحا وجعلت الوطء نكاحا ، فلو أن الرجل عقد العقد عليها وأمتنع من الوطء حتى تتم المرأة العدة فذلك مخالفة الشرع وتعد لحدود الله تعالى ، والواجب علينا أن نقف عند حدود الله ، وأهل الورع لا يتجاوزون الوسط ولا يقتربون من الحد ، فقد يترك الرجل أبوابا كثيرة من المباح فضلا عن ترك المحرم محافظة على الورع.

قوله تعالى **"حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ"**

من الورع أن لا يعقد الرجل عقدة النكاح إلا عبد مضى العدة وزيادة ، و"حتى" تفيد دخول الغاية بخلاف "الى" فقد يقول الإنسان سافرت حتى البيت يعنى دخلته ،ويقال سافرت إلى البيت أى قاربته . ومعنى "يبلغ الكتاب أجله" أى تنتهى المدة التى يحرم على الرجل أن ينكح المرأة الأيم فيها.

قوله تعالى **"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ"**

يأمرنا الله تعالى أن نعلم علم اليقين الذى يقتضي المراقبة ، لا علم السماع والفهم أنه سبحانه وتعالى يعلم خفيات أنفسنا وخواطر قلوبنا وأخفى من ذلك . **"فَاحْذَرُوهُ"** أى خافوه أن تخالفوا أحكامه فإنه شديد الغيرة لأحكامه . ومن رحمة الله بنا أن يكرر الموعظة لنا بعد كل حكم لنسارع إلى محابة ومراضيه ، وفى ذلك دليل على عناية بنا جماعة المسلمين.

قوله تعالى**"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ"**

فى هذه الآية السابقة بيان حكم الله تعالى فيما يتعلق برغبة الرجل فى زواج الأيم، وفى طى هذا الحكم تهديد عنيف يتذوقه أهل القلوب لأن قوله تعالى: **"وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا"** نهى للتحريم . وقوله تعالى قبلها : **"وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ"** إلى قوله تعالى : "ولكن" ليس هذا استدراكا فى المعنى ، ولكنه كناية عن استثناء متصل.

فإن قوله تعالى : **"عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ"** فى طيها فاذكروهن إلا مواعدتهن سرا فحذف ما يعلم ، وكأن المستثنى متصل لأنه نهى عن ذكرهن بأن يخاطبهن بخطاب يفيد نكاحها فاستثناه سبحانه من أنواع الذكر، وكل ذلك تهديد من الله تعالى ، والأولى الورع فى مثل هذا الموضع حفظا لعفاف المرأة ومحافظة على حدود الله تعالى.

وقد قال رجل من أهل البيت لأيم : أنت تعلمين قرابتى من رسول الله ومكانتى فى الأمة ، فقالت يا أبن رسول الله أتواعدنى سرا وأنا فى عدتى ؟ فقال : لا ، إنما أتكلم معك كلاما أباحه الله لى ، إذا تقرر ذلك فقوله تعالى : **"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ"** أى يستر سيئاتكم بستره الجميل حتى تأتوا يوم القيامة وليس عليكم شاهد بذنب.

وأنى قدمت لك أن الغفر والكفر والستر والجن الفاظ مترادفة لمعنى واحد ، ولا تتفاوت إلا من حيث ما تدل عليه ، فالغفر ستر العيوب ، والجن ستر الحقائق ، والكفر ستر الحق ، والستر كلمة مطلقة لكل تلك المعانى . فمعنى غفور أى ستار . "حليم" أى يمهل عباده فلا يعاجلهم بالعقوبة وحلمه أمهال للفيئة إلى الله وإلى التوبة النصوح.

وأما صبره على الكفار والمنافقين فاستدراج منه لهم أعاذنا الله من مكره واستدراجه أعداءه ، قال سبحانه : **"سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ*وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ"**[1] وذكر هذين الاسمين فى ختام تلك الآية على أن الله وسع للمسلمين لعلمه سبحانه وتعالى فطرهم ونزوع أنفسهم إلى ما تقتضيه الشهوة فى حل ، ولم ينزل الله شريعة إلا لمصالح عباده رحمة بهم وشفقة عليهم كما قال على عليه السلام : "اللهم أنت لى كما أحب فاجعلني لك كما تحب".

([1]) سورة القلم : 44 – 45.

قوله تعالى : [**"لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ"**(236) **"وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"**(237)].

قوله تعالى **"لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً"**
رفع الله الحرج عن المؤمنين فى موضوع حيوي اجتماعي ، وهو أن المؤمن إذا تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأما أن يكون فرض لها فريضة أى قدر صداقها أولا – وسيأتي بيان بذلك – فإن لم يكن قدر صداقها فعليه أن يمتعها ، وليس عليه أن يدفع لها نصف صداق المثل إلا إذا كان نصف صداق المثل يساوى المتعة ، فإن كان أقل منها دفع لها نصف صداق المثل ، وأقل صداق المثل عشرة دراهم فيكون النصف خمسة دراهم ، فإن كان النصف أقل من المتعة دفع النصف فقط أى خمسة دراهم وأن كان أكثر دفع المتعة فقط والمتعة شرعا جلباب وملحفة وخمار أو بدل ذلك خادم "ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة" أى لم تنكحوهن فإن : "تمسوهن" كناية عن الوطء لأن الله تعالى منزه ، وكل كلامه فى الأحكام على أسلوبه الحكيم جل جلاله ، فيكفى عند ذكر الهنات [1] "أو تفرضوا لهن فريضة" أى تقدروا لهن صداقا كما سيبين فى الآية الآتية.

قوله تعالى **"وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ"**
جعل الأمر موكلا إلى من يلى تلك الأقضية من أمام أو وكيله أو والد أو ولي ، والمعنى أنه ينظر فى حال الرجال والمرأة ويكون النظر مراعى فيه حال الرجل أكثر لأن الله يقول : **"لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"**[2] فيفرض على الرجل ما لا يرهقه وللمرأة ما يناسبها.

قوله تعالى **"مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ"**
أى متعوهن متاعا وهذا المتاع يكون بالمتعارف شرعا عادة وعرفا ، وفى قوله : "متاعا" دلالة على وجوب المتعة للمطلقة قبل الوطء إذا لم يفرض لها فريضة ، وأن قال بعض العلماء أن تلك المتعة مندوبة لأنه قال : "حقا على المحسنين" فلو قال قائل أنى مسلم ولست بمحسن فليس عليه حق، ولكن هذا اليس هو المراد من كلام الله تعالى ، فمراده وهو أعلم به جل جلاله حث أهل الخشية من الله على العمل بما يحبه سبحانه.
وقد دخل رجل من التابعين على آخر فقال : أنى أريد أن أزوجك ابنتى ، فقال : قبلتها بكذا وكذا دينار ، فلما توجه الرجل إلى بيته أرسل له كل الصداق وأرسل معه طلاقها فسئل الرجل عن ذلك فقال : عرض على أبنته فكرهت أن أرده وعينت صداقها ، فقيل له : لم أعطيتها كل الصداق ولها نصفه ؟ فقال : أحب أن أكون متفضلا ، والله تعالى يحب ان يكون المؤمن على أحسن الأحوال التى يرضاها ، وتقدم لك تعريف المحسن.

قوله تعالى **"وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"**
معنى هذه الآية أن الله تعالى يبين لنا النوع الثانى من المطلقات من قبل المساس أى الوطء بعد أن عين لها الزوج صداقها ، فأخبرنا الله تعالى خبرا يفيد الوجوب أن ندفع لهن نصف ما فرضنا ، وبذلك تكون المرأة لا عدة لها ولا متعة "إلا أن يعفون" أى تعفوا المرأة فتقول أن الرجل لم يمسنى ولم يتمتع بى فلا آخذ منه مالا "أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح" أى يعفو وليها ، والفرق بين قولك النسوة يعفون والرجال يعفون أن الواو فى الأولى لم الفعل والنون ضمير النسوة فاعل ، والواو فى الثانية ضمير الرجل فاعل والنون حرف لعلامة الإعراب ، ففى قوله : "إلا أن يعفون" اى النسوة.

([1]) الهنات : ما يستقبح ذكره.
([2]) سورة البقرة : 286.

وهنا رغبنا الله تعالى فى العفو لأنه أقرب للصفاء وأدعى للمحبة ، وأن كان طلاق الرجل المرأة قبل الدخول بها مما يشينها فى نظر الرجل ، لأنه وصمها بذلك وصمة تعيبها ، إلا أنها إذا عفت أقامت الحجة أنها لا تعبأ بالرجال وأنها ليست معيبة ،وفى ذلك دلالة على الفضيلة ، ولذلك يقول تعالى: "وأن تعفوا أقرب للتقوى" أى أقرب لتقوى الله تعالى والتماس رحمته.

"ولا تنسوا الفضل بينكم" ينهانا ربنا عن نسيان الفضل وهو يتعلق بالأخلاق والمعاملات ، والفضل فى المعاملات أن تؤثر أخاك على نفسك ،وفى الأخلاق أن تحسن إلى من اساء إليك وأن تصل من قطعك وتعطى من حرمك ، وفضل الله تعالى يهبه لمن تجمل بالفضل ، كما أن رحمة الله يهبها لمن يرحم خلقه : "أن الله بما تعملون بصير" كرر الله تلك المواعظ التى تجذب قلوب أهل الإيمان إلى الفوز برضوان الله الأكبر سبحانه لتكون له الحجة البالغة ، وهو سبحانه يوفق إلى ما يحبه من يحبه ، ويقيم فيما يكره من يبغضه.

فأهل الإيمان بالله تكون لهم تلك الآيات كشراب طهور يدار عليهم بفضل الله تعالى ، وأهل النفاق والكفر بالله تكون تلك الأحكام ظلمة فى قلوبهم وشجى فى حلوقهم ووقرا فى آذانهم ، حفظنا الله من قضاء السوء.

ومعنى قوله **: "إن الله بما تعملون بصير"** أتى بحرف التوكيد لتقوية الخبر مع قوته ، لأن خبر الصادق جل جلاله تنزعج منه العقول فتسلم له سبحانه تسليما . وقوله : "بما تعملون بصير" أى بأعمال قلوبكم وجوارحكم مبصر أو ذو بصر ، وتلك حكمة الله التى يقيم بها الحجة على أعدائه ، ويجعلها جواذب رحمة وحنان لأوليائه.

وقوله تعالى :[**"حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"**(238) **"فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** (239) **"وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**"(240) **"وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**"(241) **"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**"(242)].

قوله تعالى **"حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"**

بين الله تعالى فى الصلاة بيانا فصل فيه ما يجب على القلب وعلى الجوارح من طهارة وحركات وسكنات ، وعلى اللسان من تلاوة ، وعلى العبد من محافظة عليها ، حتى قامت الحجة أن أحب عمل إلى الله تعالى الصلاة ، قال سبحانه فى هذه الآية : **"حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى"** . وقال فى أية المؤمنين : **"الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ"**[1] وفى آية أخرى : **"وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ"**[2] وقال : **"إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا"**[3] وقال سبحانه : **"الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ"**[4] وقال : **"إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ"**[5] مما يدل على أن العلامة التى تميز المؤمن من الكافر هى الصلاة.

حتى إذا رأينا رجلا يمشى على الهواء أو يقول يا سماء أمطرى فتمطر ، ويا أرض أيبسى فتيبس أو يمشى على الماء وهو تارك للصلاة نقول هذا عبد مبعد مستدرج من الله تعالى.

لأن الله جمع فى الصلاة عبادة كل المخلوقات ، فجعل قيامنا فى الصلاة صفوفا كقيام الملائكة الحافين بالعرش ، وجعل تسبيحنا وتحميدنا فيها تسبيح عمار السموات من الأرواح الطاهرة ،وجعل ركوعنا فيها ذلا لله تعالى ونزولا إلى درجة الحيوانات وتواضعا للرب جل جلاله ، وجعل سجودنا فيها نزولا إلى رتبة النباتات حيث جعلنا نضع جباهنا على التراب كالنباتات ، وجعل جلوسنا للتشهد كرتبة الجمادات من الروابى والتلال والجبال ، فكأننا نشكر الله تعالى فى الصلاة بقدر كل رتبة تنزلا وخضوعا لعظمته ، وذلا لعزته ، وخشوعا لكبريائه . وبها ذكر

([1]) سورة المؤمنون : 2.

(2) سورة المؤمنون : 9.

(3) سورة النساء : 103.

(4) سورة الأنفال : 3.

(5) سورة الجمعة : 9.

العبودة الخالصة حتى نتمثل أننا وقفنا بين يدى الله وركعنا وسجدنا بين يديه ، فيحصل المثول له فيشهد العبد وجه ربه ويأنس برضاه سبحانه.
وإذا كانت الصلاة جماع شكر كل العوالم وعبادتها كانت الركن الأعظم للدين ، وتارك الصلاة مارق من الدين .
ومن تأول فى الصلاة تأويلا بحسب عقله وهواه ضل هواه ، فإن رسول الله ε أثنى الله على أهل معيته أكمل الثناء وأجمل فقال : **"وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا"**[1] فمن ترك الصلاة قطع عن معية رسول الله ε بتاتا ، وليس بيننا وبين ربنا نسب إلا نسب العبودية لجلاله العلى ، ولا يتحقق هذا النسب العلى الذى هو أشرف الأنساب الحقيقية ومعناه إلا فى الصلاة.
أننا في الصيام نتشبه بالصمدية ، وفى الزكاة نتشبه بالمعطى ، وفى الجهاد نتشبه بالقهار ، وفى الحج نتشبه بالقوى النافع ، ولا تتحقق بمقام العبد الكامل إلا فى الصلاة لأنها تجمله بالذل ظاهرا وباطنا وهو مقامنا بالنسبة لله تعالى ، وركعة واحدة من عارف بالله متحقق بهذا النسب خير من عبادة العوالم كلها ألف سنة ، قال سبحانه : **"وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ"**[2] ومعلوم السجود وضع أشرف أعضائك على التراب ، فإذا تحققت بمعنى الصلاة ظهر لك جليا ، وناداك : أنت نعم العبد لى . وهو جل جلاله نعم الرب لنا جميعا ودعاء العارف الكامل : "اللهم أنت لي نعم الرب فاجعلني لك نعم العبد" ولا يثبت هذا النسب إلا فى الصلاة.
ومسلم يصلى غافلا عن هذه المعانى أو يترك الصلاة مرة واحدة نافس الربوبية ومنافسة الربوبية شرك ظاهر ، والمسلم يسلك لينال خيرى الدنيا والآخرة فكيف يسلك ليهلك فى الدنيا والآخرة ؟
فقوله سبحانه : **"حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ"** أى سارعوا إلى القيام بها فى أوقاتها بشروطها وفرائضها وسننها وآدابها من غير تهاون فى تأديتها ، فإن لله حقا فى الليل لا يقبله بالنهار ، وحقا فى النهار لا يقبله بالليل ، وأنه المنعم عليك فجعلك أنسانا سويا وسخر لك السموات السبع ، والأرضين وما فيهن بفضله ، يجب عليك أن تحافظ على تأدية أوامره بمراقبة يخشع فيها قلبك ، وتحضر بها روحك ، ويتأدب بها عقلك ، ويخضع بها جسمك ، فإن الله غنى عنك وعن حركاتك وسكناتك ، وأول ما يعذب عليه العبد يوم القيامة هو الجهل فإن العبد الذى لا يحصل العلم النافع لا يقبل الله له عملا.
قوله تعالى **"وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى"** هى من الصلوات ولكن خصها بعد الصلوات لأنها تأتى فى أوقات الغفلة ، فقد يتساهل الناس عن تأديتها ، فأمرنا الله تعالى بالعناية بها وترك الاشتغال بما لا ينفع ولا يضر فى الدنيا والاخرة والذى عليه العلماء بالله أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر لما ورد عن عائشة رضى الله عنها أنها قرأت : **"حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَّلَاةِ العَصَّر"** ولأن العصر هو الصلاة الوسطى لن قبله فريضتان وبعده فريضتان ، ولأنه يأتى في وقت يكون الناس فيه قد ملوا العلم وأرادوا أن يستريحوا فتكون شواغلهم كثيرة ، والمؤمن الكامل يحقر كل عمل يشغله عن الصلاة ، وهى الصلاة التى ذكرها الله فى القرآن عن سليمان بقوله : **"إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ"**[3] .
وقال بعضهم : هى الظهر ، وقال آخرون : صلاة الصبح لما فيها من الجهاد للنفس .
ولكن ورد عن رسول الله ε فى يوم الخندق أنه قال : "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم نارا".
قوله تعالى **"وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"** يأمرنا ربنا جل جلاله بالقيام له سبحانه فى نوايانا وهممنا ولممنا فى حال الصلاة ، فإن القيام يراد به القيام الحسى والمعنوى ، فيوجب علينا سبحانه أن نجعل كل ذلك خالصا لله تعالى بدليل قوله تعالى : "قانتين" فإن لفظة القنوت تدل على معان كثيرة منها طول القيام وطول الركوع والسجود ، ومنها خشوع القلب وخنوع الجوارح والسكوت عن الكلام المخالف لآداب الصلاة ، والدعاء قبل الركوع فى الركعة الثانية من الصبح أو بعد الرفع منه.

([1]) سورة الفتح : 29.
(2) سورة العلق : 19.
([3]) سورة ص : 32.

وعلى العموم فالقنوت هو القيام بالصلاة على الوجه الأكمل ، ولا تكون الصلاة كاملة ويكون المصلى قانتا لله إلا إذا راعى فى صلاته لمن يصلى فاستحضر أو حضر ، وبمن يصلى فالتجأ واعتمد ، وبمن يتشبه فى صلاته حتى يكون أشبه برسول الله ε فى الخشوع فى الصلاة قلبا وجسما . وبذلك يكون قام لله فى الصلاة قانتا.
وفى قوله : "لله قانتين" أسرار عالية تجعل العبد فى الصلاة يواجه ربه العلى ، ويسمع منه التلبية والإجابة عند القراءة والتسبيح وعند قراءة القرآن ، وهذه هى الصلاة التى إذا صلاها العبد مرة واحدة فى العمر رجحت عبادة العالم أجمع مدة الدهر ،لأن العبد المؤمن إذا صلى صلى بكل الحقائق التى جمعها الله فيه وهى ثمانى عشرة حقيقة ، ثمان منها باطنة ، وإذا صلي العبد المسلم بكل حقائقه كانت صلاته فوق صلاة العالم أجمع لأن الله خلق العوالم كلها بيد واحدة وهو خلقه الله باليدين : **"وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"**[1].

قوله تعالى **"فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا"**
بعد أن أمرنا بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى ، بين لنا كيف نحافظ على الصلوات فى وقت الفزع الأكبر عند التحام الصفين فقال سبحانه : "فان خفتم" من عدو غاصب او متغلب وقمتم لدفعة مجاهدين فى سبيل الله فى وقت الملحمة حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى رجالا أو ركبانا ، يعنى أن الرجل منكم وهو ماش فى الملحمة يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين ، بالإيماء إلا أنه يخفض السجود أكثر من الركوع موليا وجهه حيث كان الشأن الداعى ، ففى قوله : "رجالا" أى مشاة و "ركبانا" أى على ظهور الخيل ، أو وقوفا خلف المدافع وف أيديكم السيوف او المسكتات "البنادق" أو الرماح والحراب ، فإن ذلك العمل فى هذه الحال بينه لنا سبحانه أنه صلاة الخوف فى شدة الفزع ، وهى صلاة لا ينقصها إلا حضور القلب مع الله بتصريف النية – ثم اليقين الأكبر بأن الصلاة أكبر من هذه الأهوال الشديدة ، فلا يسوغ لمسلم تركها بحال من الأحوال ولو كان القتل المسلط على الرقاب ، وذلك لعظم حق الله فى الصلاة.
وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ
وفى قوله : "فإذا أمنتم" صورتان ، الأولى : النصرة على الأعداء ونيل الغنيمة والأسرى ، وفى هذه يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل الفزع فنصلى كما علمنا الله جل جلاله فى حالة الأمن – والصورة الثانية ولم يذكرها المفسرون : "فإذا أمنتم" أى رجع العدو عنكم إلى مرابطه . فإن الواجب شرعا أن يقسم الأمام الجيش قسمين ، قسم يقف على جبهة الجهاد وقسم ينصرف معه فيقيم بهم الصلاة ، فان كانت صلاة ثنائية كصلاة السفر صلى بالقوم ركعة وأطال الوقوف حتى يتم من خلفه الركعة الثنية ويسلموا وينصرفوا إلى الواقفين على جبهة الجهاد ، فيدركون الإمام واقفا فيصلون معه ركعة ويسلم الإمام ثم يقومون فيأتون بالثانية أفذاذا ، وان كانت الصلاة رباعية صلى الإمام بالنصف الأول ركعتين ووقف مطيلا الوقوف حتى يتموا الركعتين الثانيتين وينصرفوا إلى المرابطين على الصف فى الجبهة ، فيسرعون إلى الإمام ويدركون معه الركعتين الثانيتين له الأوليتين لهم عملا والأخيرتين قولا فإذا سلم الإمام وقفوا فاتوا بالركعتين الأوليتين قولا والأخيرتين عملا وسلموا ، فان كانت الحكمة تقضى اتصالهم بأخوانهم المرابطين أسرعوا لهم ، وإن لم يكن ثم فزع استراحوا إلى أن تنتهى المدة المعينة لهم عرفا.
وقد بين الله لنا فى هذه الآية صلاة الفزع الأكبر فى الملحمة ، وبين تلك الصورة الثانية بآية أخرى بقوله تعالى : **"وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ"**[2].
ومعنى قوله تعالى : **" فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"** أى فأقيموا الصلاة المكتوبة عليكم فى أوقات الأمن مراعين ما علمكموه الله وبينه سبحانه بالقول وبينه رسول الله ε بالعمل والحال.
وجائز أن يكون : **"فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"** أى سبحوه وقدسوه وكبروه ونزهوه واشكروا له ، لأن تلك الأحكام التى بينها لنا مما لا بد منه فى حياتنا الاجتماعية والمنزلة والقروية والمدنية ، وفى المجتمع

([1]) سورة سبأ : 13.
([2]) سورة النساء : 102.

الإسلامى العام مما يتعلق بالعبادة والمعاملة والخلاق نعم عظمى توجب علينا شكره على نعمه ، إلا أننى تأولت لك الآية بما تأولته أولا للمناسبة – أما قوله : "فإذا أمنتم فاذكروا الله" فكلمة عامة تصدق على إقامة الصلاة وعلى الذكر وعلى الشكر وعلى الدعاء ، لأن كل هذا ذكر الله تعالى.
"ما لم تكونوا تعلمون" من أحكامه التى تقضتيها الأحداث الزمنية ، ومثل هذه الحادثة التى حدثت فى واقعة الأحزاب ، حتى آخر رسول الله ε هو وأصحابه صلاة العصر إلى أن غابت الشمس وحصل لعمر وغيره من الحزن ما حصل بسبب شغلهم بالملحمة عن صلاة العصر ، وفى رواية : "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلا العصر" وفى الحديث : "الصلاة الوسطى هى صلاة العصر" فهذه الرواية تعين أن الصلاة الوسطى ليست صلاة العصر بدليل عطف العصر عليها والعطف يقتضى التغاير ، وعلى هذا تكون الصلاة الوسطى هى الصبح لأنها بين النهار والليل ، أو الظهر لأنها فى وقت الهاجرة ، وهذا الوقت أصعب ما يكون على المصلى فى وقت الهاجرة فكان المسارع إلى صلاته فى وقته مجاهدا ، والذى عليه أهل العلم كما بينت لك هو أن الصلاة الوسطى صلاة العصر لأنها وسط بين الصبح والظهر والمغرب والعشاء.

قوله تعالى **"وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ"**
هذه الآية الشريفة منسوخة بالآية قبلها ، ولا يرد علينا أن نكون الآية السابقة ناسخة للاحقة ، لأن هذا التأخير والتقديم ليس بحسب النزول ولكنه ترتيب آخر ، فإن الآية السابقة متأخرة فى النزول ، وهذه سابقة فى النزول ، وكون الآية السابقة سبقتها لا يمنع تأخيرها فى الحقيقة ، وكان فى الناس إذا مات الرجل وجب على زوجته أن تمكث فى بيته حولا كاملا ينفق عليها ، حتى نزلت آية الميراث فلم يبق لها متعة ، فلما أنزل الله تعيين مدة أربعة أشهر وعشرة أيام للأيم ، ولها بعد ذلك أن تتزين للنكاح فتنكح من تشاء.
وإن كان بعض العلماء قال : إن هذه الآية منسوخة بالتى قبلها الا فى المتعة فقط ، وللمرأة أن تمكث فى دار زوجها حولا كاملا ، فإن التعيين هنا للندب ويكون بوصية الزوج ، ولما لم يكون ثم إثارة من علم عن رسول اللهε ولا عن أصحابه وجب علينا أن نقف موقف الأدب.
ورواية نصب "وصية" على تقدير فعل محذوف أى يوصى وصية وعلى رواية رفعها أى فحكمها وصية فتكون خبرا لمبتدأ مقدر ملحوظ ، "متاعا إلى الحول" أى يتمتعن متاعا من طعام ولباس وفراش ومأوى إلى الحول وقدمت لك أن :"إلى" تدل على قرب الغاية و "حتى" تفيد الدخول فيها فقوله تعالى: "إلى الحول" أى إلى نهاية الحول فقط حتى يقرب الحول الثانى ، وفى هذه رحمة من الله تعالى بالأيم "غير اخراج" يعنى أن ولى الميت لا يقهرها على الخروج من بيت زوجها الميت حتى تتم الحول ، ولها بعد ذلك ما تشاء من التزين للرجال ، وهذه الآية هى التى دعت بعض أهل العلم إلى الحكم بأنها لم تنسخ فقالوا : أن المراد إذا أقامت فى بيت زوجها المتوفى أربعة أشهر وعشرة أيام ولم تتزين فلا حرج على الولى ، وإذا أقامت السنة ولم تخرج فلها الخيار.
وقد جاءت امرأة إلى رسول الله ε وشكت إليه رمدا بعينها وقالت: أن زوجى توفى وأنا بحاجة إلى أن أطع الكحل فى عينى افأكتحل؟ وكانت لم تمض أربعة أشهر وعشرة أيام فقال : "إنكن كنتن تمكثن حولا كاملا أفلا تمكثين أربعة أشهر وعشرة أيام" فانصرفت المرأة حزينة وذلك لأن الكحل من زينة النساء ، وفى الماء والملح شفاء للعين من الرمد.
قوله تعالى **"فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ"**
كان المشدد عليه فى الإقامة سبة أشهر وعشرون يوما ، فإذا خرجت المرأة بعدها فلا جناح على الولى ولا على غيره إذا تركها وشأنها ، ولها أن تتزين لتنكح – وقد بينت لك أن هذه الآية نسختها التى قبلها.

قوله تعالى **"وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"**
أى شديد الانتقام فى جزاء من خالف أحكامه "حكيم" اى لا يتعدى فى أحكامه العدالة والحكمة.

قوله تعالى **"وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ"**
يعنى أن الله سبحانه أوجب المتاع مدة الثلاثة القروء ، من أكل وشرب ومسكن ولباس وخادم بحسب ما يناسب المرأة والرجل "حقا على المتقين" أى واجبا أوجبه الله على المتقين ، ولذلك فإن بعض العلماء لا يرى النفقة على المرأة واجبة وإنما يراها مندوبة ، والذى عليه العلماء أن قوله تعالى : "حقا على المتقين " حث منه سبحانه على القيام بالنفقة ووصف من يقوم بها بالتقوى ، ليسارع أهل الإسلام الى الفوز بنيل ذلك المقام عند الله تعالى.
وقد آتت امرأة إلى قاض من قضاة السلف فطلبت أن يقضى لها بنفقتها ، فحضر زوجها فقال له :ان كنت تقيا فمتعها كما أمر الله المتقين فألزمه القاضى ، والإجماع أن متعة الأيم واجبة شرعا ومتعة المطلقة فيها الخلاف لأن الله تعالى قال فى الأيم : "على المحسنين" وهنا قال : "على المتقين". .

قوله تعالى **"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"**
اى كما بين الله لكم أحكامه فى الآيات السابقة يبين لكم أحكامه فى هذه الآيات "لعلكم تعقلون" أى لتعقلوا لأن لعل وعسى فى القرآن بمعنى اللام وليست بمعنى الترجى ولا التوقع ، لأن الذى يترجى ويتوقع لا يعلم الغيب.
و"تعقلون" اى أحكام الله عنه سبحانه ، وليس العاقل من يعقل شئون الكون ولكنه من يعقل عن الله تعالى ، لأن العقل الذى يعقل شئون الكون عقل مكتسب يزيد بالتجارب والدربة والهم والفرح ، فإن الذى اكتسب عقلا كونيا إذا اصابه الغم أو أصابه الفرح أضاع تلك القوة ،أما العقل الذى يعقل عنه سبحانه فهو من الله تعالى لا يتأثر بالأحداث الزمنية لاستغراقه فى تعقل آيات الله وبيناته واحتقار الكون وشئونه.

قوله تعالى :[**"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ"**(243) **"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"**(244) **"مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"**(245)].

قوله تعالى **"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ"**
استفهام لتقري الحقيقة ، سواء رآها بعينه او رآها باليقين عن خبر الصادق جل جلاله "خرجوا من ديارهم" أى انتقلوا منها ، خوفا من الموت الذى كانوا يتوقعه بسبب ما حل بلبلد من الطاعون.
عن ابن جرير بسنده عن السدى قال فى تأويل هذه الآية . كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط وقع بها الطاعون ، فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية بعيدة منها ، فهلك من بقى فى القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم عدد كبير ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا : أصحابنا هؤلاء كانوا احزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم ، فوقع فى قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفا ، حتى نزلوا فى ذلك المكان وهو واد فسيح ، فناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتوا ، فماتوا حتى إذا هلكوا بقيت أجسادهم ، فمر بهم نبى يقال له حزقيل فلما رآهم وقف عليهم ، فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه ، فأوحى الله إليه يا حزقيل أتريد أن أريك فيهم كيف أحييهم ؟ وإنما كان تفكره أن تعجب من قدرة الله عليم فقال : نعم.
فقيل له ناد فنادى : يا أيتها العظام أن الله يأمرك أن تجتمعى ، فجعلت ، تطير العظام بعضها الى بعض حتى كانت أجساد من عظام ، ثم أوحى الله إليه أن ناد : يا أيتها العظام أن الله يأمرك أن تكتسى لحما ، فاكتست لحما ودما وثيابها التى ماتت فيها وهى عليها : ثم قيل له : ناد ، فنادى : يا أيتها الأجساد أن الله يأمرك أن تقومى ، فقاموا يقولون سبحانك ربنا وبحمدك لا إله لا أنت ، فرجعوا الى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى ، فسحنة الموتى على وجوهم ، لا يلبسون توبا لا عاد كنفا رثا مثل الكفن حتى ماتوا لاجالهم لتى كتبت لهم..

وبسنده أيضا قال : قال عطاء الخراسانى فى معنى قوله تعالى : "الم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت" كانوا ثلاثة آلاف . وبسنده عن ابن عباس قال : كانوا أربعين ألفا أو ثمانية آلاف . قوله تعالى : "وهم ألوف" أى جمع ألف أو وهم مؤتلفون "حذر الموت" اى خوف الموت الذى كانوا يتوقعونه مما حل ببلدهم من الطاعون.

قوله تعالى **"فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ"**

اى قدر موتهم فى وقت واحد قال سبحانه : **"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"**[1] . قوله تعالى : "ثم أحياهم" ى وبعد أن بنوا عليهم حائطا ونخرت عظامهم وتمزقت جلودهم أحياهم الله كما بينت لك فيما سبق من الرواية عن نبى الله حزقيل.

قوله تعالى **"إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ"**

لا يحصيه العادون ومن ذلك يقدر الله الأحداث المعجزة للبشر ، من الأمانة والاحياء فى نفس الوقت عبرة لمن شهد تلك الأحداث ، ولمن علمها بخير الصادق سبحانه وتعالى ، ليقوى الإيمان فى قلوب المؤمنين فيسارعون إلى الجهاد فى سبيل الله أعلاء لكلمته وتجديدا لسنة نبيه ε . وقوله تعالى : "على الناس" أى الذين سبقت لهم منه الحسنى ممن قبلوا ما أنزله الله على رسوله ε .

قوله تعالى **"وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ"**

وهم الذين لم تسبق لهم من الله تعالى ممن فطروا على كفران النعمة.

قوله تعالى **"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"**

يأمر الله المؤمنين من لدن محمد رسولε إلى يوم القيامة بأن يقاتلوا من أوجب الله علينا قتالهم ، بعد ان بين الله لنا ما بين من أنه سبحانه بيده ملكوت السموات والأرض يحيى من يشاء ويميت من يشاء بقتال وبغير قتال ، وأنه يحيى من أماته بدليل قوله تعالى : **"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"**[2].

فمن قدر له النسيئة فى عمره وخاض ميدان القتال خرج سالما ظافرا ، ومن قدر عليه الموت وحصن نفسه بكل الحصون مات رغم أنفه ، وأمر الله لنا بالقتال لحكم علمها من علمها وجهلها من جهلها ، منها أن يكون قتلنا فى سبيل الله حياة باقية عند ربنا يرزقنا الله بها فى كل نفس رزقا جديدا ، وذلك الرزق هو ما يتفضل به الله علينا من جزاء أعمال من جاهدناهم فأسلموا وعملوا بالكتاب والسنة ، أو من جاهدناهم فسلم الناس من ظلمهم ومن التظالم لهم . ويرزقنا الله تعالى عوضا عما بذلنا فى سبيله خيرا مما كان لنا فيمنحنا نفخة القدس التى نشهد بها جماله فى الأفق الأعلى ، وروحا عالية ملكوتية نشهد بها جلى آياته فى الأفق المبين بل وتكون أرواحنا فى عليين.

فإذا كان يوم البعث جعل الله لنا أجنحة نطير بها إلى معقد صدق عند مليك مقتدر ، وهذه العطايا بعض ما يتفضل الله به على من استشهد بين الصفين حاضر القلب مسارعا إلى لقاء ربه فرحا بمفارقة كون الفساد.

"فى سبيل الله" أى فى دين الله ليكون الدين كله لله ، فيتحقق المجاهد بنيل تلك المنزلة العالية بأن يكون مجاهدا بقلبه وجسمه ومال وأهله ، لا يخطر على قلبه رغبة فى غنيمة أو سيادة أو فخر ورياء أو لعزة حزبية، بل تكون كل قواه التى كون منها مستغرقة فيها وجبه وجهه إليه من نيل رضوان الله الأكبر ، وإعلاء كلمته ، وتجديد سنة نبيه محمد ε .

"واعلموا أن الله سميع عليم" أى تيقنوا أن الله يسمع كلام أنفسكم من خواطرها وواردتها ونواياها فلا يخفى عليه شئ ، عليم سبحانه وتعالى بما تكنه قلوبكم وما تجترحه جوارحكم ، وعليم سبحانه بهممكم وعزائمكم ، فيتفضل على من سمع وأطاع بإحسانه فى الدنيا بالنصرة والغنيمة ، وفى الآخرة بالفوز بالنعيم المقيم فى جوار

([1]) سورة يس: 82.

([2]) سورة يس : 82.

الأخيار ، أو يجازى مخالف أوامر الله تعالى ووقع فى نواهيه بالخذلان والخيبة فى الدنيا ، وبالعذاب الأليم يوم القيامة.

قوله تعالى **"مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً"**

القرض أن يعطى الرجل لغيره مالا يملكه ليرده إليه إذا طلبه منه ، والقرض أيضا ما يقدمه الإنسان من حسن وسيئ . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يتفضل ببيان ما ننال به الفوز العظيم فى الدنيا والآخرة ، فيقول سبحانه : "من ذا الذى يقرض الله" اى يعين المجاهدين فيقوى الضعيف ويعين الفقير ويجاهد بنفسه فيكون أقرض الله تعالى ماله ونفسه كما قال سبحانه وتعالى : **"إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا"**[1] وكما قال سبحانه وتعالى : **"مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ"**[2].

وهذه الآية بشرى من الله تعالى لنا لأنه سبحانه جعل ما نقدمه فى سبيله قرض اقترضه منا ، ليكشف عنا به الحجاب ويشهدنا ما يجعلنا به عنده سبحانه وتعالى عندية ننال بها ما نشاء كما قال تعالى : **"لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ"**[3].

قوله تعالى **"فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً"**

وهذه الآيات بشرى تطمئن بها قلوب المؤمنين ، فإن وعد الله حق وقد وعد الله تعالى أن يضاعف لنا نفقاتنا على الجهاد أضعافا كثيرة ، فنحرص على أن نبذل أنفسنا وكل ما لنا . والضعف أن ينال الإنسان ضعف ما أنفق فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف سر قوله تعالى : **"وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ"**[4].

والقرض الحسن أن يقد ماله ونفسه لربه ليفوز من الله بخير لا يعلمه إلا هو سبحانه كما ورد : "مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".

وقد ورد عن أبى الدحداح رضى الله عنه أنه أتى إلى رسول الله ε فقال : "يا رسول الله أن الله يستقرضنا فقال : نعم يا ابا الدحداح ، فقال : أقرضت برى حائطا لى فيها ستمائة نخلة" وقال بعض العلماء : أن الله أعطاكم الدنيا قرضا وسألكموها قرضا فإن أعطيتموها طيبة بها أنفسكم ضاعف لكم ما بين الحسنة إلى عشرة إلى سبعمائة إلى أكثر من ذلك.

قوله تعالى **"وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"**

أنزل الله هذه الآية الشريفة حثا لعباده المؤمنين الذين بسط لهم الرزق أن يبسطوا أيديهم لتقوية الضعفاء وإغاثة الفقراء ليجاهدوا فى سبيل الله ، ووعدهم الله تعالى على ذلك أن يمنحهم أضعاف أضعاف ما أنفقوه مما يعجز العقل عن حصره.

والقبض هو تضييق الرزق ، والبسط هو توسيعه ، والله سبحانه وتعالى يضيق الرزق على من ابتلاه بتكليفه بالجهاد ندبا مع فقده ليعلم مقدار صبره وابتلى أهل اليسار بما ابتلاهم من بسط الرزق ليعلم مقدار ثقتهم بالله ، ومسارعتهم إلى النفقة فى سبيله.

وفى تلك الآية برهان على وحد الأفعال وهى من مشاهد التوحيد العلية التى لا يتذوقها إلا أهل العلم بالله سبحانه وتعالى – وفى هذه الآية ما يدل على أن المسلمين منهم الفقير والغنى والضعيف ، فطلب الله تعالى من الغنىأن يعين الفقير بماله ، وأن يقوى الضعيف بما يلزمه بظهر يحمله أو آلة حرب يدافع بها ، ليكون كل مسلم مجاهدا فى سبيل الله بما آتاه الله ويكون المسلم القوى الغنى مجاهدا بماله ونفسه.

"وإليه ترجعون" أى وإلى الله الذى أمركم ونهاكم ووعدكم وبسط الرزق وقبضه ترجعون يوم القيامة ، فيحسن إلى المحسن ويعذب المسيء ، وجائز أن تكون الهاء فى "إليه" عائدة إلى التراب أى ترجعون إليه كما بدأكم منه.

([1]) سورة التوبة : 111.

(2) سورة البقرة : 261.

(3) سورة الشورى : 22.

(4) سورة البقرة : 261.

قوله تعالى :[**"أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ"**(246) **"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"**(247)].

قوله تعالى "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"

معنى ذلك أن الله تعالى يقول لرسولهع : ألم تر بما علمناك إلى الملأ أى إلى الأشراف من بنى إسرائيل فى زمان شمويل أو صموئيل الذى أقامه الله نبيا بينهم بعد أن قام أنبياء قبله من بعد موسى ، فاتبعوا الأول منهم وهو يوشع فى زمن موسى وبعده ثم اتبعوا الثاني وخالفوا مع الثالث ، ثم أتبعوا وأنكروا مع الرابع وغيروا وبدلوا ، إلى أن كان النبى الذي يخبرنا الله عنه حيث كان العمالقة قهروا بنى إسرائيل واستعبدوهم لمخالفتهم سنة موسى وأحكام التوراة.

وهذه سنة الله فى خلقه ، أن من خالفوا سنة أنبيائه وعصوا أوامره يسلط عليهم أعداءه وأعداءهم حتى يستعبدوهم ، كما فعل المسلمون فى هذا العصر من مخالفة سنة رسول الله وترك العمل بكتاب الله فسلط عليهم فى كل بقاع الأرض أعداءه الإفرنج وأعداءه المجوس وغيرهم ، وصار المسلمون لخروجهم عن الكتاب والسنة شيعا كما حصل لبنى إسرائيل.

فما ظلم العمالقة بنى إسرائيل ولم يكن لهم ملك يجمع كلمتهم قالوا لنبيهم ما أخبرنا الله به ، أجعل لنا ملكا يجمع الله به كلمتنا ونطيعه فى جهاد عدونا – وكأنه سألهم : لم تريدون ذلك ؟ فقالوا : "نقاتل فى سبيل الله" وعلى هذه الرواية يكون الفعل مجزوما فى جواب الأمر المتقدم ، وعلى رواية نقاتل يكون مرفوعا صفة لـ "ملكا"

قوله تعالى **"قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا"**

يعنى أن شمويل قال لهم إنكم قوم لا توفون بالعهد ولا تقومون بما أوجبه الله عليكم ، ولا أراكم أهلا لأن يكون لكم ملك تقاتلون معه ، وهاذ معنى قوله **"هَلْ عَسَيْتُمْ "** أى هل قاربتم **"إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ "** والشرط هنا فاصل بين عسى وخبرها – **"أَلَّا تُقَاتِلُوا"** أى أنكم لا تقاتلون ، و "أن" هنا جائز ذكرها وحذفها وهى من اللغة الفصحى . وقد ورد إظهارها وحذفها كثيرا فى القرآن.

قوله تعالى **"قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا"**

أى ومن يمنعنا أن نقاتل أعداءنا الذين أخرجونا من ديارنا وأبنائنا وأموالنا وسفكوا دماءنا ؟ والواو فى قوله : "وقد" للحال ليقيموا الحجة للنبى عليه السلام على شديد رغبتهم فى قتل الأعداء.

قوله تعالى **"فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ"**

جواب لسؤال مقدر سائلا سأل ، فماذا كان حالهم بعد أن كتب عليهم القتال ؟ فأجاب بهذه الآية وتقدمت عن تأخير فأنهم إنما تأخروا عن القتال بعد أن رأوا الأعداء وكثرتهم وامتحنهم الله بالنهر كما سيأتي.

قوله تعالى **"تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ"**

بعد أن راوا أعداءهم وابتلاهم الله بالنهر كما سيأتي رجعوا على أعقابهم ، ووفى بعهدهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا بعدد أهل بدر الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى **"وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ"**

يعنى أن الله تعالى سبق فى علمه القديم أن هؤلاء القوم يظلمون أنفسهم بمخالفة أوامر الله ، وإنما ما يبتليهم به من تسليط العدو والنقص من الثمرات والأموال الباعث على الرجوع إلى الله والعكوف على عبادته لم ينالوا منه خيرا ، وهو الجاذب القوى للإقبال على الله لأن المصائب تذكر القلوب وتجعل الإنسان يسارع إلى تحمل مشاق العبادة والعمل بالكتاب والسنة رغبة فى نيل خيري الدنيا والآخرة.

ولو فكر العاقل قليلا لعلم أن الله جعل جنة فى الدنيا ، فإذا دخل العبد نار الدنيا وحفظ حدود الله تعالى جعله من أهل الجنة فى الدنيا والآخرة، وإذا دخل العبد الجنة فى الدنيا فطغى وفجر ونسى الآخرة فهذا قدر له السوء فى العاقبة واستدرج بماله وولده ، حتى إذا أخذه لم يفلته.

وان كتب الله له فى الأزل سعادة فقبض الرزق عنه وامتحنه بما يحيى قلبه لمشاهدة حكمة الله والعمل بأحكامه فتكون المصائب معارج إلى الله ، ومنهم من يدخله الله الجنة فى الدنيا ليدخله النار يوم القيامة ، ومنهم من يدخله النار فى الدنيا ويحجب عنه آياته ، ويبغضه فى أهل العلم بالله الذين يحيون قلوب العباد بأحوالهم وأقوالهم فيعيش فى النار فى الدنيا ، فإذا مات خلد فى النار يوم القيامة ، قال رسول اللهε : "أن لله جنة عاجلة من دخلها لا يحتاج إلى جنة آجلة" وهى جنه الرضا عن الله ، فإن الراضين عن الله فى الجنة ولو اصابهم ما أصاب أيوب ، فإن الرضا عنه سبحانه أنس القلب بمواقع المصائب ، وسكون النفس إلى منفسها عند الشدائد.

وهذه الآية أنزلها الله تعالى تهديدا لمعاصرى رسول اللهε من يهود بنى إسرائيل من أهل خيبر والنضير وقينقاع ، وبشرى لأهل الإيمان ليحثهم الله بها على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من بيع النفس والمال له سبحانه كما قال تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ"**[1] ومن باع السلعة كيف يرجع فيها ؟ وما من آية نزلت فى بنى اسرائيل تدل على أن الله غضب على أمة من الأمم بسبب عمل من الأعمال ، أو رضى عنها بسبب عمل من الأعمال ، أو رضى عنها بسبب ما قاموا به من السمع والطاعة لله ولرسوله إلا وجرت بذيلها الأمة الإسلامية.

فقد كنا فى زمن سلفنا الصالح نملك من غلمان أوربا وفتيانها كثيرا نشتريهم من أسواقنا ، وكان لنا الحول والطول أيام كنا نعلم بأحكام ديننا ، فلما أن خالفنا سنة نبينا ونسينا أوامر ربنا وأخذنا بالحظ والهوى والرأى ، سلط الله علينا من كانوا لنا عبيدا يباعون فى أسواقنا ، فأصبحنا أذل من العبيد ، ولأننا بمخالفة الله ورسوله أصبحنا أعوانا لهم على أنفسنا فلا ترى مسلما يتذوق طعم الرحمة لأبية أو لأخية أو لأمة ، حتى أصبح أعداؤنا يسلبون مرافق حياتنا ويضربوننا ببعضنا.

وكلما أردنا أن نتحد على العمل بكتاب الله وسنة رسوله قام العدو بخيلة ورجله فمنى منا قوما ووعدهم المساعدة والنصرة والتأييد ، فقاموا يضربون وجوه بعضهم بعضا حتى إذا اضعفوا أنفسهم وضع نعاله فوق رؤوس عظمائهم وكبرائهم ، فأصبحوا حثالة لا يستجيب الله دعاءهم إذا دعوا ، ولا ينظر إليهم إذا جاءوا ، ولا يرحمهم إذا ذلوا قال أبو هريرة رضى الله عنه "أنما يسعد آخر هذه الأمة بما سعد به أولها.

وقد أصبح الدعاة إلى الله بالحق قليلين جدا ، وأصبح المنتحلون الدعوة إلى الله أضر على المسلمين من الشيطان الرجيم ، لا يخافون الله ولا يرجون اليوم الآخر ، ملأ الحسد قلوب العلماء ، وأفسد الظلم قلوب الولاة والأمراء ، أذلت الخيانة انفس التجار ، وأفسد الكيد النساء ، حتى أصبح العلماء فى مصائد إبليس بالحسد ، والحكم فى مصائده بالظلم ، والتجار فى مصائده بالخيانة ، والنساء فى مصائده بالكيد . قال تعالى : **"وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"**[2] وتلك سنة الله فى خلقه من لدن آدم ، فإن الذى أفسد آدم وهو فى الجنة كيف يعجز عن أن يفسد من أحاطت به الفتن والمصائب؟

وفى هذه الآية تهديد من الله تعالى لجميع خلقه الذين يظنون أنهم فى ستر لا يراهم أحد ويقعون فيما يغضب الله ويجهلون أن الله عليم بهم أو ينسون ذلك ، ومتى راقب العبد ذلك العليم الخبير القريب الذى هو أقرب للعبد من

([1]) سورة التوبة : 111.

([2]) سورة سبأ : 13.

حبل وريده ، دلت تلك المراقبة على خوفه من الله وعظيم قربه منه ، ولو ربط الحجز على بطنه جوعا ، ولو فقد تلك المراقبة وسيقت إليه الدنيا بحذافيرها كان أشقى مخلوق.
لن فاقد المراقبة مع ما فيه من القوى المتضادة الدافعة إلى العلو والكبرياء فى الأرض وطلب الغنى والمنافسة ، لا يجد حصنا حصينا يدفع عن نفسه شرروها إلا بما يمن الله به على العبد من تلك المراقبة ، من الله علينا بحسن مراقبته فى أحكامه ، وبكمال مراقبته فى جلاله حتى نكون له كما يحب أنه سبحانه يكون لنا كما نحب.

قوله تعالى :[**"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**"(247)].

بعد أن بين لهم شمويل عليه السلام أنهم قوم لا وفاء لهم ، وأنهم بقية الحيف لا بقية السيف ، وقد مضى عليهم زمن وهم تحت ظلم العمالقة ولا ملك يجمعهم ، ولا شجاعة تجعلهم يقومون على دفاع العدو ، وبسبب ذلك أذلهم الله للعمالقة وفرق كلمتهم . فبينوا الباعث على طلبهم ما بينه الله بقوله: **"وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا"** فأقاموا الحجة على صدقهم فى عزمهم ، وحرصهم على دفع الضيم عنهم بقتال أعدائهم ، وبمسارعتهم إلى العمل بالتوراة وبسنن موسى عليه الصلاة والسلام.
فأوحى الله على شمويل بأنه سبحانه أقام طالوت ملكا على بنى إسرائيل ، فطلب من الله آياته فأخبره سبحانه أن أول رجل يدخل عليه – فينش الشحم المقدم – يكون هو الملك.
وكان طالوت قد ضاع منه ومن أبيه حمر خرج هو وغلامة يبحثون عنها ، فقال الغلام لطالوت : ادخل بنا على هذا النبى نسأله عن حمرنا ليدعو لنا ، فأجاب طالوت الغلام ودخلا ، وكان الشحم المقدس فى فرن أمام شمويل وعليه الذباب فنشه طالوت ، فقال له : أنت ملك بنى إسرائيل ، فقال له : الم تعلم أنى من أحقر سبط من بنى إسرائيل ؟ قال : بلى ،قال طالوت : ألم تعلم أنى من أدنى قبيلة فى هذا السبط؟ قال بلى ، قال : ألم تعلم أنى أفقر بيت فى هذه السبط ؟ قال : بلى ولكن الله يؤتى ملكه من يشاء ، قال : ما دليل ذلك؟ قال : أنك ترى الحمر التى ضاعت من أبيك قد ردت إليه.
ونادى فى بنى إسرائيل فأسرع إليه أشرافهم فقال : "أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا" فوقعوا فيما اعتادوه مع الأنبياء بعد أمره لهم فقالوا ما أخبرنا الله عنه : "أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال" تفصيل ذلك أنه ليس من سبط الملوك ولا من سبط الأنبياء ، لأنه كان سقاء وقيل كان دباغا ، وكان الأنبياء والملوك محصورين فى أسباط مخصوصة ، وكان هذا الجواب منهم دليلا على ضعف إيمانهم وغرورهم بأنسابهم.
وهنا أبين لك سر السلوك إلى الله تعالى ، لأن بداية معرفة السالك نفسه معرفة تجعله يتجمل بالسمع والطاعة لله غير منازع فيما يكون من الله سبحانه ، ومن آداب السلوك الى الله تعالى المسارعة فى تنفيذ أوامره بقدر الاستطاعة ، وترك نواهيه سبحانه مرة واحدة.
ومن آداب السلوك التخلق بأخلاق الله تعالى ، فبنو إسرائيل خالفوا كل تلك الأحكام والاداب بردهم هذا على نبيهم ، ولذلك عاقبهم الله على هذا فحرم أكثرهم من الجهاد فى سبيله كما سيأتى . نسأل الله سبحانه أن يرزقنا الأدب فى سلوكنا والإخلاص فى أعمالنا.
فلما أن أنكروا على طالوت استحقاقه للملك رد عليهم نبيهم عليه السلام بقوله : " **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ**" بين الله بتلك الآية الشريفة أن الجاهل بالتوحيد المغرور بنسبة بعيد عن الله تعالى ، لا يقبل آياته ولا يعقلها ، فإن قوله تعالى : "ان الله اصطفاه عليكم" يعنى أن الله هو الملك المطلق الذى لا يهب خيره وبره لعلة أو لنسب طينى ، ولكن يمنح قبل كل شئ نسبه العلى وهو العبودية لذاته سبحانه ، فإذا منع العبد اليقين فى مقام العبودية منحه العلم الذى يهديه به إلى الوصول إلى حضرته اصطفاء منه له.

أما الغرور بالنسب الطينى وبكثرة المال والولد فإنما يكون من أهل الجهالة بأنفسهم وبالله تعالى ، وتنزه ربنا جل جلاله عن أن يعطى فضله لعلة أو غرض أو سبب . قال سبحانه : **"وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا"**[1] أذن فما هى العلة التى جعلت ربنا جل جلاله يخلقنا ويخلق لنا كل شئ فى محيط العرش ؟ اللهم ارزقنا العلم والأدب.
وفى هذه الآية إشارة إلى أن الله سبحانه إذا وهب للعبد صحة وعلما يجب أن يدعو إلى الله ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويوقن بتأييد الله له ولا يتأثر بغرور أهل المال والسلطة ، فإن الله يؤتى ملكه من يشاء كما أنه يسلبه ممن يشاء **"وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ"**[2].

قوله تعالى **"وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"**
الوسعة الألهية صفة من صفاته وليس كمثله شئ فى كل شئ ، فإن العقول تعجز عن أن تعلم وسعته سبحانه فضلا عن إدراكها ، ولكنا نؤمن ونصدق أنه سبحانه واسع سعة لا يدرك حقيقته إلا هو من كل معانى الأسماء ، فهو واسع فى فضله ورزقه ,وإحسانه بالعلم والملك والولاية وغيرها مما يتعلق بالشئون الكونية فى الدنيا والآخرة وما يتعلق بالحقائق كلها ، فيهب الملك للسقاء والدباغ وللعبد الحبشى ،وكذلك يهب الولاية والعلم لمن يشاء فلا تقيده الأنساب والأموال ولا كثرة الجيوش والأحزاب ، وهو العليم سبحانه علما أحاط بكل شئ من ذاته سبحانه واسمائه وصفاته تقدست ، وبما قدر مما كان وما يكون إلى ما لا نهاية وفى هذه الآية إشارة إلى تفريده بإيجاد كل شئ.

قوله تعالى : [**"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**](248).

قوله تعالى **"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ"**
تاويل هذه الآية أن بنى إسرائيل لما أنكروا أن يكون طالوت ملكا عليهم لضعفه فى قومه وفقره ، بين الله لهم أن الملك لله ليس لأحد شركة فى الملك مع الله تعالى ، وأنه سبحانه يهبه لمن يشاء من عباده لا لأنه قوى أو غنى أو عظيم قومه اراد بنو اسرائيل أن تظهر لهم آية محسوسة تطمئن بها قلوبهم كعادتهم فى الانكار على أنبيائهم ، فأمر الله شمويل عليه السلام أن يخبرهم بأن تلك الآية هى مجئ التابوت إليهم تحمله الملائكة ، وهذا التابوت صندوق مصفح بالذهب طوله ثلاثة أذرع فى ذراعين عرض ، فيه أوراق من التوراة وعصا موسى وثيابه وعمامة هارون وآثار من بقايا الأنبياء السالفين عليهم السلام وفيه السكينة ، وهى جسم على صورة طائر لها وجه كوجه الإنسان .
كانوا إذا خرجوا لقتال أعدائهم قدموا هذا الصندوق أمامهم فينصرهم الله ويهزم أعداءهم . فلما خالفوا التوراة وأنكروا على أنبياء عصورهم سلبالله منهم الملك وضربهم بعصا الانتقام فأذلهم وأضعفهم ، وسلط عليهم العمالقة فاستعبدوهم وسلبوا منهم التابوت وهم فى قتالهم . فلما أخبروا ملكهم بفقد التابوت التوت عنقه فمات من الغم عليه ومكثوا من غير ملك فلما سامهم العمالقة الذل سألوا شمويل عليه السلام أن يجعل لهم ملكا . وقد بينت لك حيرتهم.
وقد ورد أن العمالقة لما أخذوا التابوت عندهم أصابهم المرض فأهلك خمس مدن ، فتشاءموا من التابوت وقالوا هذا بسببه ، فرفعوه على ثورين وأطلقوهما فى الأرض فساقت الملائكة الفحلين حتى ادخلوهما بما عليهما على طالوت فكانت آية تمليك طالوت . وفى خبر آخر أن التابوت رفع إلى السماء ثم أنزله الله إلى بنى إسرائيل آية لصدق شمويل عليه السلام فى خبره بأن طالوت ملك عليهم.

([1]) سورة مريم : 9.
([2]) سورة الأنعام : 18.

وفى هذه الآية برهان على أن بنى اسرائيل نفوسهم عنادية ليست لهم عقول تعقل عن الله خبره ، فإن احتياجهم إلى آية على صدق خبر شمويل عليه السلام دليل على ضعف إيمانهم ، وهذه سيرتهم من لدن موسى عليه الصلاة والسلام إلى زماننا هذا ، ومن قرأ أخبارهم الآن فى فلسطين يسأل الله أن يذلهم على أيدى المسلمين هناك وأن يذل سبحانه أمة الإنجليز الذين يمدونهم ليضعفوا المسلمين هناك ، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

قوله تعالى **"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**
يعنى تنزهت ذاته أن اتيان التابوت أى الصندوق الذى فيه السكينة وفيه عصا موسى وبعض ثيابه وآثار من هارون ومن الأنبياء السابقين عليهم السلام أية داله على أن الله تعالى جعل طالوت ملكا عليهم وتلك الآية مضافة إلى خبر شمويل عليه السلام عن الله تعالى ، والمؤمنون بالله يصدقون ويسلمون تسليما ويقبلون طالوت ملكا عليهم ، أما غير المؤمنين فإن نفوسهم العنادية تأبى أن تقبل عن الله تعالى أخباره أو تصديق بحججه العقلية والحسية.
وفى طي تلك الآية بيان أنه لا يسلم بآيات الله ولا يصدق أخبار رسل الله أو القائمين مقامهم إلا أهل الإيمان بالله الذين صاغ الله نفوسهم من نوره ، ومن لم يتفضل الله عليه بروح ملكوتية هى بمثابة النور الذى يجعله الله للعبد فإن لا يقبل الإيمان ولا يتذوق له طعما ، ولو أن الأنس والجن والملائكة اجتمعوا لهداية إنسان لم يجعل الله له هذا النور ما ازداد إلا ضلالا وبعدا.

قوله تعالى : [**"فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**"(249)].

معنى ذلك والله أعلم أن الحجة لما قامت باتيان التابوت على بنى إسرائيل بأن الله جعل طالوت ملكا أجمعوا على أن يخرجوا معه لقتال العمالقة . "فلما فصل طالوت" أى بعد عن بلده وفارقها "بالجنود" وكان خروجهم لقتال العمالة ،أراد الله أن يكشف له خبايا القوم ليعلم من يصدق معه فى القتال ممن ينقلب على عقبيه ليخرج معهم مطمئن القلب ، وكان قبل خروجه احتاط لنفسه فقال لا يخرج معى من يبنى بيته ولم يتمه حتى يتمه ، ولا من تزوج ولم يدخل بزوجته ، ولا مشتغل بتجارة ، ولكن يخرج معى الشاب الناهض فخرج معه ممن اختارهم ثمانون ألف أو أقل كما ورد ، وأراد الله تعالى أن يمحص القوم حتى لا يكون مع طالوت إلا من يثق بهممهم وعزائمهم فى نيل ثواب الله تعالى وعلمهم بفناء الدنيا ، فقال له شمويل قل لقومك : "أن الله مبتليكم بنهر" خبرا عن الله تعالى بالنوحى ، وجائز أن يكون أوحاه الله تعالى إلى طالوت على القول بأنه نبى أن كان القائل طالوت.
والابتلاء من الله تعالى ليقيم الحجة للصادقين بصدقهم ، وعلى الكاذبين بكذبهم ، وهو كالامتحان والاختبار . نسأل الله أن لا يدخلنا فى التجارب ، أن يحفظنا من الابتلاء والفتن ، وأن يعيذنا بجماله من جلاله وقد ورد أن هذا النهر من الأردن إلى فلسطين ، وقال بعضهم : أنه نهر فلسطين . وقال بعضهم أنهم كانوا فى الصحراء فى شدة الصيف وظمئوا فسألوا طالوت ان يغيثهم الله . فسال طالوت شمويل عليه السلام ، فأوحى الله إليه بهذه الآية.
"فمن شرب منه" ى فمن كرع منه "فليس منى" أى فليس من دينى ولا ممن ينبغي أن يكون معى فى قتال الأعداء "ومن لم يطعمه فإنه منى" اى من لم يذقه فإنه منى أى من أهل دينى وعقيدتى وممن أطاع الله "إلا من اغترف غرفة بيده" الغرفة بالضم ملء الكف وبالفتح واحدة الغرف ، والاستثناء متصل من قوله تعالى : فمن شرب منه" فاستثنى الله منهم الذين امتنعوا عن الشرب حتى أباح الله لكل واحد منهم غرفة يشرها.
وكانت الغرفة الواحدة تكفى الرجل وتكفى دوابه ، لأن الله بارك فى تلك الغرفة عناية منه ورحمة "فشربوا منه إلا قليلا منهم " أى فرجع اليهود إلى عادتهم من مخالفة الأنبياء والمسارعة إلى أهوائهم وحظوظهم.
وفى تلك الآية سر غامض يتذوقه أهل الورع من المسلمين ، لن الله سبحانه وتعالى قد يهب العبد بسطه فى الرزق ، ويكون العبد ورعا زاهدا فيكتفى بالقيل من القوت مع قدرته على الشهى اللذيذ ، لأن تلك الآية الشريفة

تدل على أن الله يحب من عباده أهل الورع والزهد فإنه تعالى يقول : "أن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى" وهو فى أشد ما يكون من الظمأ من حرارة الصيف ، فيكون امتناعهم عن الشرب مع توفر الدواعى دليلا على ورعهم ووقوفهم عند أمر الله تعالى ، وتكون اطاعتهم لحظوظهم ونفوسهم الشهوانية دليلا على أنهم يحقرون أوامر الله ويجعلون الحكم منهم عليهم ، والله تعالى تنزه عن أن تراه الأبصار أو تدركه العقول ، ولكنه ظهر لعباده فى أمره ونهيه فتعظيم الله محصور فى تعظيم أمره ، ومن أستهان بالأمر حرم الخير فى الدنيا والاخرة ، ولذلك فأن الذين شربوا من النهر حرموا التوفيق والهداية ونصرة الله ونبيه ، ومن امتنعوا حظوا بالصديقية وبالنصرة وبالظفر وبالغنيمة والجنة يوم لا ينفع مال ولا بنون ، نسأل الله أن يعيذنا من الابتلاء ومن الدخول فى التجارب.

"فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه" اى لما أن شرب من خالفوا الله تعالى ، وامتنع عن الشرب من أطاعوا الله من أهل الإيمان القوى جاوز طالوت البحر هو والذين أطاعوا الله لأن الله وصفهم بأنهم مؤمنون أى مصدقون.

قوله تعالى **"قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ"**

هذه الآية الشريفة تدل على أن الذين قالوا ذلك هم الذين كرعوا من النهر فسود الله شفاههم ونزع منهم الشهامة الدينية وحسن الظن بالله ، فرأوا لضعف إيمانهم قوة جالوت وجنوده فقالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، ولو أن الله كتب الإيمان وزينه فى قلوبهم لراءوا جالوت وجنوده مقهورين بقهر ذى القوة والعزم الذى قال سبحانه : "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"([1]) فكان قولهم هذا نتيجة ما ألم بقلوبهم من ضعف الإيمان ومن وسوسة الشيطان وجائز أن يكون قائل هذا القول بعض المؤمنين استغاثة بالله تعالى وطلبا لعنايته بهم بدليل قوله تعالى:

قوله تعالى **"قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ"**

بين الله لنا بهذه الآية أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت من أهل الإيمان بالله وحسن الظن به سبحانه ، لأنهم علموا علم اليقين بلقاء الله تعالى حتى كأنهم يشاهدون قوته سبحانه وقدرته على إهلاك أعدائهم ، وفى قوله تعالى : "كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة" دليل على انبلاج الحقائق لقلوبهم حتى تحققوا إطلاق قدرة الله ، وكمال ملكه المطلق على عبيده ، ودرسوا تاريخ الأنبياء والملوك السابقين من أسفار نوح والخليل ولوط وهود وشعيب وموسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم ، فكان العلم بتاريخ الأوائل مع نور الإيمان الذى جعله الله فى قلوبهم يجعلهم على يقين تام بنصرة الله لهم لأنهم قاموا لنصرته سبحانه.

قال تعالى : " **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ**"([2]) ومعنى الآية كثير من فئات العدد والعدد غلبت فئات كثيرة العدد والعدد ،وذلك "بإذن الله" اى بتقديره تعالى وقوته وقدرته . "والله مع الصابرين" أى ونصرة الله وتأييده وقوته مع الصابرين الذين ملأ الله قلوبهم يقينا فألقوا بأنفسهم أمام العدو القوى غير مبالين بما يصيبهم فى سبيل الله.

([1]) سورة يس : 82.

([2]) سورة محمد : 7.

قوله تعالى : ["**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**"(250) "**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**"(251) "**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**"(252).]

قوله تعالى "**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**"

البروز معلوم وهو الوقوف فى الصف أمام العدو ، والواو هنا كناية عن الذين آمنوا مع طالوت وجاوزوا النهر معه ، وهذا الدعاء يدل على ان القائلين : "لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده" هم بعض المؤمنين ، ومعنى دعائهم هذا انهم يسألونك الله أن يصب عليهم صبرا تقوى به قلوبهم ويسكن به جأشهم وتضعف به قوة أعدائهم بما يلقيه فى قلوبهم من الرعب منهم.

قوله تعالى : "وثبت أقدامنا" أى امنحنا يقينا حق نتمثل به نعيم الآخرة حتى يكون الاستشهاد أحب إلينا من الحياة فى هذه الدار أذلاء للعمالقة ، وبهذا اليقين تثبت أقدامنا فى الحرب لما نراه فى أعدائنا من الضعف والهزيمة والخوف ، وما نراه فى أنفسنا من القوة والجرأة بتأييدك . "وانصرنا على القوم الكافرين" اى وامنحنا الظهر والفوز فى ميدان القتال حتى نهزم أعداءنا ونستولى على متاعهم غنيمة لنا ، ونقهرهم قتلا وأسرا و "القوم الكافرين " هم الذين لم يؤمنوا بالله ورسله وخالفوا أحكامه وقاتلوا رسله وأصحابهم ، والكفر فى اللغة : هو الستر. أى القوم الذين سترت عليهم حقائق الغيب فلم تؤمن بها قلوبهم ، ولم تسكن إليها أرواحهم ، ولم تقبلها عقولهم.

قوله تعالى "**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**"

معنى هزموهم اى استولوا عليهم ففروا من أمامهم ، وكان مع طالوت أيش أبو داوود عليه السلام ، وكان له ستة أولاد خمسة يقاتلون معه وداود يرعى لهم غنما ، فأوحى الله إلى شمويل أن الذى يقتل جالوت هو داود بن أيش ، فطلب طالوت داود من أيش فأرسله إليه ، وعند قدومه سمع ثلاثة أحجار تقول : يا دواد خذنا واقتل بنا جالوت : فأخذها داود ووضعها فى مخلاته ، وكان داود يرمى السباع بالمقلاع يردهم عن غنمه ، فلما حضر عند طالوت قال : أن شمويل اخبرني أنك تقتل جالوت . قال : وما الذى يناله من يقتله ؟ قال : انكحه إبنتى .

وخرج جالوت وجنوده فى عزة وانفة ، فوضع داود حجرا فى مقلاعه ورمى به جالوت فأصابه فى صدره فخرج من ظهره فوقع قتيلا وكانت أول معجزة لداود . وقيل أن الحجر قتل رجلا وراء جالوت . فزوج طالوت ابنته لداود ، قيل ثم حسده وخاف أن يأخذ الملك منه لأنه من سبط النبوة فأخبر ابنته أن تستر عليه فى أن يقتله . وكانت البنت تحب داود فأمرته بالفرار ففر ونجا منه ، ولما تذكر طالوت ندم وتاب ، والذى كان يخافه وقع فإن الله أعطى الملك والحكمة لداود كما سيأتي.

قوله تعالى "وقتل داود جالوت" أى قدر الله تعالى قتل جالوت على يد داود فنفذ قدر الله الذى قدره لحكمة ظهرت لأهل المعرفة ، ومنها ما بينه الله فى قوله سبحانه : "وآتاه الله الملك والحكمة" الملك : معلوم ، والحكمة : النبوة . "وعلمه مما يشاء" من تدبير المملكة واتقان الصناعات كعمل الدروع والسيوف وغيرها من علوم الدين ، وعلم الحقائق الكونية ، ومن الحكمة فى إيجاد الله سبحانه لها . وكان دواد يرعى لأبيه أيش غنما.

بينت هذه الآية الشريفة تفريد الله تعالى بالاعطاء والمنع والتفضل والإحسان من غير علة ولا سبب ، فهو سبحانه يعلم من يشاء بالوحى أو بالالهمام أو بما يجعله من نور بصيرة أو صفاء جوهر النفس ، والعلم الحقيقى هو ما يعلمه الله للعبد . وكل علم تعلمه العبد من العبيد أمثاله ولو كان أمثال الجبال لا ينفع القلوب ، ولا تزكو به النفوس ، ولا تلين به الجوارح الى طاعة الله تعالى ، اللهم الا ما كان من نبى أو وارث لنبى عليه السلام ، فإن ذلك فى حكم تعليم الله للعبد . ولم يشأ الله تعالى أن يجعل رجلا عالما بذاته أبدا ، وكل مخلقو يحتاج إلى المعلم ولكن التفاوت يكون فى هذا المعلم ، فالأفراد المحبوبون لذات الله يعلمهم الله علما لدنيا ، وأبدالهم وورثتهم يجعل الله لهم نورا فى قلوبهم ويوفقهم لصحبه عارف به ، فإذا سمعوا الحكمة كانت مفتاحا للقلوب فيشهدون أنوار علام الغيوب.

قوله تعالى **"وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ"**

أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسن مكونا من عناصر متضادة ومن نفوس مختلفة ، فعناصره التى هى أركان الوجود الماء والهواء والنار والتراب ، والنفوس المختلفة هى النفس الشهوانية والسبعية واللطيفة الملكوتية ، فإذا قوى عامل الشهوة وتسلط عامل الانتقام وتحكم كان عبدا لنفسه الأمارة بالسوء ، وإذا هداه الله ووفقه فقويت اللطيفة الملكية كان روحا عاليا فوق ملائكة السماء ، وكانت النفس الشهوانية والسبعية جاذبه له إلى نيل رضوان الله الأكبر بما يقوم به من مجاهدة النفس لملكية لهما ، وبما يقومان به من المسارعة معه إلى الجهاد الأكبر فى سبيل الله وإلى الورع عما يكرهه الله تعالى فيكون أعظم مجاهد ، قالε "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس".

وليس من قتل بين الصفين كمن تقلت لطيفته الروحانية نفسه الشهوانية والسبعية . وأن المجندل بين الصفين قد تكون نيته الغنيمة والشهرة أو السيادة ، بخلاف الذى يجاهد حظه وهواه فى ذات الله تعالى فإنه مخلص قلبا وقالبا ، سالكا على الصراط المستقيم ، متقديا برسول الله ε وليس بينه وبين ربه إلا رسول الله.

فالإنسان بما فطر عليه وكون منه لا يمنعه عن الشرور الفادحة إلا سوط النقمة أو سلطة الظالم ، ولذلك فإن الله سبحانه إذا منح عبدا سلطة وقوة وتمكينا فى الأرض ونسى أصله سلب الله منه الراحة والأمن ، وسلط عليه ظالما جبارا يسومه الخسف حتى يشغله عن ظلم الناس . فاما أن يرجع إلى الله ويتوب فينصره يؤيده. وأما أن يزداد طغيانا وظلما فيمحقه الله ويقهره.

وهذا معنى قوله تعالى : "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببضع لفسدت الأرض" يعنى أن الله تعالى قد يمكن للظالم حتى إذا طغى وبغى سلط عليه من هو أظلم منه ، فيسلب ما بيده من قوة وحول ليستريح العباد من ظلمه ، ومن أراد الله له السعادة ولو صرفه فى ملك السموات والأرض لا يزداد إلا تواضعا لله ، ورحمة بعباد الله ، وشكرا له سبحانه على ما أنعم به فيزداد إلى أن ينعم عليه بما لا عين رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ومن سبق فى علمه سبحانه أن يبدل نعمة الله كفرا فيستعين بنعمة الله على غضب الله وظلم عباده ، فلا يمكث إلا ريثما ينتقم الله منه بظالم غيره.

قال صلى الله عليه وسلم : "أن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" وتأويل هذه الآية أن :"لولا" حرف امتناع لوجود ، فامتنع فساد الأرض لوجود "دفع الله الناس بعضهم ببعض".

ومن نظر إلى حالتنا الحاضرة من تسليط اعداء الله على المجتمع الإسلامى بعد أن كانوا عبيدا يباعون فى أسواقنا ، يتحقق أن سلب الله لنا هذا الملك كان بسبب ظلم من مكن الله لهم فى الأرض ، أسأله سبحانه أن يعلى كلمته ويجدد سنة نبيه حتى يعود لنا التمكين فى الأرض كما كان لسفنا الصالح.

"لفسدت الأرض" أى لولا أن الله تعالى يحب اصلاح شأن عباده وحالهم لمكن الظلمة منهم فأفسدوا فى الأرض وساموهم سوء العذاب فمحقهم الله محق قوم عاد وثمود ، ولكنه جال جلاله يسلط أعداءه على من خلفه كما قال ε . راويا عن الله تعالى فى حديث قدسى : "إذا عصانى من يعرفنى سلطتعليه من لم يعرفنى" وهى سنت سبحانه ومن قرأ صحائف التاريخ وما كان لبنى اسرائيل من المصائب على يد بختنصر وعلى يد الروم يعلم أن الله تعالى أنما سلط بختنصر والورم الإفرنج اراحة لعبادة من ظلم الطغاة المتسلطين.

وعسى أن يتذكر أخواننا المسلمون ذلك ، فيرجون إلى الله تعالى ليعيد الله لنا مجد أسلافنا الصالحين ، فإن الله نصرنا سلفا بالتقوى ، ورفعنا بالإسلام والمحافظة على فرائضه وسننه ، فلما اختلفنا وتركنا شرائع ديننا سلط الله علينا من كانوا عالة علينا وأرقاء لنا . ومنحهم علم الصناعات والفنون والكيد والخبث أما ليؤدبنا ويرحمنا أو لينتقم منا ويمحونا أعاذنا الله بوجهه ، وأنا لنطمع أن يجعل الله بعد هذا الظلم والظلمة عدلا ونورا يملأ الأرض بعد أن ملئت ظلما وجورا ، وما ذلك على الله عزيز.

قوله تعالى **"وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ"**

يعنى أن الله سبحانه يدفع الظالم عن ظلم عباده بالظالم من خلقه ، لنه سبحانه متفضل على خلقه بماله من أسماء الجمال الكثيرة التى عددها فيما نعلم سبعون ، وأسماء جلاله وعددها تسعة عشر اسما ، فهو لما له من الجمال العلى يتفضل ويحسن ويغفر ويستر ويعفو ويكرم ، وبما له من الجلال والكبرياء يعدل فى عباده فينتقم من الظالم بالظالم ، ثم ينتقم من جميع الظلمة يوم القيامة . ويحسن إلى أهل محبته فى الدنيا بالتوفيق والهداية والسمع

والطاعة والصبر على ما قدره وما أمر به أن يتقرب بـه إلينـا والرضـا بأقداره ، ثـم يحسن الإحسـان الأكبر يـوم القيامة . فينيل الرضوان الأكبر لأهل الذكر الأكبر ، وهو الفاعل المختار لا شريك له.

قوله تعالى **"تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ"**
الخطاب لرسول اللهε واسم الإشارة كنايـة عن الآيـات السـابقات فـى بيـان الأحكـام الشـرعية والأخبـار عن الأمم السابقة والأنبياء . **"آيَاتُ اللَّهِ "** التـى لا يعلمها إلا من سبق له علم التوراة والإنجيل والزبـور من أحبـار يهود بنـى إسرائيل ، وهى من أكبر المعجزات بالنسبة لرسول الله ε ، لأنه نشأ بين جاهلية عميـاء صـماء لا يعملـون إخبـارا ولا يحسنون قراءة ولا كتابة ، فعلمه ε بتلك الأسرار العلية الغامضة – إلا على من يزاولها من الأحبـار والكهنـة – دليل على أن رسول الله ε وبرهان على صدق نبوته.

فقوله : **"وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ"** بعد قوله : "نتلوها عليك بالحق" أى باليقين البرهاني المحسوس معطـوف عليـه ، ثم أتى بحرف التوكيد ولام القسم ليدل على أنه هو الرسول العظيم الذى أنفرد بأن ينزل الله عليه الدين كلـه كـاملا ختما للنبوة فلا نبي بعده ، و "ال" فى قوله "المرسلين" لك أن تقول للعهد ، وجائز أن تكون للاسـتغراق يعنـى أن الله جمع لك ما آتاه جميع المرسلين وزادك ما به كمال الدين كله ، أنى إنك من المرسلين الذين جمع الله لهم مـا لـم يجمعه لغيرهم كالخليل والكليم ، وزادك الله ما لابد للمجتمع الإنسانى منه مما به السعادة فى الدنيا والآخرة

* * *

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثانى

ويليه بإذن الله الجزء الثالث